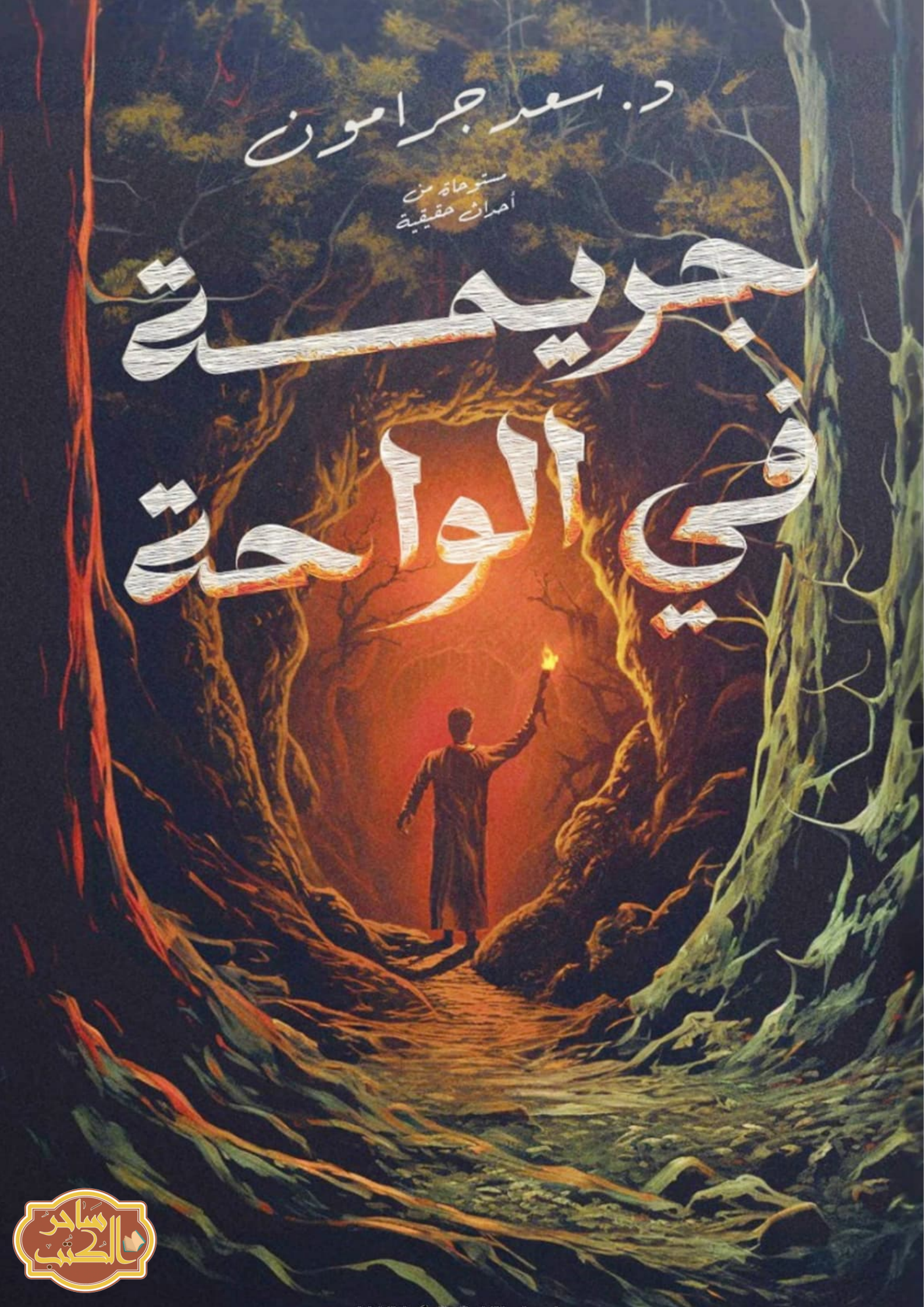
د. سعد جرامون
مستوحاة من
أحداث حقيقية
جريمة
في الواحة

الكتاب: جريمة في الواحة
المؤلف:د. سعد جرامون
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 2023/26520
الترقيم الدولي: 978-977-778-355-2
الطبعة الاولى:2024

20 عمارات منتصر- الهرم-الجيزة
ت- 02-35860372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

(1)

كان هناك كهف صغير مُظلم في بطن جبل عالي للغاية كاد أن يُعانق السماء, وكان هذا الجبل مُحاط بـأشجار عالية جدا ورغم عُلُو هذا الجبل إلا أن هذه الأشجار كانت أعلي منه وكأنها خُلقت هكذا كي تخفي هذا الجبل عن العالم اجمع, ظهر هذا الكهف مروع ومخيف جدا وكأنه من العالم الآخر صُمم بـطريقة مُخيفة من حجارة غريبة بدت وكأنها من جهنم وكان هناك صرير وهمهمات داخله غير مفهومة البتة مع أصوات ذئاب تعوي في كل مكان, أكان صوت العواء من داخل الكهف أم من خارجه؟! لم نستطيع أن نحدد ذلك بالضبط! بدت الذئاب تعوي وكأنها تستغيثُ من خطر ما ربما يفتكُ بها, يا للهول الذئاب خائفة من ماذا, وما هذا الشيء الذي بقدرته أنه يخيف الذئاب أصلا؟!

وفي وسط الكهف كان هناك ثلاث مقابر يجلس أعلاهم ثلاثة رجال مخيفين في المظهر والشكل وملامح الجسد خاصة وجوههم, وكأنهم ليسوا من البشر وجوههم كبيرة جدا بـالمقارنة بـوجوه البشر العاديين حواجبهم سوداء ثقيلة الشعر بشرتهم داكنة السواد ويظهر عليها بقع من النار شعر رأسهم طويل وفي نهايته اشتعلت النار ليس لديهم شعره واحدة في شواربهم أو لحيتهم عيونهم منشقة بـالعرض إلي أذنهم, وراحت النار تخرج من أفواههم بين الحين والأخر, نظراتهم ثاقبة وكأنهم أتوا من العالم الآخر لـمهمة ما عرايا تماما دون سترتهم بين أفخاذهم بـقطع من الجلد المُختلط

بـالدم.

ومع كل هذا المشهد المرعب كانت هناك طفلة صغيرة ترتدي جلباب أسود غطي كل جسدها وشعرها الأسود وانسدل علي ظهرها تجلس أرضا أمام الثلاث مقابر تحدق لـهؤلاء الرجال تدمدمُ باكية بـحرقة حتي صار عويلها أقوي وأعلي من عواء الذئاب وكأنها تستغيث من خطر ما, تارة تنهض من مكانها صارخة في محاولة أن تدنو نحوهم إلا أن نيرانهم المُشتعلة ظلت تبعدها عنهم بسرعة؛ فـتعود وتجلس مكانها من جديد وتارة تركض في جميع أنحاء الكهف في محاولة للفرار إلا أن عواء الذئاب القوي يرجعها مرة أخري حتي باتت حبيسة بين عواء الذئاب ونيران هؤلاء الرجال الذين ظلوا يحدقون لها بـوجوم لم تصبهم الدهشة مطلقا من شكلها المُثير للشفقة والرعب الذي سيطر عليها, بـتمعن, ظلت هذه الطفلة تحدق لهم وتنشج باكية بقوة وهي ترتشف دموعها حتي ظهر من بعيد علي مرمي البصر طفلا نحيفا عاري الجسد تماما دون قطعة من الجلد تستر ما بين فخذيه قادما نحوهم يركض بـكل قوته خائفا وكأن أحدهم يركض خلفه ودنا منهم أكثر مدهوشا ونظر لـهؤلاء الرجال وانتصب شعر رأسه خوفا وارتجف جسده وراح يتصبب عرقا أراد أن تنشق الأرض وتبتلعه من الخوف, ثم بـعينين متسعتين خائفة حدق لـ(طفلة الكهف) وبـصوت عالي دوي في الكهف كاد أن يهدمه صاح قائلا:

ـ لماذا تبكين, ومن هؤلاء الرجال ولماذا انتِ هنا وإين نحن

الآن من الأساس؟!

بـدموع دموية اغرقت وجنتيها حدقت له (طفلة الكهف) مرتجفة منكسرة ولم يعُر ما قاله اهتمامها ولم ترد بـأية كلمة ثم راحت بـترقب وحذر تنظر لـهؤلاء الرجال خائفة وراح (طفل الكهف) يكرر عليها أسئلته لكنها لم تجب عليه البتة وظلت تنشج باكية بقوة كاد بكائها أن يهدم الكهف عليهم جميعا.

وفي تلك اللحظات, ضحك الثلاثة رجال وراحوا يقهقهوا بقوة ضحكات عالية ما زاولوا يرمقون (طفلة الكهف) و(طفل الكهف) بـنظرات باسمة ساخرين منهما دون أي اكتراث لذعرهم واختلط عواء الذئاب بـبكاء (طفلة الكهف) وضحكات هؤلاء الرجال.

***

موعد مع النصيب والقدر والمجهول في «الواحة» بلدة صغيرة تقع في الصحراء الغربية من جمهورية مصر العربية تتبع مدينة «سيوة» تبعد عنها قليلا من الكيلومترات يعمُها الهدوء حيث يسكُنها أُناس بسطاء يعيشون في صموت داخل بنايات معظمها من سعف النخيل وخشب الأشجار دون القليل منها من الطوب والاسمنت علي الطراز الحديث, يستمتعون الناس في «الواحة» بـجمال الطبيعة الساحرة بين الأشجار وماء الآبار يعيشون علي محاصيل بلح التمر وبعض المحاصيل الأخرى مثل القطن وأيضا رعي الأنغام والأبل في الجبال وبين الوُديان.

الأطفال يمرحون ويلعبون بين الجبال والنخيل سعداء طوال النهار وعندما يأتي المساء ويزحف الظلام رويدا رويدا يذهب كلا منهم إلي بنايته, وكان من بينهم الطفل (مطراوى) ذو الست سنوات يعيش مع أمه (عزيزة) وحيدا بعد موت ابيه قبل مولده بخمسة شهور, يدرس في الصف الأول الابتدائي في مدرسة «الواحة».

(عزيزة) سيدة بسيطة عشرينية العمر تعمل في خدمة البيوت لتتحصل علي المال الذي يكفي لمعيشتها هي وابنها وتعمل أحيانا باليومية في موسم حصاد البلح, وكانت تقطنُ في بناية صغيرة مبنية من الخشب وسقفها من سعف النخيل, حجرة واحدة بردهة صغيرة وحمام, وفي الحجرة سرير صغير تنام عليه وبحضنها ابنها.

كان في الجانب الغربي لـ«الواحة» أشجار كثيرة تُسمي «الغابة « طالما كان يقف (مطراوى) ينظر لها مدهوشا من شكلها المُخيف وصرير أشجارها المُعانقة للسماء والذي صار يعشقهُ وطالما كان يحدث نفسه عن هذه «الغابة» وكأنه كان يدرك أن وراءها سر كبير ربما يكتشفه مع مرور الأيام وربما لا إلا أنه بات هائما بحب «الغابة» وكأنها قد سحرته بشكلها الغريب والمُخيف خاصة ليلا عندما يعم السكون والهدوء, ظل (مطراوى) هكذا يتردد علي «الغابة» دون أن يخبر أحدا بذلك إلي أن قرر أن يدخلها وحده ذات يوم في وسط النهار ورأي إبداع في خلق الله سبحانه وتعالي ناظرا للمشاهد الطبيعية مُستمتعا وكأن شيئا ما يشده ليتعمق

أكثر وأكثر داخل «الغابة» حتي سمع صوت أحدهم يتنفس بـصوت مرتفع حوله وراح هذا الصوت يتنقل من مكان لـآخر, بـاكتراث راح ينظر (مطراوى) في كل مكان لكنه لم يستطيع أن يحدد مكان هذا الصوت, أرتجف مذعورا وشرع بـالعودة إلي «الواحة» ولكن هيهات هيهات لقد ضل الطريق وفقد الأمل أن يخرج من «الغابة» اقترب المساء وتوارت الشمس وغطي الظلام العاتم «الغابة» خائفا جلس (مطراوى) وحيدا تحت شجرة عالية شاهقة شامخة ملتفتا حوله في كل مكان ومرت دقائق وهو يرتعش خوفا من ذئب قد يخرج من بين الأشجار يلتهمهُ أو ربما عفريت يظهر له, وراح يتلصص ويختلس النظرات بين الأشجار مُغمغما بـهدوء:

ـ وينكِ يا (أماي)؟ تعالِ خذيني من هنا أنا خائف.

ظل نحيل الجسد قمحي الوجه يُنادي علي أمه والعرق يحتشدُ علي جبينه ما يقرب من الساعة مع تقدم الليل مرتجفا من الظلام والذئاب والمجهول داخل «الغابة» وأبي النوم أن ينصاع إليه مطلقا حتي شاعت الابتسامة علي وجهه عندما لمح علي مرمي البصر بين الأشجار ضوء خافت يقترب منه وكأنه طوق النجاة له الآن.

شابا فارع الطول ذو شعر رأس طويل أشعثُ اللحية وشارب كثُ بـيده شعلة من النار دنا من (مطراوى) ووقف أمامه وبـعينين كحيلة ذات رموش طويلة راح يحدق لـ(مطراوى) للحظات بـوجوم ممتعضا يخلو من المشاعر وصمت دون أن يتفوه بـأية كلمة بـنظرات قوية صائبة كلها

ترقب وحذر وعمق غير مفهوم كاد أن يخرج منها أشعة قوية, بسرعة الضوء نهض (مطراوى) من مكانا وتسمّر واقفا وتعجب للحظة وأزدرد ريقه ضاما شفتيه وسأل هذا الغريب في ارتياب:

ـ من انت وماذا تريد مني؟!

تجهم وجه هذا الشاب وقطبّ جبينه في استهجان ولم يجب البتة إلا إنه راح يلوح لـ(مطراوى) بـيده وكأنه اراد أن يخبره أن يتبعه, وهنا تحرك (مطراوى) من مكانه ومشي هذا الشاب وخلفه (مطراوى) صامتا إلي أن وقعت عينيّ (مطراوى) علي قدميّ هذا الشاب, يا للهول انها قدميّ ماعز, أنتصب شعر رأس (مطراوى) وأجفل وتسمرّ في موضعه ونشج باكيا بقوة وهو يتصبب عرقا لا يدرك ماذا يفعل في تلك اللحظات, وهنا وقف هذا الشاب وزمجر غاضبا بـصوت يشبه صوت وحش كاسر وأستدار بـوجهه ناحية (مطراوى)؛ فـرأي (مطراوى) عيناه تمتد من أسفل حاجبيه إلي فاه وراح يخرج منها نار امتدت إلي وجه (مطراوى) كادت أن تحرقه, وفي تلك اللحظات صاح (مطراوى) صارخا صرخة هزت «الغابة» بـأكملها دون أن يسمعه أحد وسقط مغشيّ عليه في الحال.

وفي صباح اليوم التالي, وقد سطعت الشمس بقوة وأنارت السماء أفاق (مطراوى) بعد أن شعر بـأشعة الشمس تلسعه في جسده وفتح عيناه وراح يفركها بـيديه ووجد رجل أربعيني غائر الخدين يقف أمامه يبدو أنه أحد القرويين

الذين يعيشون في «الغابة» يرتدي زيا غريبا بدي وكأنه من العصور القديمة, سروالا واسعا فضفاضا وقميصا حتي ركبتيه صُمم بشكل غريب مرسوم عليه حروف وكلمات غير مفهومة ليست حروف عربية ولا حتي أجنبية بدت وكأنها حروف هيروغليفية, وهنا حدق له (مطراوى) بتمعن لبرهة ثم دمدم صارخا وصاح قائلا:

ـ ابعدوا العفريت عني, أخرجوني من هنا اريد (أماي).

دنا منه (الرجل القروي) وبعينيه السوداء الواسعة حدق له بتمعن وتنفس الصعداء وقال شاهقا:

ـ يا للهول, هل ظهر لك؟!

زمّ (مطراوى) شفتيه وأزدرد ريقه وحدق له بنظرات كلها أسئلة دون أن يتحدث بأية كلمة وبحدقتين مُتسعتين ووجه محتقن بالدماء نظر إلي قدمي (الرجل القروي) ليتأكد أنها لا تُشبه قدم الماعز, أنها قدميّ أنس وهنا تورد وجه (مطراوى) بالابتسامة قليلا بعد أن كان يشعر بالخوف المحزن وفي تلك اللحظة, بجسده القوي الطويل حمله (الرجل القروي) علي كتفيه العريضة وعاد به إلي «الواحة» وكانت (عزيزة) تجلس أمام باب بنايتها وبجوارها جارتها وصديقتها المُقربة (فردوس) في نهاية عقدها الثالث وطفلتها (تينة) ذات البشرة البيضاء والتي تدرس مع (مطراوى) في الصف الأول الابتدائي, رأته أمه علي مرمي بصرها علي كتفيّ (الرجل القروي) هرُعت إليه مُسرعة واقتربت منه وراحت تحتضنه وكأن روحها قد رُدت إليها من جديد وبصوت مبحوح غلبه

البكاء والكسرة قالت مرتجفة:

ـ كنت وين يا حبيبي طوال الليل؟ وجعت قلبي عليك يا (مطراوى).

تحدثت (عزيزة) هكذا ودموعها تسيل وهي تحتضن (مطراوى) الذي لم يرد عليها بأية كلمة ولكنه راح يحتضنها بشدة وكأنه يريد أن يخبرها أن حضنها هو الأمان له في الحياة وكان حضنها هو مصدر الأمان له في تلك اللحظات بعد أن قضي ليلة من الرعب المخيف داخل «الغابة».

«ثمة هناك مكان آمن في الحياة رغم صغره إلا أنه سيظل المكان الأوسع في الدنيا علي الأطلاق, نلجأ إليه عندما تتغلب علينا الحياة وتضيق بنا الدنيا ويصبح لا ملجأ لنا إلا هو .. أنه حضن الأم, يا له من مكان آمن».

ظلت (عزيزة) تحدق لـ(الرجل القروي) بنظرات تحمل كثيرا من الدهشة والاستغراب من شكله الغريب والذي لم تراه من قبل لكنها لم تركز معه كثيرا, كل ما كان يشغل بالها في تلك اللحظات هو ابنها والاطمئنان عليه بعد أن شعرت بالخوف طوال هذه الليلة الماضية, غادر (الرجل القروي) ودخلت (عزيزة) إلي بنايتها وابنها في حضنها ما زال لا ينطقُ حتي الآن بصحبة (فردوس) وابنتها, بعينيها الزرقاوان حدقت له (تينة) وكأنها تريد أن تخبره إنها كانت قلقه وخائفة عليه بعد أن ظلت تبحث مع أمه عنه داخل «الواحة» طوال ليلة البارحة؛ فهي تعشقه بجنون رغم أنه ما زال طفلا صغيرا لا يدرك أية مشاعر تجاهها.

بـملابسه المقطعة دخل (مطراوى) غرفته وأخلد إلي النوم علي سرير مُتهالك راح يهتز به, غادرت (فردوس) وابنتها وذهبت (عزيزة) للسوق تبتاعُ بعض الأغراض فرحة بعودة ابنها, وفي الطريق قابلها (يونس) رجل في وسط عقده الرابع, ودنا نحوها بـرائحته العفنة وشكلة الذي يدل علي أنه (بلطجي) من الدرجة الأولي حيث هناك آثار لـبعض الجروح علي وجهه وفروة رأسه وبـنظراته الصائبة وملامحه الغليظة والحادة رمقها لـبرهة, نظرات تحمل كثيرا من المكر والخبث مُختلطة بـالشهوة والدهاء وبـصوته الأجش المُزعج قال:

ـ صباح الجمال علي عيونكِ يا جميل أنتِ يا طري.

وصمت (يونس) للحظة مُتمعنا في جسد (عزيزة) المرسوم والمُقسم تحت جلبابها ثم قال:

ـ لماذا لا توافقين عليّ حتي الآن يا (وزتي) يا عسل أنتِ يا حلو؟!

ارتجف جسد (عزيزة) وارتعشت داخل عباءتها السوداء والتي أظهرت وجهها شديد الحُمرة جمالا علي جماله وبـغضب وخوف نظرت له وردت:

ـ ابعد عن طريقي يا (يونس) لن اتزوج مرة أخري بعد موت زوجي وسـأعيش لـابني فقط, ارجوك أفهم ذلك جيدا وابعد عني ولا تعترض طريقي مرة أخري وإلا...

قاطعها:

ـ اخرسي يا (وزتي).

ثم اقترب منها مُقهقها وقبض علي يدها بقوة وبيده الأخرى راح يقرصها من جسدها ريثما ترضخ له, وهي تحاول أن تتحرر منه حتي جثت علي ركبتيها ألما وحدقت في عيناه راجيه أن يبعد عنها ويتركها لحالها وهنا اوقفها ساخرا وقال:

ـ اسمعيني جيدا يا (عزيزة) لن اتراجع عنكِ مهما كلفني الأمر برضاكِ أو غصب عنكِ أنتِ ملكي أنا؛ فالأفضل وافقي علي زواجنا بهدوء وبدون أية مشاكل وهذا أخر تحذير لكِ, أيعقل أن اترك هذه الفرسة التي لا مثيل لها في «الواحة» كلها لشخص غيري يا (وزتي) يا أجمل نسوان «الواحة» أنتِ يا عسل يا جميل.

شعرت (عزيزة) بألم في يدها وبعينيها الخضراء حدقت بتوتر وقلق في عيناه وفرت الدموع من عيناها إلي وجنتيها وبصوت واهن قالت مُنكسرة:

ـ بالله عليك ابعد عني يا (يونس) اريد أن اربي ابني, ليس لي في الدنيا غيره انت عندك بناتك ربيهم واتركني في حالي.

نعم؛ (عزيزة) مقطوعة من شجرة وليس لديها أهل في «الواحة» وصار ابنها كل أهلها.

ترك (يونس) يدها وبعينيه البنية نظر لها بغضب وعنف دون اكتراث وأردف باسما ساخرا:

ـ لن اتركِ يا (وزتي) واتمني أن توافقي علي الزواج أفضل لكِ وفي اقرب وقت حتي...

ثم صمت تماما ما زال يطالعها باسما وصمتت (عزيزة) وغادرت المكان مُرتجفة, وفي الطريق قابلها (النمروس) شاب من ذوي الاحتياجات الخاصة, بوجه مُتجهم حدق لها وراح يلوح بيديه في الهواء وجسده يهتز لا يستطيع الوقوف بثبات وقال مُتهتها:

ـ عيني عليكِ وعلي (مطراوى) يا (عزيزة).

حدقت له (عزيزة) خائفة للحظات ثم غادرت المكان وقد أدركت بعد كلمات (النمروس) المُعاق ذهنيا والمعروف في «الواحة» إنه مكشوف عنه الحجاب أن هناك ثمة خطر قادم لها ولابنها, وصلت السوق وابتاعت ما تريده ثم رجعت وذهبت إلي (فردوس) وقصت عليها كل ما حدث من (يونس) هذا اليوم, بوجها القمحي هزت (فردوس) رأسها ونظرت لها بصموت وترقب لجزء من الثانية ثم قالت:

ـ ولماذا لا توافقين علي الزواج منه يا (عزيزة) وعلي رأي المثل «ظل رجل ولا ظل حيطة».

قطبت (عزيزة) جبينها في استهجان وبوجهها الأبيض ووجنتيها الحمراوين حدقت لها بغضب وقالت متذمرة:

ـ الله يلعنه يا (فردوس) كيف اتزوج هذا (البلطجي الحشاش) والذي كل ما يريده هو اللهث وراء النسوان والنوم معهم, أنا متأكدة أنه عندما ينال غرضه مني سيرميني أنا وابني في الشارع ومن الممكن أن يأخذ بيتي مني بالقوة وهذا البيت ساترني أنا وابني من كلاب السكك ومن عيون

الناس التي لا ترحمني في كل مكان وتطاردني دائما.

ـ أنا خائفة عليكِ منه يا (عزيزة) أنا متأكدة أنه لن يتركِ في حالكِ خاصة أنكِ أجمل نسوان «الواحة» وطيلة عمره عينه منكِ حتي من قبل زواجكِ من زوجكِ الله يرحمه.

صمتت (عزيزة) لوهلة والحزن ينتابها ثم قالت تائهة حائرة بتعجب:

ـ أنا أجمل نسوان «الواحة» يا (فردوس)!

ثم أضافت باسمة دون اكتراث لجمالها الذي يعرفه جيدا كل أهل «الواحة»:

ـ «حسدوا الغجر علي ظل الشجر»!

ثم وقفت (عزيزة) بسرعة وبجسدها المتناسق في الطول والوزن والمُقسم كما قال الكتاب في أجساد النساء الجميلة وراحت تتمايل وبغير اكتراث تابعت:

ـ لن يستطيع أن يفعل لي أي شيء ولو حاول أن يقترب مني أو من ابني سأقتله يا (فردوس).

قالت ذلك بعصبية وبنبرة قوية عالية بعض الشيء, بجسدها قصير القامة والمائل للبدانة نهضت (فردوس) من مكانها وبعينيها الرماديتان حدقت لها وقالت باسمة ساخرة من كلماتها:

ـ تقتلي (يونس) كيف وانتِ لا تستطيعين أن تذبحي فرخة أصلا يا (عزيزة)! والنبي قولي كلام غير هذا حتي اتقبله منكِ.

نظرت لها (عزيزة) بصموت وراح قلبها يخفقُ خوفا من المجهول ولكنها تحاول أن تخفي ما بداخلها من قلق وتوتر وخوف من (يونس).

صباح اليوم التالي, استيقظ (مطراوى) ولم يخبر أمه بأية شيء مما حدث له في «الغابة» وذهب مع صديقه المُقرب والذي يحبه بشدة (سند) إلي المدرسة بصحبة (تينة).

صار (مطراوى) يمارس حياته بهدوء بين مدرسته وعمله في الحقول باليومية ليساعد أمه علي المعيشة, وفي أحد الأيام وبعد يوم شاق عاد إلي بنايته في المساء وراح يتناول العشاء مع أمه ثم استلقي علي أريكته الصغيرة في الردهة ونظر لجِدارها مُتمعنا وفي تلك اللحظات راي الرجل ذو قدميّ الماعز الذي ظهر له في «الغابة» يجلس في صورة خيال علي جِدار الردهة مُحدقا له غاضبا وقال متذمرا:

ـ لماذا خفت مني عندما رأيتني في «الغابة» يا (مطراوى) لقد جئت لحمايتك وقتها لأنني كنت أعلم جيدا أنك خائف وكنت سأخرجك من «الغابة» قبل أن تلتهمك الذئاب.

أجفل (مطراوى) مُتعجبا دون أن يخاف منه هذه المرة ولكنه لم يستطيع أن يجيب البتة وهنا تواري (رجل الغابة) في التو واللحظة وراح (مطراوى) يسأل نفسه راضخا:

ـ من هذا الشبح وماذا يريد مني أصلا وماذا يقصد بكلامه الغريب هذا وكيف ظهر لي هنا في البيت؟!

وهنا دخلت عليه أمه لتجده يتمتم, اعترت الدهشة وجهها

واقتربت نحوه تحتضنه وبـنبرة حانية قالت:

ـ ماذا بك يا (مطراوى) وما الذي أصابك يا حبيبي, أتكلم نفسك؟!

راح يحتضنها بشدة وكأنه طالما يبحث عن هذا الحضن ورد:

ـ أنا بخير يا (أماي) لكني خائف.

ونام في حضنها حتي الصباح وقد راحت الشمس تشرق بـضيائها ونورها اللامع علي «الواحة» وشرع الناس يخرجون من بنايتهم إلي الحقول, كلا يسعي علي رزقه.

***

يوم دراسي جديد ذهب (مطراوى) إلي المدرسة مع (سند) و(تينة) التي راحت تحدق له بـنظرات تحمل كثيرا من اللهفة والحب طالما كانت تطيل النظر إليه بـسبب وبغير سبب مما كان يثير فضوله وفضول (سند) كثيرا لـمعرفة ما بداخلها تجاهه, وظلت تطالعه هائمة ثم بـصوت خفيض قالت:

ـ كيفك يا (مطراوى)؟

بـهدوء وخجل نظر لها ورد:

ـ الحمد لله أنا بخير يا (تينة).

غمرته بـنظراتها العميقة وردت باسمة:

ـ أنا احبك يا (مطراوى).

صُدم من كلماتها وأحمر وجهه خجلا وشعر برعشة انتابت جسده وقال مُتمتما:

ـ أنا ايضا احبك مثل اختي يا (تينة).

أمتقع وجهها غضبا وغادرت المدرسة ودموعها تتساقط, بعينيه العسلي نظر (سند) إلي (مطراوى) وقال باسما مُتعجبا:

ـ (تينة) تعترف لك بحبها وانت تكسفها يا (مطراوى) «ولد خُرنج» ليس لديه أي احساس صحيح!

وراح (سند) يضحك عاليا، وهنا صمت (مطراوى) وكأن علي رأسه الطير لم يكترث لكلمات (تينة) من الأساس ولم يهتم برد فعل (سند) الذي راح يسخر منه ضاحكا!

***

كانت (عزيزة) عائدة من الحقول بعد يوم عمل شاق علي أنوثتها طوال النهار ومع قرب المغرب وقد توارت الشمس وراح الظلام يزحف رويدا رويدا وعمّ السكون والهدوء «الواحة» إذ تُفاجئ بشخص مُلثم يهجم عليها وهي تسير في الطريق الغربي من «الواحة» وحدها, أنقض عليها كالوحش المُفترس الذي طالما ينتهز الفرصة لاصطياد فريسته وكتم صوتها ثم حملها ودخل بها بين الزرع العالي في الحقول وراح يتعمق بها للداخل أكثر وأكثر وهي تحاول أن تتخلص منه ولكن هيهات هيهات؛ فهو قوي البنية طول وعرض وقد أحكم قبضته مُسيطرا عليها وكتم فاها ومنعها من الصراخ,

وكان وقت آذان المغرب وداخل الحقول لطمها صفعات متتالية علي وجهها متبادلا اللطمات علي خديها وقد اشتعلت عيناه شرا وراح ينظر لها بـنهم ورغبة يأكل جسدها بـنظراته ثم سحبها وسحلها علي الأرض من ذراعها الأيمن حتي ارتفع جلبابها وتعرت تماما من الأسفل كما تعرت رأسها بعد أن أنزلق رداءه وظهر شعرها الأسود الناعم الذي انسدل علي وجهها وظهرها حتي خصرها, طرحها أرضا علي ظهرها وكتفّ يديها بـيده اليمني واستلقي بـكامل جسده القوى فوقها يحدق في عيناها باسما ساخرا وراح يقبلها بـعنف ونهم من شفتيها شديدة الحُمرة كـالثور الهائج الذي بدأ يطأ أنثته وصدره يرتطم بـجسدها, ظل هكذا حتي نال منها بـقوة وعنف واغتصبها بـوحشية, وطأها بـكل ما أوتي من قوة؛ فـطالما كان ينتظر هذه اللحظة وهدأ كلاهما ولكن ما زال يحتضنها ثم بعد عنها قليلا وأفاقت (عزيزة) من هذا الاغتصاب الهمجي, وهنا ابتعدت عنه بسرعة وبدأت بـالبكاء شاعرة بـالألم والحسرة ترتشف دموعها الغزيرة تحدق لـجسدها العاري ثم اسرعت ترتدي ما تبقي من ملابسها لـتستر جسدها مدمدمه بـالبكاء وقالت:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل.

همّ بـالرحيل ما زال مُلثما, وهنا وثبت (عزيزة) من مكانها وازاحت الرداء عن وجهه .. إنه (يونس) بـغير اكتراث حدق لها ساخرا بـابتسامة بدت كـأخدود يرتسم علي وجهه الغاشِم وقال:

ـ حتي تعرفين جيدا أن كلامي معكِ مسبقا لم يكن هراء يا (وزتي) الجميلة.

وصفعها علي وجهها صفعة دوي صوتها في سماء «الواحة» وتركها في الظلام وغادر المكان, مكثت (عزيزة) غير قادرة أن تستوعب ما حدث لها إلي أن مر عليها نصف ساعة وهي علي ما زالت علي هذا الحال ترقدُ علي وجهها أرضا تدفنُ وجهها في الطين ولكن سرعان ما أفاقت وراحت تتمعن النظر لـجسدها وملابسها المُمزقة, وثبت من مكانها وهي تطوق نفسها بـذراعيها وخرجت من الحقول للطريق تلتفتُ حولها في كل مكان, هناك رجل عائدا من حقله الآن يمتطي حماره يقترب منها, وهنا دخلت إلي الحقول مُسرعة مرة أخري ثم خرجت بعد أن تأكدت من مغادرته المكان وسلكت الطريق المُتجه إلي بنايتها وهي تحاول أن تستر نفسها بـما تبقي من ملابسها, وفي تلك اللحظات ظهر (النمروس) يمشي بـصعوبة ميلا علي جانبه نظرا لـإعاقة رجله؛ فـشرعت (عزيزة) تُسرع من خطواتها حتي لا يراها (النمروس) لكنه نادي عليها مُتهتها وقال:

ـ عيني عليكِ وعلي (مطراوى) يا (عزيزة).

بات الظلام ساترا لها حتي وصلت بنايتها, وكان (مطراوى) يجلس علي الأريكة في الردهة, طالعها بـدهشة مُحدقا لـملابسها المُقطعة وبـوجه مُتجهم سألها:

ـ ماذا بكِ يا (أماي) ولماذا تبكين ومن فعل بكِ هذا؟!

اقتربت منه وراحت تحتضنه بشدة وزاد بكائها وقالت مُتمتمه وهي ترتجف من الخوف وجسدها يرتعش:

ـ فرع شجرة قطع ملابسي يا حبيبي وانا امشي بين الاشجار.

قطبّ جبينه في استهجان, يبدو أنه أدرك أنها تكذب عليه وتحاول إيهامه ثم بـنبرة حانية تحمل كثيرا من الحب والعطف قال:

ـ اشعر أنه قد أصابكِ مكروه يا (أماي) وأنتِ تحاولين أن تخبئ عليّ ذلك لكني أشعر بكِ وبـما في صدركِ من حزن وخوف.

انهمرت بـالبكاء وعلا صوت نحيبها وردت وهي ما زالت تطالعه خائفة:

ـ استرني يا رب ولا تفضحني بين أهل «الواحة».

ثم هدأت من البكاء قليلا وتابعت مُصبّرة:

ـ الآن صرت بـخير يا حبيبي, أنت فقط خذ بالك من نفسك.

ثم ذهبت تستحمي وتطهر جسدها مما أصابه من قذارة (يونس) وغيرت ملابسها وتخلصت من رائحة (يونس) العفنة النتنة التي تملكت من جسدها ثم دلفت غرفتها واستلقت علي سريرها باكية ما زالت مصدومة مما حدث لها وكأنها في حلم أو كابوس.

«يا لها من دنيا غريبة ومُحيرة للغاية ما زلنا لم نفهمها بعد

قد تُغير حالنا وتُبدل حياتنا بموقف أو حدث ما ربما يذهب بنا إلي الهاوية!».

في نهاية الليل, استلقي (مطراوى) علي الأريكة في الردهة يفكر في حالة أمه الغير معهودة والتي لم يراها بهذا الخوف من قبل, وهنا ظهر (رجل الغابة) علي جِدار الردهة بمظهر غير مُخيف هذه المرة وكأنه اراد أن يطمئنه وقال باسما هادئا بصوت يحمل كثيرا من الحب والخضوع:

ـ لا تخف يا (مطراوى) سأكون جنبك طوال الوقت ولن أترك وحدك في هذه الدنيا الملعونة.

اعترت الدهشة وجه (مطراوى) ورد بترقب:

ـ أنا لا افهم أي شيء مما تقوله, أرجوك اخبرني من أنت وماذا تريد مني وماذا تقصد بكل كلامك هذا؟!

وهنا أشار (رجل الغابة) إلي باب حجرة (عزيزة) وفي تلك اللحظة راي (مطراوى) خيال (يونس) يدخل من الباب سريعا داخل الحجرة, ثم أومأ (رجل الغابة) برأسه وتواري في الحال, وثب (مطراوى) من مكانه وراح يبحث عن كلاهما (رجل الغابة) و(يونس) ولكن لم يجد أحدا البتة, ظل قلقا متوترا طوال الليل مما حدث, وفي الصباح خرج من بنايته بصحبة (سند) إلي المدرسة وفي الطريق راي (يونس) يسير مُتجها لعمله في الحقول, وهنا تيبّس (مطراوى) ووقف مكانه وتذكر ليلة البارحة ثم نظر إلي (يونس) بازدراء, لاحظ (يونس) نظرات (مطراوى) له؛ فنظر إليه هو الأخر باسما

ساخرا دون أن يتفوه كلاهما بـأية كلمة.

مرت الأيام تباعا علي (مطراوى) وأمه بـهدوء و(عزيزة) تحاول أن تنسي ليلة اغتصابها المُظلمة الملعونة ولم تحكي لـأحدا البتة عما حدث لها وعما أصابها, وبعد مرور شهرين اكتشفت أنها...

(2)

«ليس هناك أي شيء مضمون في الحياة حتي القدر يتغير بموقف أو بحادث أو ربما بكلمة, تتحول الحياة بين عشيةٍ وضُحاها ونجد أنفُسنا في حياة جديدة لا نعلم عنها أي شيء مُسبقا, ومن المفروض أن نتقبلُ هذا الوضع الجديد ونعيش به ونتأقلم عليه لكن هل شخصية الإنسان تتحمل كل هذه التغييرات والصدمات بين الحين والأخر, خُلق الإنسان ضعيفا إذا لماذا كل هذا الألم والوجع؟! يا الله لقد ارهقتنا الحياة تعبا وخوفا؛ فكن بنا رحيما أكثر من ذلك علّ نخرج من كَبَدٍ ومشقة هذه الحياة الغير عادلة بسلام!»

(عزيزة) حُبلي...

راحت (عزيزة) تنشجُ وتبكي بقوة وتلطم الخدود عندما اكتشفت حملها بعد شهرين من اغتصاب (يونس) لها, ثم ذهبت إلي (فردوس) وقصت عليها كل شيء من وقت اغتصابها وما مرت به, أجفلت (فردوس) من شدة الصدمة وبوجه مُمتقعا قالت مُتلعثمة:

ـ لله الأمر من قبل ومن بعد, هذا ما كنت خائفة منه يا (عزيزة) كنت متأكدة أن (يونس) الكلب هذا لن يتركِ في حالكِ ابدا وكثيرا حذرتكِ منه لكنكِ في كل مرة كنتِ تستهزئ من كلامي وتحذيري لكِ من هذا النجس.

صمتت (عزيزة) لجزء من الثانية ثم قالت باكية:

ـ ماذا افعل الآن وكيف سأتصرف؟ سيُفضح أمري في

«الواحة» كلها يا (فردوس) وأن حدث ذلك سأموت من الفضيحة.

بنظرات تملأها الدموع تابعت (فردوس):

ـ الإجهاض هو أفضل حل يا (عزيزة) لأزم تسقطي هذا الجنين وفي أقرب وقت قبل أن تعلو بطنكِ وتظهر وستكون هذه هي الفضيحة الكبرى فعلا.

نظرت (عزيزة) للسماء وهي تجلس مع (فردوس) أمام بنايتها المزخرفة وبنفاذ صبر قالت والدموع تذرفُ من عينيها كالغيث:

ـ مستحيل اقتل روح خلقها ربنا يا (فردوس) ما ذنب هذا الطفل أن يموت؟

ـ ذنبه إنه ابن حرام وسيكون سبب الفضيحة والعار لكِ بين أهل «الواحة» يا (عزيزة) وأنتِ منذ يوم موت زوجكِ تعيشين طاهرة وعفيفة بين أهل «الواحة» جميعا ولم يقول أي شخص منهم عليكِ كلمة سوء واحدة؛ فطالما يقولون عليكِ الطاهرة العفيفة التي تعيش علي تربية طفلها, ماذا سيقولون الآن عندما يعرفون أنكِ حُبْلي دون زواج.

صمتت (عزيزة) مُجبرة والدموع ما زالت تفر علي وجنتيها ثم عادت إلي بنايتها في حالة من السكون والرضا بقضاء الله وقدره, وفي المساء عاد (مطراوى) ليجدها تجلس في الردهة ودموعها تسيل في صموت, طالعها لبرهة ثم صاح مُتعجبا:

ـ لماذا تبكين يا (أماي)؟!

ـ أنا بخير يا حبيبي لكني تذكرت ظروفنا الصعبة وأنك تتحمل معي هذه الظروف القاسية التي نعيشها وتصير أصعب يوما بعد يوم مع غلاء المعيشة في «الواحة».

دنا (مطراوى) من أمه وراح يحتضنها بحرارة وقال:

ـ ربنا معنا يا (أماي) لن يتركنا ابدا, هو الرحيم بعباده, هكذا قال لنا أستاذ الدين في المدرسة.

***

وفي نهاية الليل استلقي (مطراوى) علي أريكته في الردهة ورأي (رجل الغابة) علي جِدار الردهة مُمتقعا الوجه وراح يزمجر وقال غاضبا:

ـ لا تقتلوا أخيك (عابد) يا (مطراوى).

وتواري (رجل الغابة) في لمح البصر, وهنا غمغم (مطراوى) مدهوشا:

ـ ماذا يقصد بكلامه هذا ومن أخي (عابد) هذا أصلا؟!

وظل (مطراوى) مُستيقظا طوال هذه الليلة وقد أبي النوم أن ينصاع إليه مطلقا, حائرا يفكر حتي آذان الفجر؛ فصلي وأخلد إلي النوم, وأستيقظ في الصباح وهرع إلي أمه وحكي لها هذه الرسالة التي سمعها ليلة البارحة من (رجل الغابة) وكانت تلك هي المرة الأولي التي يحكي فيها عن (رجل الغابة) وراح يقصُ عليها كل الرسائل السابقة منه منذ وقت

ظهوره له في «الغابة» وأخبرها أنه راه وهو مستيقظا أيضا, صُدمت (عزيزة) وسألته في ارتياب:

ـ من هذا الراجل وماذا يريد منك يا ابني؟! اياك أن يكون عفريت لبسك عندما دخلت «الغابة» ويطاردك يا (مطراوى).

ـ عفريت يا (أماي)! بصراحة لا أعرف من يكون بالضبط وماذا يريد مني؟! هو ظهر لي أول مرة في «الغابة المهجورة» عندما كنت تائها بها وبدأ يظهر لي كل فترة ويقول لي هذا الكلام الغريب, لكني الآن صرت لا اخاف منه أصلا وبدأت اتعود علي شكله أشعر أنه لن يؤذيني بالعكس عندي احساس أنه سيساعدني ويقف جنبي دائما, ولقد اخبرني هو بذلك وبات قلبي مطمئن لكلامه.

نظرت له أمه مدهوشة فاغرة الفاه وبعينيها الواسعة حدقت له وقالت:

ـ في الحقيقة لا افهم أية كلمة من كلامك الغريب هذا يا (مطراوى)!

وصمتت (عزيزة) وهنا سألها (مطراوى) وهو ينظر لها بترقب:

ـ من أخي (عابد) هذا الذي طلب مني (رجل الغابة) أن لا نقتله يا (أماي)؟!

زّمت شفتيها ونظرت له بوجوم وردت:

ـ لا أعرف ولا أفهم أي شيء من كل هذا الكلام الذي قلته

للتو أصلا يا (مطراوى)!

وهنا غادر (مطراوى) مُتجها إلي مدرسته مع (سند) و(تينة) وقد باتت أمه تدرك إنها ستنجبُ ولدا من (يونس).

وفي وسط النهار وقد انتصفت الشمس سماء «الواحة» ذهبت (عزيزة) إلي (يونس) وهو يعمل في أحد حقول «الواحة» وأخبرته إنها حُبلي منه, ابتسم ساخرا بغير اكتراث وهو يرفع الفأس علي كتفه ويتمعن النظر في جسدها بشهوة كاد أن يأكلها بنظراته الثاقبة وراح يعضُ شفتيه حتي سال لعابه وغمز بعينه اليمني وقال:

ـ وأنا اتأكد كيف أن ما في بطنك هذا هو أصلا ابني يا (وزتي) يا جميلة يا فرسة انتِ؟!

وفي تلك اللحظات, اقتربت منه (عزيزة) وصفعته علي وجهه بكل قوتها وقالت منكسرة:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل, أنا منذ موت زوجي لم يلمسني أي شخص غيرك يا كلب يا نجس يا قذر.

وهنا رمي (يونس) الفأس وقبضَ بيده علي فكها السفلي وأحتضنها من الخلف مُلتصقا بها وهمس في أذنها غاضبا:

ـ أنا ممكن أقتلكِ وأدفنكِ مكانك الآن يا (وزتي) لكني لن افعل ذلك كي اراكِ مقهورة ومنكسرة بقية حياتكِ, طالما رفضتي الزواج مني والآن جئتِ كالكلبة باكية تترجيني أن استركِ, صحيح من لا يأتي بمزاجه يأتي غصب عنه يا نجسة, دعينا نري ماذا ستفعلين الآن يا شريفة يا طاهرة

عندما تنتفخ وتعلو بطنك وأهل «الواحة» كلهم يقولون عليكِ أنكِ خاطيه وزانية, الرجم حتي الموت سيكون مصيرك يا (وزتي) يا جميلة أنتِ.

ارتجفت وارتعشت (عزيزة) من كلماته وشعرت بالبرد في عز الصيف ثم تصبب جسدها عرقا وحست بالتيه والضياع وكأنها في كابوس وغادرت المكان وتركت (يونس) ودموعها تذرف بشدة, وفي الطريق ظهر (النمروس) وراح ينظر إلي (عزيزة) مُشفقا عليها وهو يتمايل بجسده بحركات غير متزنة وقال:

ـ وافقي علي الزواج يا (عزيزة).

نظرت له مدهوشة بصدمة وراحت تُتمتم مع نفسها مغمغمه:

ـ وكيف عرف قصتي مع (يونس) أيعقل أن يكون مكشوف عنه الحجاب فعلا مثل ما يقول عنه أهل «الواحة» أم يكون قد رأي (يونس) وهو يغتصبني في هذه الليلة الملعونة؟!

وغادرت (عزيزة) المكان ولم ترد علي (النمروس) بأية كلمه, وصلت بنايتها وظلت تفكر طوال هذه الليلة ماذا ستفعل؟! وبعد تفكير عميق قررت الزواج من (يونس).

وفي الصباح, ذهبت إلي (يونس) في الحقل مرة أخري وعرضت عليه نفسها للزواج, رمقها بنظراته الشهوانية كالعادة وبضحكة خبيثة قال:

ـ أنا موافق ولكن بشرط يا (وزتي).

ردت مغتاظة كادت أن تحرقه بـنظراتها:

ـ وما هو هذا الشرط يا ملعون؟!

اقترب منها وشرع أن يضمها بين ذراعيه ولكنها ابتعدت عنه سريعا وبـنفاذ صبر قالت:

ـ ابعد عني وقل ماذا تريد مني؟!

راح يُقهقه ساخرا وقال:

ـ حاضر يا (وزتي) كلها أيام قليلة وستكونين في حضني ولن اترك جسمكِ الجميل هذا يبعد عن حضني مرة أخري مهما حصل, ولكن بشرط بناتي (آمنة) و(لوزة) يعيشوا معنا أنا وانتِ وابنكِ.

وهنا طالعته مدهوشة وصمتت للحظة ثم ردت غاضبة مغتاظة ارادت أن تحرقه بـنظراتها الثاقبة:

ـ وأين سيعيشون أصلا؟ أنت تعلم جيدا أن بنايتي صغيرة, حجرة وصالة تكفي فقط لي ولـابني وممكن أنت وحدك تعيش معنا.

صمت (يونس) لـجزء من الثانية ثم أكمل باسما:

ـ علي الأقل أفضل من حجرة الصفيح التي نعيش بها أنا وبناتي يا (وزتي) ومن الممكن أن نبني حجرة جديدة ينام بها ابنكِ وبناتي وأنا وأنتِ في غرفتنا نذوق العسل والشهد كله.

بلعت ريقها وردت بـغضب واستنكار:

ـ وكيف البنات يناموا مع (مطراوى) في حجرة واحدة؟! يبدو أنك صرت مجنون فعلا!

ـ ما زالوا أطفال يا (وزتي) لم يبلغوا بعد وعندما يكبروا سنتصرف وقتها ونبني لهم غرفة أخري.

وضحك (يونس) ساخرا بعد أن رضخت (عزيزة) له مُجبرة وراح يقترب منها في محاولة أن يُقبلها من خدها لكنها ابتعدت عنه؛ فاكمل:

ـ الزواج الخميس القادم يا (وزتي) وسوف أتي أنا وصاحبي (مهدي) نبني الحجرة الجديدة باكرا.

رمقته بكرة وغادرت المكان وقالت:

ـ انتظر حتي اخبر (مطراوى) بخبر زواجي منك بهدوء لأني اعرف أنه لن يوافق علي زواجنا أصلا.

ـ حاضر يا (وزتي) يا قمر انتِ يا عسل.

وراح (يونس) يرقص فرحا ويدندن:

ـ سأتزوج (عزيزة) واترك لها بناتي تربيهم مع ابنها واعيش أنا حياتي بحرية, والله وستضحك لك الدنيا يا (يونس).

رجعت (عزيزة) إلي بنايتها وظلت تفكر كيف ستخبر (مطراوى) بزواجها من (يونس)؟

وفي المساء عاد (مطراوى) وجلسا معا يتناولان العشاء بصموت, وبعد العشاء دنا منها ونام في حضنها وقال:

ـ وحشني حضنكِ الدافئ يا (أماي) حضنك هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه بـالراحة والأمان وكأنه رحمة ربنا لي في هذه الحياة الصعبة أنا فرحان قوي أن عندي أم زيك يا (أماي) ربنا يبارك لي فيكِ طول العمر يا احلي (أماي) في الدنيا كلها.

راحت أمه تحتضنه بقوة وربتّت علي رأسه تلمس شعره وقالت:

ـ وانت قلب أمك من جوا يا (مطراوى).

وصمتت هنيهه ثم قالت متلعثمة بـصوت خفيض:

ـ اسوي كيف الآن يا ربي؟!

ولم تستطيع أن تخبره بـزواجها, بحدقتين متسعتين نظر (مطراوى) في عينيها وبـنبرة حانية قال:

ـ ماذا بكِ يا (أماي)؟! عندي احساس أنكِ تحملين جبال الأرض كلها علي ظهرك, شاركيني تعبكِ يا (أماي) نحمله معا كي يهون ونعدي أيامنا الصعبة هذه.

ترقرقت عينيها بـالدموع وردت بـنبرة مخنوقة:

ـ أنا بخير يا حبيبي ولكن بالله عليك لا تزعل مني لـأي سبب من الأسباب مهما حصل ولأزم تعرف أنك أهم شخص عندي في الدنيا وأن كنت فعلت أي شيء لا تريده؛ فـهذا بسبب أني اريد أن أحافظ عليك والله يا (مطراوى).

ـ مستحيل أزعل أو اغضب منكِ مهما حصل يا (أماي) انتِ

كل دنيتي أصلا, (أماي) و(أبوي) و(أخوي) وصاحبي.

مرت هذه الليلة علي (عزيزة) حائرة تفكر، كيف ستخبر ابنها بزواجها؟! وفي الصباح خرجت لا تعرف إلي أين تذهب؟ وظلت تسير في شوارع «الواحة» تائه حائرة شاردة العقل حتي وصلت بين الجبال, باكية راحت تحدقُ للجبال العملاقة العالية ثم للسماء وهي تلمس بطنها بيدها اليمني وبصوت خفيض راحت تُناجي ربها وكأنها خائفة أن تعلو بصوتها ويسمعها أحدا رغم خلو المكان من أي بشر تماما الآن وقالت:

ـ يا رب لا تفضحني بين أهل «الواحة» يا رب أنا خائفة علي ابني من (يونس) يا رب أطبق عليّ الجبلين وخلصني من هذه الدنيا ولكن لا تفضحني ابدا.

وصرخت باكية وراحت صراخاتها تدوي بين الجبال حتي تعبت وهدأت بعض الشيء واستلقت علي الرمل وشرعت تدفن نفسها بالرمل وكأنها تريد الخلاص حقا من حياتها وظلت هكذا تحت الشمس الحارقة ما يقرب من الساعتين, وفي تلك اللحظات وعلي مرمي بصرها رات عقرب كبير يجري فوق رمل الجبل؛ فنهضت من مكانها بسرعة البرق خائفة أن يقترب منها العقرب ويلسعها وراحت تركض بكل قوتها والعقرب يركض خلفها, وهنا وثبت في رأسها فكرة مروعة وخطيرة ووقفت مكانها ما زال العقرب يدنو منها وهي ما زالت واقفة مكانها حتي بات علي بعد خطوات منها وحدقت النظر للعقرب, أنه عقرب سام قاتل يعرفه أهل «الواحة» جيدا, وهنا راح العقرب يسير ببطء شديد يقترب

منها اكثر واكثر, وفي تلك اللحظة جثت (عزيزة) علي ركبتيها والتقطت العقرب من الأرض ووضعته علي كفها ورات العقرب يحمل علي ظهره عقربين صغيرين, يا للهول العقرب الآن علي جسدها وهي ليست خائفة منه, ظل العقرب علي جسدها ما يقرب من الخمس دقائق وهنا قفز مرة واحدة علي الأرض دون أن يلسعها ودفن نفسه في الرمل, يا لها من أمراه غريبة ارادت أن يلسعها العقرب وتتخلص من حياتها لكنه لم يفعل ذلك, ظلت (عزيزة) مكانها تفكر في هذا العقرب السام الذي لم يلسعها وراحت تسأل نفسها «لماذا ظهر الآن وهو يحمل ابنائه علي ظهره, يبدو أنها عقربة وليست عقرب, ولماذا لم يلسعني ويخلصني من حياتي؟!» لكنها لم تجد أية أجابه أو أي تفسير لما حدث, وهنا عادت (عزيزة) وذهبت إلي (فردوس) وأخبرتها بكل ما حدث بينها وبين (يونس) وانها غير قادرة أن تخبر ابنها بزواجها, نظرت لها (فردوس) مدهوشة وقالت مغتاظة:

ـ طالما ناوية تتزوجي (يونس) النسوانجي هذا لازم تخبري ابنكِ بسرعة قبل ما تبكر بطنكِ ويُفضح أمرك في «الواحة».

نشجت (عزيزة) بشدة وظهرت قواها خائرة, وبصوت مبحوح بالبكاء ردت:

ـ لا استطيع أن اخبر (مطراوى) يا (فردوس) سيموت من القهر لأنه يعرف (يونس) جيدا وسمعته السيئة في «الواحة» كلها مثل كل الناس يعرفون (يونس) وشخصيته القذرة.

ـ الم يكن هذا قرارك وانكِ رفضتي الإجهاض, من يحضر

العفريت عليه أن يصرفه يا (عزيزة).

ـ نعم قراري وسأتحمل كل عواقبه يا (فردوس) ولا إني اقتل روح خلقها ربنا وعندما يكبر (مطراوى) سأخبره بكل شيء حدث معي, وقتها سيكون قد نضج وفهم لكن الآن ماذا سأقول له أصلا, اسوي كيف الآن يا ربي؟

صمتت (فردوس) للحظات ثم تابعت باسمة:

ـ تزوجي (يونس) يا (عزيزة) ومن الممكن أن يهديه ربنا ويصلح حاله بعد زواجه منكِ وكل ما نقوله عليه ويعرفه عنه أهل «الواحة» قد يتغير بعد الزواج ويصبح زوج صالح.

راحت (عزيزة) تحدق لها ساخرة باسمة وردت:

ـ «ذيل الكلب عمره ما يتعدل» معقول شخص مثل (يونس) هذا ربنا يهديه أصلا يا (فردوس)!

ـ لا احد يعلم الغيب يا (عزيزة) ربنا يغير ويبدل الأحوال في ثانية, طالما ناوية تتزوجيه سلمي أمركِ لله وأن شاء الله ربنا لن يخذلك ابدا.

ـ حاضر يا (فردوس) وأنا ظني في ربنا كبير طالما لن اقتل روح خلقها ربنا.

***

بينما كان (مطراوى) يسير بصحبة (سند) و(تينة) ظهر (يونس) في الطريق ووقف أمام (مطراوى) وقد سنحت له الفرصة الآن وقال ساخرا ضاحكا:

ـ كيفك يا (مطراوى)؟

تعجبّ (مطراوى) من حديثه معه لـأول مرة في حياته ونظر له مدهوشا ورد:

ـ الحمد لله يا عم (يونس).

صمت (يونس) للحظات ثم نظر له باسما وقد اتسعت عيناه وقال:

ـ هل اخبرتك أمك؟!

قطبّ (مطراوى) جبينه في استهجان ورد مغتاظا:

ـ اخبرتني بـماذا أصلا؟!

راح (يونس) يضحك ويقهقه بـصوت مزعج ثم صاح قائلا:

ـ سـأتزوج أمك يا (مطراوى).

مصدوما بـازدراء رد (مطراوى):

ـ تتزوج من يا مخبول يا مجنون انت!

غاضبا رد (يونس):

ـ سـأتزوج أمك يا قليل الأدب ومن الممكن أن تسألها وسـتقول لك هذا بنفسها.

نظر (مطراوى) إلي (سند) و(تينة) واعترت الدهشة وجوههم الثلاثة وغادروا المكان مسرعين دون أن يفهموا أي شيء من كلام (يونس)، وصل (مطراوى) بنايته ووجد أمه تجلس علي الأريكة في الردهة؛ فـدنا منها وسألها وهو ما زال واقفا:

ـ ما هذا الكلام الغريب الذي قاله (يونس) المجنون لي اليوم يا (أماي)؟!

ارتعشت أطرافها ووثبت من مكانها وراحت تتجول في الردهة وردت:

ـ وماذا قال لك يا (مطراوى)؟!

ـ أنه سيتزوجكِ, أصحيح هذا الكلام يا (أماي)؟!

ترقرقت عيناها بالدموع وردت مُتمتمه:

ـ للأسف كلامه صحيح يا (مطراوى).

وفي تلك اللحظات, شعر (مطراوى) بالدوار وسقط مغشيّ عليه, وهنا صرخت (عزيزة) وحضنته حتي أفاق بعد دقائق ليجد نفسه في حضنها وهي تبكي بشدة, حدق لها وقال متململاً:

ـ كيف ولماذا يا (أماي) وما الذي يجبرك أن تتزوجي شخص مثل (يونس) العفن هذا؟!

ردت والدموع ما زالت تنهمر من عيناها:

ـ لن تفهم في الوقت الحالي يا حبيبي, أن شاء الله عندما تكبر ستعرف كل شيء ووقتها ستعذرني لكن كل ما اريده منك الآن أن توافق علي الزواج دون أن تزعل أو تغضب مني, أنا أهم شيء عندي هو أنت يا حبيبي ولو حسيت أنك ستكون غضبان مني والله أنا ممكن أقتل نفسي.

أدار (مطراوى) وجهه بعيدا عنها وفرت الدموع من عيناه علي وجنتيه وشعر بـالكسرة لـأول مرة في حياته وتابع:

ـ مستحيل أوافق انكِ تتزوجين هذا (البلطجي) يا (أماي).

وهنا تركها ودخل غرفتهما ودموعه تسيل, ظل (مطراوى) يفكر طوال الليل والأرق ينهش جسده حتي آذان الفجر, وفي الصباح أستيقظ ولم يستطيع الذهاب إلي المدرسة هذا اليوم وخرج من بنايته يشعر بـالكسرة والذل, راح يسير مُرتجفا دون أن يدرك إلي أين يذهب أو ماذا يفعل؟! لـيجد قدميه تقوده إلي «الغابة» دخلها وراح يمشي لا يشعر بـأي خوف, وهنا سمع ذلك الصوت الذي سمعه من قبل عندما دخلها مُسبقا, صوت شهيق وزفير مرتفع يتنقل حوله في أماكن مختلفة يتوارى ثم يظهر من جديد, جلس علي الأرض تحت نفس الشجرة التي جلس تحتها من قبل واسند ظهره عليها حتي أتي الليل, وفي تلك اللحظات ظهر هذا الصوت المخيف حوله من جديد ثم اختفي مرة أخري وظهر (رجل الغابة) يشق الأشجار من بعيد مُقتربا من (مطراوى) يحمل شعلة صغيرة من النار بـيده يخفي قدميه هذه المرة حتي لا يروع (مطراوى) منه ووقف بين الأشجار الكثيفة بعيدا, أمعن (مطراوى) النظر له وقد احتقن وجهه بـالدماء واتسعت عيناه وصاح مُنزعجا قائلا:

ـ من انت وماذا تريد مني ولماذا تظهر لي علي جِدار بيتي؟!

رد (رجل الغابة) باسما:

ـ ليس من الضروري أن تعرف من أنا يا (مطراوى) كل ما اريدك أنه تعرفه إني سأكون جنبك طوال الوقت ولن اتركك وحدك ابدا, كُن دائما مطمئن لأني سأكون مثل ظلك معك في كل خطواتك.

وما هي إلا لحظات وتوراي (رجل الغابة) في التو واللحظة, وبعد دقائق ظهر يجلس بين الأشجار من جديدة بتلك الشعلة وبجواره طفلة باكية, راحت هذه الطفلة تنظر إلي (مطراوى) وقد علا صوت نحيبها وعويلها؛ فنظر لها (رجل الغابة) بحنان ثم دنا نحوها وربتّ علي رأسها وشرع يمسح دموعها وحدق لـ(مطراوى) باسما وقال وهو يشير للطفلة:

ـ وافق علي الزواج من أجل خاطر هذه البنت وكي تحفظ سر أمك يا (مطراوى).

واختفي (رجل الغابة) وتوارت الطفلة في الحال, وهنا خرج (مطراوى) من «الغابة» في ظلمة الليل وراح يسأل نفسه مُغمغمًا:

ـ من هذه البنت ولماذا كانت تبكي وما هذا الكلام الغريب الذي قاله لي هذا الرجل الغريب؟! في الحقيقة صرت لا أفهم أي شيء مما يحدث معي يبدو أني سأصاب بالجنون!

عاد (مطراوى) لبنايته قرب منتصف الليل والظلام العاتم يعمُ «الواحة» ودخل ليجد أمه لم تنام بعد ما زالت تنتظره تفترش القش وتجلس عليه في الردهة؛ فجلس بجوارها وحدق لها وبنبرة حانية سألها:

ـ ما هو السر الذي بينكِ وبين (يونس) يا (أماي) والذي بسببه تريدين أن تتزوجين هذا (البلطجي)؟!

نظرت له مدهوشة بصموت وغمغمت مع نفسها:

ـ كيف عرف ما بيني وبين (يونس) الملعون؟!

ثم حدقت له بخوف وردت:

ـ ارجوك لا تسألني الآن يا (مطراوى) عن أي شيء, أن شاء الله سأعرفك كل شيء في الوقت المناسب يا حبيبي.

صمت (مطراوى) للحظات ما زال يحدق لها بحب وحنان ثم قال:

ـ وأنا موافق علي زواجكِ من (يونس) يا (أماي).

وهنا اقتربت منه أمه في محاولة أن تحتضنه لكنه ابتعد عنها مُسرعًا دون أن يتفوه بأية كلمة مجددا, وهنا ترقرقت عينيّ (عزيزة) بالدموع وأضافت:

ـ لماذا كل هذه القسوة يا (مطراوى)؟

ابتسم (مطراوى) ساخرا وبصوت خفيض رد:

ـ أية قسوة التي تتحدثين عنها الآن يا (أماي)! لقد وافقت علي زواجكِ من عم (يونس) فقط لأني أشعر أن هناك مصيبة كبرى تخفيها عني وأن هناك سر خطير وراء هذا الزواج وسأحترم رغبتكِ في إخفاء هذا السر وسأحترم قراركِ في الزواج من هذا الرجل الخبيث لكن لأزم تعرفين شيء مهم.

وصمت (مطراوى) للحظة وهو ما زال يطالع أمه بحزن ثم تابع متنهدا:

ـ لأزم تعرفين أني من داخلي غير موافق علي زواجكِ من هذا الرجل يا (أماي) وأن هذا الزواج سيجلب لنا البؤس والهم في حياتنا, هذا إحساسي يا (أماي).

وفي تلك اللحظات, التقت نظراتهما سويا وشرعا كلاهما في البكاء دون أن يقتربا لبعضهما وكانت النظرات الباكية كافية أن تعبر عن كل هذا الحزن والوجع والألم الذي يشعران به الآن.

وفي ظهيرة اليوم التالي، ذهبت (عزيزة) إلي (يونس) في الحقل واخبرته بموافقة (مطراوى) علي زواجهما وطلبت منه أن يحضر غدا لبناء حجرة جديدة وتم البناء بالفعل.

وجاء يوم الخميس وتم الزواج وأتي (يونس) وطفلتيه (آمنة) ذات السبع سنوات و(لوزة) ذات الخمس سنوات ليعيشوا معهم, وهنا رأي (مطراوى) (آمنة) لأول مرة في حياته، حدق لها بتمعن وغمغم مع نفسه بهدوء:

ـ يا الله, أيعقل ما أراه الآن؟! هذه هي البنت التي رأيتها تبكي مع (رجل الغابة) في «الغابة»!

ظلّ (مطراوى) يحدق لـ(آمنة) تائها حائرا وهو ما زال مصدوما مدهوشا من ظهورها مع (رجل الغابة) وكيف تكون ابنة (يونس) من الأساس! لكنه كتم كل هذا في صدره ولم يخبر به احدا حتي أمه.

(3)

باتت (آمنة) و(مطراوى) يعيشان معا تحت سقف بناية واحدة في «الواحة» لا يعرفان ماذا ينتظرهما من مجهول داخل هذه «الواحة» الغريبة ذات الطبيعة الغريبة وأناس غرباء, طالما كان الخوف كل الخوف من المجهول يسيطر عليهما مع بداية حياة جديدة ينتظران المصير يقودهما نحو مستقبل مجهول لا يعلمه إلا الله.

بدأت عائلة (عزيزة) الصغيرة وعائلة (يونس) حياة جديدة معا داخل بناية (عزيزة) وكانا (يونس) و(عزيزة) يبيتان في غرفتهما، (آمنة) و(لوزة) في الحجرة الجديدة التي قام بـبنائها (يونس) و(مطراوى) علي الأريكة في الردهة.

وذات يوم جلست (عزيزة) فوق سطح بنايتها قرب المغرب ونظرت للسماء وراحت تتكلم مع نفسها بـهدوء وقالت:

ـ خائفة يكون زواجي من (يونس) هو الخطيئة الوحيدة التي سـأدفع ثمنها بقية حياتي يا ربي.

وهنا سمعت (يونس) ينادي عليها بـصوت عالي غاضبا قائلا:

ـ وينكِ يا امرأة ووين الطعام؟

وهنا هبطت (عزيزة) من أعلي البناية وردت بـغضب:

ـ لا تعلي صوتك عليّ مرة أخري يا (يونس) أنسيت نفسك؟

وفي تلك اللحظات, صفعها (يونس) بـكل قوته علي وجهها وسقطت (عزيزة) أرضا في الردهة وقال (يونس) غاضبا

بـأعلى صوته:

ـ تردين عليّ يا فاجرة يا بنت الكلب؟

واكمل ضربها بـقدمة, وهنا دخل عليهما (مطراوى) ورأي الموقف؛ فـسرعان ما دنا من (يونس) وضربه علي ظهره لكن (يونس) استدار ناحية (مطراوى) وصفعه علي وجهه وسقط (مطراوى) أرضا بجوار أمه.

راح (مطراوى) ينظر لـأمه أصعب نظرة في حياتها، نظرة تحمل كثيرا من القسوة والعتاب, وهنا خرج (يونس) إلي المقهى وجلس مع صديقه (مهدي) وشرعا يدخنان الحشيش دون أن يكترث البتة مما فعله في (عزيزة) وابنها منذ قليل.

وفي البناية, بـهدوئها المعتاد اقتربت (آمنة) من (عزيزة) وجلست بـجوارها وبـوجهها الأبيض ووجنتيها شديدة الحُمرة وعيناها شديدة السواد وكأنها عينيّ حورية من السماء حدقت إلي (عزيزة) وقالت بـصوت خفيض:

ـ حقكِ عليّ انا يا خالتي.

بـغضب نظر (مطراوى) إلي (آمنة) وغادر البناية دون أن ينطق بـأية كلمة لكنه ظل يرمق أمه بـنظرات العتاب, وذهب (مطراوى) إلي بناية (سند) ودموعه تملأ عيناه وحكي له كل شيء وبدأ (سند) يهون عليه ويطيب خاطره وطلب منه أن يرضخ لـزواج أمه من (يونس) لأنه صار أمر واقعي.

وفي نهاية الليل عاد (مطراوى) وناموا جميعا كلا منهم في مكانه وأتي (يونس) تحت تأثير المخدرات واستلقي علي

السرير بجوار (عزيزة) وبعينين متقدة شرارا حدقت له بكره وقالت:

ـ لا تقترب من ابني مرة أخري يا (حشاش) يا (نسوانجي) انت تحمد ربنا أصلا اني وافقت اتزوجك لأنك (بلطجي) وكل الناس تعرف هذا عنك, كله إلا ابني يا (يونس) وهذا أخر تحذير لك.

ـ حاضر يا (وزتي) هو أنا اقدر أرفض لكِ طلب أصلا, أنتِ حبيبتي.

وراح يضمها لصدره ويحدثها بكلام معسول, ثم صعد أعلي جسدها ودفنها تحته في السرير وبدأ يفترسها كالوحش الهائج ووطأها بكل قوته حتي انتهي من شهوته واستلقي بجوارها مجددا ينهج مما فعله من مجهود الآن.

وفي الصباح، ذهب (مطراوى) إلي مدرسته وخرجت (آمنة) للعمل في حقول بلح التمر؛ فهي لم تلتحق بالمدرسة وطالما يأخذ ابيها كل نقودها ليصرفها علي مزاجه من مخدرات ونساء ونزوات أخري.

وفي المساء, رجعت (آمنة) وكان (مطراوى) يجلس علي الأريكة في الردهة، بابتسامة أنارت وجهها رمقته بخجل وقالت:

ـ كيفك يا (مطراوى)؟

ممتعضا طالعها ورد بهدوء:

ـ الحمد لله, أنا بخير.

وهنا نظر (مطراوى) إلي (آمنه) وتذكر مشهدها مع (رجل الغابة) وبـالرغم من أنها أكبر منه بـسنة إلا أنه شعر أنها طفلة أصغر منه تحتاج لـحنانه وعطفه التي لم تجدهما مع ابيها, وصمت (مطراوى) لوهلة ثم قال:

ـ تعرفين إنكِ أجمل بنت رأيتها في «الواحة» حتي الآن يا (آمنة) أنا مستغرب جدا أنكِ بنت عم (يونس) لا شكلكِ ولا ملامحكِ ولا هدوئكِ يدل علي أنكِ بنته أصلا!

وابتسم (مطراوى) وغمغم مع نفسه بـهدوء حتي لا تسمعه (آمنة) وقال:

ـ كيف لـهذا الغراب أن ينجب هذه العصفورة الجميلة الرقيقة الهادئة وكأنها عصفورة من الجنة؟!

ابتسمت (آمنة) ودفنت وجهها أرضا خجلا ولم ترد البتة.

حدق لها (مطراوى) مجددا لـجزء من الثانية ثم سألها باسما:

ـ أنت متأكدة أنكِ بنت عم (يونس) بجد يا (آمنة)؟!

طالعته باسمة وردت هادئة:

ـ نعم بنته يا (مطراوى) والنبي لا تتريق عليّ بـالله عليك.

وهنا هزّ (مطراوى) رأسه باسما ولم يتفوه مجددا إلا أنه ظل يطالعها بـحب وحنان وبدي سعيدا بـالكلام والنظر إليها.

***

مرت الأيام وبدأت بطن (عزيزة) تعلو وعرف كل الجيران بحبلها ولكن كان هناك فرق توقيت في هذا الحمل بين زواجها وحملها, هل سيلاحظه أحدا أم لا؟! أتي شهر رمضان وانتهي وبينما أهل «الواحة» يؤدون صلاة عيد الفطر وضعت (عزيزة) ما في بطنها, وهنا نظرت لها (الداية) باسمة وقالت:

ـ ولد يا (عزيزة) ماذا تريدين أن يكون اسمه؟

رد (مطرواى) باسما والذي كان واقفا بجوارهما:

ـ (عابد) أن شاء الله يا خالتي.

وفي تلك اللحظات, دنا (مطراوى) من أخيه وحمله وحضنه وقبَل رأسه وبعده (آمنة) فعلت نفس الشيء وقبَلت المولود ولكن (لوزة) خافت منه وخرجت من الحجرة بسرعة.

غادروا جميعا الحجرة وظلت (فردوس) مع (عزيزة) وحدهما, بوجه شاحب وصوت خائف خفيض قالت (عزيزة):

ـ أنا خائفة يا (فردوس) أنا ولدت قبل أن أكمل تسعة شهور من زواجي وخائفة أن أي شخص من أهل «الواحة» يلاحظ هذا الفرق ويعرف أني كنت حُبلي قبل زواجي من (يونس).

حدقت لها (فردوس) متذمرة وراحت تطمئنها أن لا أحد سيلاحظ فرق التوقيت بين زواجها وولادتها وأن كل فرد في «الواحة» مشغول في السعي علي لقمة عيشه نظرا لما تعيشه

«الواحة» من فقر شديد أدي إلي انتشار السرقة والبلطجة في كل مكان حتي أن الطيور كانت تُسرق من العشش والملابس تُسرق من علي حبال الغسيل.

وفي ظهيرة يوم عيد الفطر أتي (يونس) إلي (عزيزة) مخمورا بعد قضاء ليلة العيد مع (مهدي) في المقهى وجلس بجوارها علي السرير ونظر لها باسما ساخرا وقال:

ـ حمد الله علي السلامة يا (وزتي).

بكره وغل حدقت له ولم ترد, وهنا دخلت (آمنة) تحمل الطعام وقالت:

ـ أتفضلي الطعام يا خالتي، أنا ذبحت لكِ فرخة بلدي كي تقويكِ.

ردت (عزيزة) شاكرة:

ـ شكرا يا (آمنة) يا بنتي, ربنا يبارك فيكِ.

وفي تلك اللحظات, هجم (يونس) علي الفرخة وشرع يأكلها بنهم وكأنه لم يأكل من قبل.

نظرت له (آمنة) بغل وكره وقالت مغتاظة:

ـ هذه الفرخة لخالتي (عزيزة) يا (أبوي).

وهنا لطمها بكف يده علي وجهها وصاح قائلا:

ـ اخرسي واخرجي من هنا يا بنت الكلب وإلا وربي سأقتلكِ في الحال.

***

ثاني يوم العيد، ذهب (مطراوى) إلي (سند) ودخل بنايته الفاخرة وجلس معه وجاءت أمه فارعة الطول والمائلة للسمنة بعض الشيء وجلست معهما في الردهة علي كرسي بـجوارهما, وبـوجهها الأبيض حدقت إلي (مطراوى) وسألته:

ـ كيفك يا (مطراوى) وكيف أمك؟

ـ الحمد لله بخير يا خالتي، (أماي) ولدت البارحة وخلفت (عابد).

بـوجوم مدهوشة ردت:

ـ كيف وأمكِ لم تكمل تسعة شهور بعد علي زواجها يا ابني؟!

صمت (مطراوى) لوهلة وهو يحدق لها ورد:

ـ لا افهم ماذا تقصدين يا خالتي؟!

صمتت أم (سند) للحظات تفكر ثم ردت متلعثمة بـتوتر:

ـ لا اقصد أي شيء يا ابني، ربنا يسترها علينا جميعا.

وغادر (مطراوى) بناية (سند) وفي الطريق قابله (النمروس) ووقف أمامه وراح يحدق في عيناه بـتمعن وقال:

ـ (مطراوى) و(عابد) و(يونس) و(عزيزة) المغرب (عزيزة) تبكي و(يونس) يحضن (عزيزة) في الأرض.

وغادر (النمروس) مسرعا دون أن يفهم (مطراوى) أية كلمة

من كلماته وماذا يقصد من الأساس بـهذه الكلمات إلا أنه بدأ يشك أن هناك شيء غريب وسبب أغرب وراء زواج أمه من (يونس)!

***

كانت الشمس حارقة هذا اليوم, عاد (مطراوى) من مدرسته حاملا حقيبته المصنوعة من القماش والتي بها كتبه علي ظهره ودخل البناية, وجد (آمنة) تجلس أرضا علي القش في ركن الردهة صامتة بعد أن رجعت من العمل, وجهها الطفولي البريء به أثار العرق وحبيبات رمل الحقل الصفراء مُلتصقة به, لم تغسل وجهها بعد من شدة التعب والإرهاق وكأنها أرادت فقط أن تستريح من التعب, دنا منها (مطراوى) باسما وخلع حقيبته وجلس بجوارها أرضا ثم فتح الحقيبة وأخرج منها البسكويت وحدق لها وبـنبرة حانية قال:

ـ خذي يا (آمنة) هذا البسكويت, أنا استملته تغذية من المدرسة واحضرته لكِ مخصوص.

بـتمعن نظرت له باسمة خجلا وبـهدوء ردت:

ـ لا يا (مطراوى) انه تغذيتك أنت ولأزم أنت الذي تأكله, أنا أكلت جبنة قريش وخبز منذ قليل لـأني رجعت من الشغل وكانت بطني تقرصني من الجوع لكني شبعت الآن.

ظل يحدق لها بـحب للحظات وكأنه يحتضنها بـنظراته ثم قال:

ـ لا يا (آمنة) هذا لكِ أنتِ ولن أكل منه شيئا.

وهنا أخذت (آمنة) البسكويت منه المكون من ثماني قطع وأخذت منه أربع قطع وأعطته الأربع الباقية وقالت:

ـ أنا قسمته بيننا يا (مطراوى) وبهذا نأكل منه معا.

أخذ (مطراوى) منها البسكويت وشرع يأكل بهدوء وهو يحدق لها باسما وشرعت هي الأخرى تأكل, شاعرين بالغبطة والسعادة وكأن (آمنة) تسرق هذه اللحظات الجميلة من حياتها القاسية التي لم تهنأ بيوم واحد فيها حتي الآن من قسوة الدنيا عليها في قسوة ابيها!

«يا لها من دنيا شاقة ومتعبة عندما يكون كل الشقاء والتعب من الأب وليس من شخص أخر».

***

ظهيرة يوم مشمس في «الواحة» كانا (مطراوى) و(آمنة) يعملان معا في حقل واحد من حقول البلح بعيدا عن «الواحة» وكانت الشمس حارقة مع انعكاسها مع الأرض الرملية التي صارت تلسعهما في أقدامهما, راح (مطراوى) يراقب (آمنة) من بعيد وهو يعبئ البلح مع الأنفار والفتيات يحملن ورائهم, كانوا جميعا أنفار تخطي عمرهم العشرون إلا (آمنة) و(مطراوى) كانا طفلين ورغم ذلك كانا يعملان معهم بنفس الهمة في العمل حتي لا يخصم خولي الأنفار من أجرتهم اليومية, ظل (مطراوى) يراقب (آمنة) بحب وحنان من بعيد مُشفقا عليها؛ فهي رقيقة وضعيفة لا تتحمل كل هذا التعب الشاق, وبينما كانت (آمنة) تحمل البلح علي

رأسها تمشى وسط الحقل سقطت علي جانبها الأيمن وسقط البلح أرضا وهنا دنا منها خولي الأنفار غاضبا ولطمها علي وجهها بـكل قوته بعد أن نهضت من مكانها خائفة وصار جسدها يرتعش من شدة الخوف وراح الخولي يعنفها ويسبها بـالشتائم وصاح غاضبا مغتاظا قائلا:

ـ لماذا تأتين للعمل هنا إذا كنتِ لا تتحملين العمل يا بنت (يونس) العفن؟

وفي تلك اللحظات, اقترب (مطراوى) نحوهما وراح يتعارك مع خولي الأنفار مدافعا عن (آمنة) وطلب من الخولي أن لا يسبها هكذا ولا يذكر اسم ابيها بـشيء وأنها سقطت غصب عنها بعد أن انزلقت رجلها بسبب بعض الحشائش في الأرض, غضب الخولي من (آمنة) أكثر وأراد أن يطردها من الحقل إلا أن (مطراوى) قال له أنه إذا طردها سوف يترك العمل ويغادر هو أيضا وهنا فكر الخولي لـجزء من الثانية لا يريد أن يمشي (مطراوى) لأنه يعمل جيدا وهم في احتياجه للعمل هذا اليوم نظرا لـنقص الأنفار ورد الخولي قائلا:

ـ ابعد عن هذه البنت يا (مطراوى) وركز أنت في شغلك, هذه البنت تشبه ابيها الملعون تماما وانت تشبه أمك هذه السيدة الطاهرة الشريفة, اتركني اطردها ولن تعمل معي بعد اليوم.

صاح (مطراوى) غاضبا أمام الجميع في الحقل وقال غاضبا منفعلا:

ـ ألا يكفيك أنك ضربتها وتريد أن تطردها أيضا؟! أقسم بالله لولا أنك رجل كبير وفي مقام (أبوي) كنت ضربتك مثلما ضربت (آمنة) وإذا طردت (آمنة) سأمشي معها مهما حصل ولن أعمل معك بعد اليوم يا خال.

راح الجميع يطالعوا (مطراوى) مدهوشين من جرأته في الوقوف في وجه الخولي هكذا والدفاع عن (آمنة) بكل هذه الشجاعة؛ فلا أحد يستطيع أن يتحدث مع هذا الخولي الغاشم هكذا, وهنا راح الخولي يفكر للحظات ثم تراجع عن طرد (آمنة) وآمر الجميع الذين كانوا يصطفون حولهم يشاهدون الموقف بمغادرة المكان ومباشرة عملهم.

وفي تلك اللحظات, دنا (مطراوى) من (آمنة) وربتّ علي يديها بيديه وراح يطيب من خاطرها أن لا تغضب مما حدث ثم مسح الدموع من علي وجنتيها دون أن يتفوه بأية كلمة إلا أن نظراته لها كانت تحمل كثيرا من الكلام والعطف, غمرها (مطراوى) بعطفه وحنانه حتي هدأت تماما وتمالكت نفسها من جديد وعادت تكمل عملها وكأن لم يصبها شيئا بعد أن شعرت بالأمان, كان (مطراوى) مصدر الأمان لها في تلك اللحظات.

***

بات (مطراوى) يعشق (عابد)؛ فعند عودته من مدرسته كل يوم يركض إليه ويحمله علي ذراعيه ويلعب معه, ومع مرور الأيام والسنوات زاد حب (مطراوى) لـ(عابد) ونسي غضبه من زواج أمه رغم أن (يونس) لم يتغيّر بعد بل صار أكثر عنف

مما سبق.

مرت ست سنوات, وصار (مطراوى) في الصف الأول الإعدادي, (عابد) في الصف الأول الابتدائي, (لوزة) في الصف السادس الابتدائي, و(آمنة) بلغت الثالثة عشر من عمرها وما زالت تعمل باليومية في حقول «الواحة».

زادت مصاريف المنزل والمدارس لذلك ذهبت (عزيزة) إلي فيلا المأمور في مدينة «سيوة» وبدأت العمل بها خادمة, وفي أحد الأيام ذهب (عابد) مع أمه إلي الفيلا وجلس ينتظر في الحديقة وأمه في الداخل تمسح وتكنس وتغسل, وهنا أتت طفلة في الخامسة من عمرها من بعيد شعرها الطويل الناعم يرفرف خلفها كالعلم مع الهواء تحمل دميتها واقتربت منه وقالت:

ـ من أنت وماذا تفعل هنا؟

صاح (عابد) غاضبا وقال:

ـ كيف لا تعرفيني يا مجنونة؟

وهنا ركضت الطفلة إلي داخل الفيلا باكية وصاحت قائلة:

ـ (مامي) هناك ولد في الجنينة قال لي يا مجنونة.

خرجت (فاتن هانم) زوجة المأمور, بجسدها الرشيق وبشرتها القمحي منتصبة القوام إلي الحديقة ونظرت إلي (عابد) باسمة وقالت:

ـ أنه (عابد) ابن (عزيزة) الشغالة يا (كارما) يا حبيبتي.

وفي تلك اللحظات, خرجت (عزيزة) وراحت تضرب (عابد) متأسفه كثيرا لما فعله مع (كارما) ولكن طلبت منها (فاتن هانم) أن لا تضربه لأنه طفل ولا يعرف شيء بعد وراحت (كارما) تحدق له باسمة ساخرة سعيدة بـضرب أمه له.

مر هذا اليوم ورجعت (عزيزة) و(عابد) مع الغروب إلي «الواحة» وقد بدأت الشمس تتثاءب تعلن عن رحيلها وكان الجميع ينتظر الطعام التي تأتي به (عزيزة) من فيلا المأمور كالعادة, اسرع (عابد) إلي أبيه وحضنه وراح يخبره بما فعله مع (كارما) وابدي له ابيه سعادته أنه عاملها بـقسوة؛ فـحدقت لهما (عزيزة) غاضبة من (عابد) وأيضا من رد فعل (يونس) معه علي خطأه ولم تتفوه بـأية كلمة.

***

مرت الأيام وقد بدأ يدخل (مطراوى) و(آمنة) و(تينة) في سن المراهقة وما زالت (تينة) تحب (مطراوى) بـجنون ولكنها تلاحظ أنه يميل إلي (آمنة) ولا يشعر بها البتة مما كان سببا في زيادة كرهها لـ(آمنة) يوما بعد يوم.

وفي أجازه نصف العام ذهب (عابد) مع أمه إلي فيلا المأمور وقد بدأت (كارما) الدلوعة الجميلة الحلوة جدا والتي تظهر كـعصفورة صغيرة بين زهور الربيع في البستان تتعود على وجود (عابد) واللعب معه رغم اسلوبه الحاد والقاسي وراح شعورها تجاهه يتحول تدريجيا من الريبة إلي إعجاب وتعلق!

(4)

«لغة العيون الطف لغات الحُب تعبيرا عما يحمله القلب من شوق وحنين, طالما كانت العيون تعبرُ عن كل ما بـداخلنا دون أن نتكلم البتة وكأنها لم تُخلق فقط للرؤية بل خُلقت أيضا لـتتكلم عندما لا نستطيع الكلام والبوح بـما تحمله أنفسنا».

كانت (آمنة) رهيفة الحس هيّنة ليّنة وكأنها نسمة صيف خفيفة تُشعرك بـالراحة تحت أشعة الشمس الحارقة, وذات يوم وقت القيلولة جلست علي الأريكة في الردهة ودنا منها (مطراوى) وراح يتمعن النظر في عيناها الساحرة والتي بدت وكأنها عينيّ حورية من السماء هبطت الأرض, وقال (مطراوى) باسما خجلا بـصوت خفيض:

ـ أتعرفين انكِ جميلة وحلوة قوي يا (آمنة) لـدرجة أني لم أر هذا الجمال من قبل في «الواحة» كلها؟!

ـ شكرا يا (مطراوى) وحتي لو أجمل بنت في «الواحة» مثل ما تقول؛ فـانا بنت (يونس) الذي يعرفونه أهل «الواحة» جميعا بما فيهم أنت, الجميع يلعنه حتي أمامي وأنت رأيت وسمعت بـنفسك خولي الأنفار يسبني بـ(أبوي) أنا سمعت اللعنات تتساقط علي (أبوي) كثيرا في كل مرة أمشي معه في شوارع «الواحة» وفي الحقيقة ما زلت لا أعرف لماذا كل هذه اللعنات والسباب والشتائم له, ماذا يفعل كي يكرهه الجميع هكذا وكأنه شيطان؟!

طالعها (مطراوى) لـبرهة بـحب وبـنبرة حزينة عليها وعلي

كلامها رد:

ـ أنا أيضا لا أعرف لماذا يكرهه الجميع هكذا يا (آمنة) لكني سمعت كثيرا أنه رجل غير صالح يجري وراء النساء وأيضا يتعاطى المخدرات في ظل أننا نعيش هنا في «الواحة» عيشة بسيطة كلا يعمل من أجل لقمة العيش وفي نفس الوقت عم (يونس) يصرف كل ما لديه علي المخدرات والنزوات والجري وراء النسوان.

نظرت له (آمنة) حزينة مجددا وصمتت تماما ليسألها (مطراوى) سؤالا مفاجئ:

ـ أتكرهين أبوكِ يا (آمنة)؟!

وهنا تنهدت (آمنة) بقوة وتنفست الصعداء وترقرقت عيناها بالدموع وردت:

ـ اكرهه فقط! في الحقيقة مع كل طلعة شمس اتمني أن (أبوي) يموت, منذ صغري وهو يضربني كل يوم حتي تعود جسمي علي الضرب وكأن الضرب أصبح جزء من حياتي, في الوقت الذي يجب أن يكون مصدر الأمان لي اصبح مصدر الخوف الوحيد لي في الحياة! صرت اخاف من نظراته لي خاصة وهو تحت تأثير المخدرات لذلك في كل ليلة اقفل الحجرة عليّ أنا و(لوزة) من الداخل خوفا من أنه يدخل علينا, لقد صرت أمقت منظره وشكله بطريقة لا توصف وفي كل مرة أراه أمامي أشعر بجسمي يرتعش من الخوف, أنت متخيل كيف وصل الحال ببنت أن تكره أبوها وتخاف منه

بـهذه الطريقة.

وفي تلك اللحظات, انفجرت (آمنة) بـالبكاء وفرت الدموع من عيناها وعلا صوت نحيبها, وبـصوت واهن مبحوح تابعت:

ـ لقد اصبحت انتظر الملابس التي يعطف عليّ بها أهل «الواحة» حتي أني صرت اكره جسمي من لبسه لـملابس الناس القديمة وكأني لست إنسانه, كرهت نفسي وكرهت الحياة بـكل ما فيها, طالما أسال نفسي: «هل خُلقنا لـنعذب في الأرض هكذا أم ماذا؟!» طيلة عمري اتمني أن اعيش الحياة بـهدوء وسلام لكن هذا لم يتحقق ابدا في وجود (أبوي) وكأن (أبوي) هو العذاب الذي أرسله لي ربنا في هذه الدنيا! لماذا كل هذا العذاب والذل يا رب؟!

وظلت (آمنة) تنشج باكية بقوة وسالت دموعها بـغزارة, وهنا اقترب منها (مطراوى) وراح يمسح دموعها بـيديه ثم ضمها لـصدره؛ فـهدأت تماما بعد أن باتت في حضنه وكأنها طالما تبحث عن هذا الحضن الذي اشعرها بـالأمان والراحة لـأول مرة في حياتها واردفت (آمنة) بـحزن:

ـ لماذا لم يضمني (أبوي) في حضنه هكذا ولا مرة في حياته يا (مطراوي)؟ طالما كنت اتمني أن أحس بـالأمان ولو مرة واحدة في حضن (أبوي) وبعدها أموت, كنت أتمني أن أشعر ولو لـثانية واحدة أنه يخاف عليّ وأني بنته فعلا مثل بقية البنات في «الواحة», حرمني من التعليم ورمي بي في الحقول أعمل كي يأخذ أجرة عملي كل يوم ويصرفها علي نفسه حتي لو بتنا أنا وأختي دون عشاء, ليالي كثيرة كنا نبات

جوعي من غير عشاء حتي أننا كنا نبكي من وجع بطننا من الجوع وأحيانا كنا نخرج من غرفة الصفيح التي كنا نعيش بها ونطلب الطعام من الجيران لكنهم كانوا يسبوا (أبوي) أمامنا ويلعنوه ولا يعطونا لقمة عيش واحدة.

«ثمة شعور قاتل أن لا يكون لك أب, هذا يعني أنك ستعيش خائفا من الدنيا وكل ما فيها فاقدا الأمان للابد, ليس من الضرورة أن تولد بلا أب؛ فهناك كثيرا من الآباء أحياء لكن هم والأموات سَواء, لم يقدموا أي شيء لأبنائهم غير الذل والقهر والخوف والمهانة, ربما يكون موت الأب حقيقة حتمية يتقبلها الأبن محاولا أن يتأقلم مع خوفه وعدم الأمان مع فقده لأبيه ومحاولة استيعاب الدنيا بحلوها ومرها بخيرها وشرها دون أب, ولكن كيف سيتأقلم من يعيش أبيه معه وفقد الشعور بالأمان؟!» (مطراوى) و(آمنة) كانا بلا أب وكلاهما فقد الأمان في هذه الدنيا!

وعلا نحيب (آمنة) بين احضان (مطراوى) الذي غمرها عطفا وحنانا, وهنا ظهر (عابد) ونظر لهما وقال ساخرا باسما بجدية:

ـ ماذا تفعلون في حضن بعضكما الآن يا حلوين؟!

بعدت (آمنة) عن (مطراوى) بسرعة وارتجف جسدها خوفا ولم يرد أحدا منهما البتة علي (عابد) الذي ظل يحدق لهما باسما مستهزئا.

***

ذات ليلة كانت (عزيزة) تنام بجوار (يونس) في فراشهما في الظلام ترتدي قميص نوم كحلي اللون علي اللحم وهنا شعرت بـشيء ما يتحرك علي بطنها تحت قميص نومها, نهضت مسرعة وراحت تتحسس بطنها ثم صرخت بـأعلى صوتها وقالت:

ـ العقربة يا (يونس).

استيقظ (يونس) بسرعة وحدق لها بتمعن بعد ما أشعل ضوء الغرفة وبـغضب قال:

ـ أية عقربة يا أمراه؟!

وهنا هبطت (عزيزة) من فراشها وراحت تبحث عن العقربة في أرض الغرفة وتحت السرير وهي تردد مرتجفة:

ـ لقد رأيت ومسكت العقربة وهي تمشي علي بطني وتحمل ولديها علي ظهرها لكنها اختف عندما أشعلت النور يا (يونس).

ضحك (يونس) ساخرا ورد:

ـ يبدو أنكِ مجنونة يا (وزتي) أية عقربة هذه التي رايتها وتتكلمين عنها؟!

وفي تلك اللحظات, فتح باب الغرفة وخرج منها وقال:

ـ منكِ لله يا (وزتي) لن أستطيع النوم هذه الليلة بعد ما فعلتيه لأني أصلا أخاف من العقارب.

وهنا غادر (يونس) المنزل وخرج وجلس مع (مهدي) علي

المقهى يتعاطيان الحشيش وراحا يتظرفان وتحت تأثير الحشيش شرع (يونس) يهلوس بـالكلام وقال:

ـ أتعرف لماذا وافقت (عزيزة) علي الزواج مني يا (مهدي)؟

حدق له (مهدي) وهو منهمك في التدخين ولم يرد لـيتابع (يونس):

ـ لقد اغتصبتها قبل زواجنا وكانت حُبلي مني وكان هذا هو السبب أنها وافقت علي الزواج مني أصلا.

وهنا صُعقَ (مهدي) واحمر وجهه ورد:

ـ يا للهول, أيعقل أن يكون (عابد) ابن حرام!

ـ نعم ابن حرام يا صاحبي.

وصمت (يونس) للحظة ثم نظر إلي (مهدي) وقال محذرا:

ـ إياك أن تخبر أحدا بـهذا السر يا (مهدي).

صمت (مهدي) ولم يرد ما زال مصدوما مما سمع للتو!

انتهي (يونس) من سهرته وعاد قرب الفجر ودخل علي (عزيزة) وأيقظها من سباتها العميق وبـجسده الضخم كثيف الشعر وطأها بـعنف وهمجية كـالحيوان كالعادة.

***

صباح يوم جديد, وقد سَطعت الشمس علي أنحاء «الواحة» ذهب (عابد) مع أمه إلي فيلا المأمور وبدأت (عزيزة) في عملها وراح (عابد) يلعب مع (كارما) في الحديقة وقد صارت

(كارما) تتعلق بـ(عابد) بالرغم من أنه دائما عنيف ومغرور رغم كل هذا الفقر الذي يعيشه, كان (عابد) وسيما وعنيدا بـما يكفي لـإعجاب (كارما) وإثارتها, يبدو أن تمرده عليها زاد من أعجابها به!

وفي المساء عادا (عابد) وأمه إلي «الواحة» وجلس (عابد) مع ابيه أمام بنايتهم واخبره إنه قد رأي (آمنة) في حضن (مطراوى) وهنا غضب (يونس) بشدة وبينما كانت (آمنة) عائدة من عملها تحمل علي جسدها التراب والعرق من العمل تحت الشمس الحارقة طوال النهار وعلي باب البناية انقض عليها (يونس) ضربا وهو يسبها ويلعنها، صرخت (آمنة) بقوة و(عابد) مُتفرجا عليها سعيدا بـضربها, وهنا خرجت (عزيزة) و(لوزة) و(مطراوى) من الداخل واقتربوا من (آمنة) لـينقذوها, وفي تلك اللحظات ترك (يونس) (آمنة) من يديه ودنا من (مطراوى) وصفعه علي وجهه وصاح قائلا:

ـ ماذا كانت تفعل في حضنك يا كلب؟

صرخت (آمنة) في وجه أبيها وقالت:

ـ كفي هذا يا (أبوي) أتريد أن تفضحني في «الواحة»؟!

وهنا دخل (يونس) المنزل مُسرعا واحضر سكينا ودنا من (آمنة) واراد أن يطعنها بـالسكين ولكن اوقفه الجيران بعد أن تجمعوا علي الصراخ وتم تهدئته وإدخال (آمنة) و(مطراوى) و(لوزة) و(عزيزة) للمنزل ثم جلس (عابد) بجوار ابيه أمام البناية وقال باسما:

ـ كنت اتمني أن تقتل هذه الفاجرة وهذا الملعون يا (أبوي) وكنا تخلصنا منهما للأبد.

طالعه (يونس) مدهوشا من قسوته علي أخوته وطريقة حديثه عنهما هكذا وصمت تماما ولم يرد البتة.

كل ذلك كان بـمشاهدة (تينة) والتي غمغمت مع نفسها:

ـ كنت اتمني أن يقتلكِ أبوكِ يا (آمنة) يا ملعونة ونخلص منكِ للأبد.

بعد منتصف هذه الليلة الحزينة خرج (مطراوى) وجلس أمام البناية؛ فـراي (رجل الغابة) أعلي الشجرة أمام البناية مُحدقا له وقال (رجل الغابة):

ـ أنا اكره (عابد) يا (مطراوى) لأنه خبيث وملعون من نبته خبيثة ملعونة.

وتواري (رجل الغابة) في التو واللحظة, وهنا تعجب (مطراوى) من حديثه عن (عابد) أنه نبتة خبيثة وتذكر حديث أم (سند) وأيضا كلمات (النمروس) وحاول أن يربط كل هذا مع بعضه ولكنه لم يصل لأي تفسير بعد, وهنا دخل (مطراوى) وأوي إلي فراشه بجوار (عابد) علي الأريكة في الردهة.

وفي اليوم التالي, جلس (مطراوى) أمام البناية عصرا مع (عابد) غاضبا وقال:

ـ لماذا فعلت هذا البارحة يا (عابد)؟! لقد تسببت في أذية

(آمنة) يا (أخوي) وأذيتي أنا أيضا رغم أني أنا و(آمنة) نحبك قوي يا (أخوي).

رمقه (عابد) بـطرف عينه وبـنفاذ صبر رد ساخرا مُستهزأ:

ـ وأنا لا أحب أحد أصلا, فقط احب نفسي ومن المؤكد أنك مجنون يا (مطراوى) هل هناك شيء في الدنيا اسمه حب من الأساس؟! يبدو أنك واهم وتعيش في الخيالات يا (مطراوى) نصيحة مني حب نفسك فقط يا (مطراوى) حب النفس فيه النجاة والنجاح في هذه الدنيا الغريبة.

مصدوما مدهوشا حدق له (مطراوى) باسما ورد في كياسة:

ـ ولا حتي تحبُ أمك وأبوك يا (عابد)؟!

ـ في الحقيقة أنا لا احبهما ولا اكرههما يا (مطراوى) شعوري تجاههما عادي جدا مثل أي شخص, نفس شعوري تجاهك أو تجاه أي شخص اعرفه في الحياة حتي مثل هذا الرجل!

وأشار بـسبابته إلي رجل مارا في الشارع أمامهم يمتطي حماره, وهنا هز (مطراوى) رأسه مدهوشا من كلماته وغادر المكان بـصمت دون أن يتفوه بـأية كلمة مجددا.

***

تنازل (مطراوى) عن حلمه في دخول الثانوي العام ودخل الثانوي الصناعي ومرت ست سنوات أخري وحصل (مطراوى) على شهادة الدبلوم وما زال يعمل في الحقول,

(آمنة) ما زالت تعمل في الحقول أيضا لكنها صارت فتاة جميلة جدا بل وباتت أجمل نساء «الواحة» كل من يراها لا يتخيل ولو لثانية واحدة أنها ابنة (يونس) ولا حتي ولدت ونشأت في هذه «الواحة» التي طغت بيئتها القاسية علي ملامح سكانها وكانوا معظمهم ذو بشرة سمراء, (لوزة) حصلت علي شهادة الدبلوم الفني وتقوم بأغراض المنزل في غياب (عزيزة) وقت خدمتها في فيلا المأمور, لم يعد (عابد) يذهب مع أمه إلي الفيلا ولم يري (كارما) منذ سنوات, تفوق (عابد) في الشهادة الإعدادية واخبر ابيه برغبته في دخول الثانوي العام ولكن أبيه رفض بشدة لأنه لا يهتم بتعليم احدا من الأساس حتي لو كان (عابد) الذي طالما يحبه أكثر من أي شخص في الحياة, كان (يونس) فقيرا جاهلا لا يعي ولا يفقه أي شيء في الدنيا غير الركض وراء نزواته وشهواته.

«ما أقبح أن يجتمع الفقر والجهل في نفس الشخص, سيخلقان شخص خطير في المجتمع قد يتسبب في دمار جميع من حوله حتي أقرب الناس إليه».

حزن (عابد) حزنا كسر قلبه عندما رفض أبيه دخوله الثانوي العام واخفي حزنه في صدره حتي لا يظهر مكسورا خاصة أمام (مطروای) و(آمنة)؛ فهو الوحيد المدلل بين أخوته ومع دخوله سن الشباب صار الأكثر وسامة بين شباب «الواحة» كلها ومن يراه لا يصدقُ أنه ابن (عزيزة) و(يونس) لأنه كان وسيما وجميلا بدرجة لا توصف بدي وكأنه ابن أناس أثرياء, كاد أن يضيع حلم (عابد) في تكملة تعليمه وحلم الجامعة

الذي طالما كان يحلم به لولا أن (مطراوى) و(آمنة) أخبراه أنهما سيساعدونه في مصاريف الدراسة وكان تصرفهما معه صدمة له وتم مراده ودخل (عابد) الثانوي العام.

وفي أول يوم دراسي في المدرسة الثانوي العام المشتركة في مدينة «سيوة» رات (كارما) (عابد) من الدور الثالث للمدرسة واقفا مع أصدقائه في حوش المدرسة, هبطت له مسرعة وبـجسدها الرشيق الممشوق القوام وشعرها الطويل الأسود الناعم الذي راح يرفرفُ خلفها كـالعلم اقتربت نحوه مشدودة الجسد منتصبة الظهر بـكبرياء شامخة وقالت:

ـ (عابد)!

استدار لها وبـعينيه الزرقاوان المُثيرة جمالا حدق لها باسما في أبهي صورة ورد:

ـ (كارما)! كيفك يا (كارما)؟

ـ الحمد لله أنا بخير يا (عابد).

وصمتت (كارما) لوهلة ثم سألته وهي ما زالت تطالعه بـدقة وكأنها طالما كانت تشتاق إليه:

ـ لماذا لم تعد تأتي إلي الفيلا مع (طنط عزيزة) مثل زمان يا (عابد)؟! انت وحشتني جدا ووحشني اللعب معك في جنينة الفيلا.

وهنا قطبّ (عابد) جبينه غضبا كاد أن يحرق (كارما) بـنظراته وبـجسده فارع الطول مفتول العضلات دار حولها

مغتاظا ورد:

ـ لا تتكلمين عن (عزيزة) مرة أخري أمامي وأنسي كل ما حصل زمان واني كنت أجيء إلي الفيلا أصلا يا (كارما) لقد مسحت كل هذا من ذاكرتي وأرجو أن تنسيه انتِ الأخرى.

بعينيها العسلي الساحرة حدقت له مدهوشة من رد فعله الغير متوقع بالمرة وطريقة الحديث عن أمه وصمتت البتة وكأنها وقعت في بئر غمرها بالماء! وهنا غادر (عابد) المكان مُنزعجا وعاد إلي «الواحة» ووصل البناية عصرا وجد أمه تجلس في الردهة, دنا منها وصاح غاضبا وقال:

ـ أنا رأيت (كارما) اليوم في المدرسة وتكلمت معي عن خدمتكِ في الفيلا في وجود أصحابي, اتمني أن ترجعي عن الخدمة والتسول في البيوت أم صرتِ متعودة علي الخدمة ولا يهمكِ مظهري أمام أصحابي.

وهنا حدقت له أمه باسمة وردت في كياسة وحكمة:

ـ هذه هي حياتنا يا (عابد) ألم تكن تعرفها مسبقا وأنت جزء منها أصلا أم تريد أن تتغابي وتعيش وكأنك من أولاد الأغنياء في «الواحة»؟!

ثار (عابد) أكثر وقال:

ـ طالما اعرف حياتنا جيدا لكني مللت وتعبت من حياة الفقر والذل, لماذا لم نُخلق أغنياء مثل بقية الناس الأغنياء في «الواحة»؟!

ـ هذا نصيبنا يا ابني ولم يختار احدا نصيبه ولا قدره, ارضي بـقدرك ونصيبك يا (عابد).

نظر لها بغضب وتابع بـعنف:

ـ لقد تعبت من هذا النصيب, ألم يعلم ربنا بـالحياة التي نعيشها, إذا لماذا خلقنا طالما نعيش في ذل ومهانة هكذا ونأكل من خدمة البيوت؟!

وفي تلك اللحظات, دخل (مطراوى) وحدق لأمه ولمح عينيها قد ترقرقت بـالدموع؛ فـصاح غاضبا وقال:

ـ أنسيت نفسك يا (عابد) كيف تتكلم مع أمك هكذا وكيف تعلو بـصوتك عليها يا مجنون؟!

نظر لهما (عابد) بـعنف وغادر البناية دون أن يرد, وهنا دنا (مطراوى) من أمه وحضنها ومسح دموعها بـيده وضمها لـصدره وقال:

ـ لا تزعلي يا (أماي), (عابد) ما زال صغيرا لم يفهم الحياة بعد.

«ما اقبح هذه الحياة التي جعلت الأبن يري عمل أمه عارا عليه مهما كان هذا العمل حتي لو كانت خادمة!»

خرج (عابد) وسار في شوارع «الواحة» لا يدري إلي أين يذهب؟! وفي الطريق قابله (النمروس) ووقف أمامه وقال:

ـ نبتة خبيثة ملعونة من رجل خبيث ملعون إلي يوم الدين.

لم يكترث (عابد) لـكلمات (النمروس) لكنه اقترب منه

وضربه علي ظهره؛ فسقط (النمروس) أرضا ونزلت دموعه, وهنا اقترب من (النمروس) أحد المارة وساعده علي الوقوف حتي نهض وقال هذا الرجل لـ(عابد) غاضبا:

ـ ابعد عنه ايها المجنون المعتوه انه رجل مبروك, لماذا فعلت به هكذا؟!

نظر لهما (عابد) ساخرا مُنزعجا وغادر المكان وهو يطالع (النمروس) ويردد مع نفسه ضاحكا:

ـ أنا المجنون أم هذا المخبول هو المجنون؟!

وفي اليوم التالي, ذهب (عابد) إلي المدرسة وبعد انتهاء اليوم الدراسي جاءت (كارما) واقتربت منه في حوش المدرسة, وبخوف وترقب وحذر اعتذرت له عما حدث منها البارحة, وهنا قبلَ (عابد) أسفها وراح يغازلها بعيونه, استجابت لغزله سعيدة يبدو أن قلبها بدأ يخفقُ له, وهنا سألها (عابد) بغرور وجرأة:

ـ أتحبيني يا (كارما)؟!

صُدمت وحدقت له مدهوشة وردت:

ـ يا لها من جرأة زائدة يا (عابد) أتسألني هذا السؤال بكل هذه البساطة؟!

راح يدور حولها وهو يحدق لها بتعمق كاد أن يأكلها بنظراته ثم قال:

ـ بالطبع جريء يا (كارما) ولكن اريد فقط أن أعرف شعورك

تجاهي كي ابعد عن بقية البنات المُعجبات بي سواء هنا في المدرسة أو في «الواحة».

باسمة ساخرة ردت:

ـ البنات هنا في المدرسة أو في «الواحة», أنت مغرور جدا يا (عابد)!

ـ أكيد مغرور ومغرور جدا يا (كارما) واعترف أني مغرور, الغرور صفة عظيمة إذا كنت تملك صفات الغرور إذا أهلا بـالغرور يا عزيزتي الجميلة.

صمتت (كارما) للحظة ثم تابعت بـصوت خفيض:

ـ الحب كلمة كبيرة جدا يا (عابد) ونحن ما زلنا في سن المراهقة وبـداخلنا احاسيس كثيرة متداخلة وليست مفهومة ومن الصعب الإجابة علي سؤالك هذا في الوقت الحالي, ولكني اريدك أن تعرف أني أشعر بـالراحة عندما أراك واتكلم معك.

وهنا ابتسم (عابد) ودنا منها أكثر وبـكياسة همس في أذنها وقال:

ـ وهذا يكفي لي في الوقت الحالي يا (كارما) انكِ تشعرين بـالراحة والأمان عند رؤيتي.

وفي تلك اللحظة, حدقت له (كارما) مدهوشة من تحوله إلي شخص رومانسي تماما في لحظات وكأنه بارع في التمثيل يتلون ويغير جلده كـالحرباء في ثوانٍ!

(5)

في الكهف بعد منتصف الليل وقد عمّ الظلام تماما والهدوء والسكون دون صرير الأشجار التي تحيط بالجبل وراحت هذه الأشجار تتراقص مع نسمات الهواء وكأن الهواء يغازل أوراقها بخجل, كانت (طفلة الكهف) وقد صارت فتاة في سن الشباب ما زالت تجلس أرضا تنظر باكية لهؤلاء الرجال الثلاثة أعلي الثلاث مقابر الصامتين تماما وكأنهم غير موجودين في المكان تتحدث معهم بهمهمات وكلمات غير مفهومة, بدت وكأنها تلومهم علي أمر ما إلا أنهم لم يكترثون لها من الأساس, وهنا وثبت (فتاة الكهف) من مكانها بسرعة وظهرت ترتدي جلباب أسود اللون ملطخ بالدم والطين وشعرها يغطي وجهها تماما وراحت تدور حول الثلاثة رجال هلعة صارخة حتي ظهر شاب نحيل الجسد عاري تماما دون سترته حول فخذيه ودنا نحو (فتاة الكهف) في التو واللحظة وراح يطالعها بحب وكأنه يغمرها بنظراته وصاح قائلا:

ـ لماذا تبكين من جديد؟!

بنظرات صائبة حدقت له بتمعن ولم تجيب ابدا, ليكمل (فتي الكهف):

ـ أرجوكِ كفي بكاء وتعالِ في حضني لأنكِ وحشتِني قوي وكنت ابحث عنكِ في كل مكان حتي وصلت إلي هنا في هذا المكان المخيف الغريب والذي لا اعرف لماذا انتِ هنا أصلا ولا حتي أعرف كيف جئت أنا إلي هنا أساسا.

وهنا اقتربت منه (فتاة الكهف) بسرعة؛ فحضنها بشدة وباتت بين احضانه كطفلة صغيرة طالما تبحث عن حضن يحميها, وبنبرة حزينة هادئة باكية خائفة ردت (فتاة الكهف) وسألته:

ـ لماذا تركتني له ينهش لحمي ويسيل دمي؟!

ظل (فتي الكهف) ينظر لها مدهوشا, يبدو أنه لم يفهم ماذا تقصد بكلامها! إلا انه راح يضمها أكثر وأكثر بين أحضانه حتي غمرها تماما ودفنها بين ذراعيه وقد باتا جسدا واحدا لا تستطيع أن تفصلهما الآن دون أن يكترث لوجود الثلاثة رجال في المكان, لكن هؤلاء الرجال ظلوا يحدقون لهما مدهوشون من أمرهم! وفي تلك اللحظات, ظهر عواء الذئاب في كل مكان حول الكهف وهنا بعدت (فتاة الكهف) عن حضن (فتي الكهف) قليلا وقالت مرتجفة:

ـ أنا خائفة من الذئاب.

ضمها (فتي الكهف) مرة أخري وقال:

ـ لا تخافين أنا معكِ ولن يستطيع أن يقترب منكِ أي ذئب.

وفي تلك اللحظات, صرخت بكل قوتها صرخة كادت أن تهدم الكهف عليهم جميعا وقالت بصوت دوي في المكان:

ـ لقد نهش لحمي وسيل دمي ذئب لم أتوقع منه أن يفعل بي هذا ابدا.

وهنا راحت (فتاة الكهف) تركض بسرعة لداخل الكهف

وهي ما زالت تصرخ بـأعلى صوتها حتي تورات داخل الكهف تماما وظهر الدخان ورائها وكأنها تحترق تاركة (فتي الكهف) واقفا مكانه تائها حائرا لا يفهم ولا يعي ما يحدث من حوله أصلا!

***

مرت الأيام تباعا وقد استأجر (يونس) قطعة أرض زراعية في «الواحة» وقرر أن يزرعها بـمساعدة (آمنة) التي تفهم في الزراعة جيدا مثلها كـمثل أي رجل مزارع في «الواحة»؛ فـهي قد تمرست علي الفلاحة جيدا منذ صغرها واشترط ابيها عليها أن تعمل في حقول «الواحة» عندما لا تذهب حقل ابيها, بادرت بـالرفض بشدة عندما طلب منها ابيها ذلك في ردهة البناية لكنه صفعها علي وجهها؛ فـلم تتفوه بـأية كلمة ونظر لها (مطراوى) وهو يقف بعيدا عنهما وصمت دون أن يتدخل البتة هذه المرة حتي لا يتعارك مع (يونس) وحفاظا علي (آمنة).

وفي المساء جلس (مطراوى) مع (آمنة) في الردهة وراحا يتسامران وقال (مطراوى) وهو يلوم نفسه علي أنه لم يدافع عنها اليوم:

ـ لم أتدخل اليوم وابعد ابوكِ عنكِ خوفا أن اتعارك معه مرة أخري يا (آمنة).

باسمة هزت رأسها وردت:

ـ لقد تعود جسمي علي ضرب (أبوي) ابعد عنه يا

(مطراوى) حتي لا يفضحنا مرة أخري بين الجيران وأنا معي ربي سيحميني منه.

صمت (مطراوى) هنيهة محدقا لها بتمعن ثم قال:

ـ (آمنة) أنا بحبكِ واريد الزواج منكِ.

انارت الابتسامة وجهها وردت خجلا:

ـ أخيرا قُلتها يا (مطراوى) طالما كنت اتمني أن أسمعها منك.

ـ أول مرة يقولها لساني يا (آمنة) لكني قُلتها كثيرا بعيوني وقلبي قبل ذلك.

تنهدت (آمنة) بقوة كاد أن ينشق صدرها وشعرت بالاسترخاء بعض الشيء ثم قالت:

ـ لكني تمنيت أن اسمعها منك كي يطمئن قلبي يا (مطراوى).

وصمتت (آمنة) للحظة ثم تابعت:

ـ وأنا أيضا احبك يا (مطراوى) ولكن المشكلة الكبرى ظروفنا الصعبة لو فكرنا نتزوج وهناك مشكلة أكبر .. (أبوي) هل سيوافق علي زواجنا أم لا؟

أجفل (مطراوى) وشعر بالتوتر والقلق عندما ذكرت (يونس) وقال:

ـ حقيقي يا (آمنة) أكبر مشكلة هي موافقة عم (يونس).

مرت هذه الليلة علي (مطراوى) و(آمنة) وهما يفكران كيف سيقنعان (يونس) بالموافقة علي زواجهما ولكن كتم كلا منهما هذا الخبر في صدره, وفي الصباح خرج كلا منهم لحياته وخرجت (آمنة) مع ابيها للحقل في الجانب الغربي من «الواحة» تعمل معه مثل أي شاب؛ فهي خبيرة في الفلاحة.

مرت الأيام والشهور وصارت الأرض تزرع جيدا وتنتجُ أعلي انتاجها بفضل خبرة (آمنة) وبدأ يعمُ الخير علي أسرتهم من محاصيل الأرض ولكن سرعان ما شرع (يونس) في بيع كل ما تنتجه الأرض من محاصيل وينفقها علي شهواته ونزواته من مخدرات ونساء.

***

فات ثلاث سنوات وانتهي (عابد) و(كارما) من دراسة المرحلة الثانوية ونجحا, وذات صباح جلست (كارما) مع أمها في حديقة الفيلا واحضرت لهما (عزيزة) القهوة, وهنا نظرت (كارما) إلي (عزيزة) باسمة وقالت:

ـ مبارك نجاح (عابد) يا (طنط عزيزة).

ـ الله يبارك فيكِ يا (كارما هانم).

طالعتها (كارما) وسألتها:

ـ وما هي الكلية التي سيدخلها (عابد) يا (طنط)؟

راحت (عزيزة) تفكر لبرهة وكأنها لا تفهم سؤال (كارما) ثم

وردت:

ـ لا أعرف يا (كارما هانم) لكني اعتقد أنه لن يكمل في الجامعة نظرا لظروفنا الصعبة والجامعة تحتاج إلي مصاريف كثيرة جدا ونحن نعيش الفقر كل الفقر يا (هانم).

وهنا غضبت (كارما) وردت بعنف:

ـ لكن (عابد) لازم يكمل في الجامعة يا (طنط).

أومأت (عزيزة) برأسها باسمة لم تكترث بكلام (كارما) أصلا, ثم غادرت المكان وهنا لاحظت (فاتن هانم) غضب ابنتها (كارما) الشديد عندما سمعت أن (عابد) ربما لن يكمل تعليمه في الجامعة؛ فغمغمت (فاتن هانم) مع نفسها بهدوء:

ـ ماذا بينكِ وبين هذا الولد يا (كارما) يا بنتي؟!

***

التحقت (كارما) بكلية الصيدلة جامعة «الإسكندرية» وقُبل (عابد) في كلية الحقوق في نفس الجامعة, وذات يوم وقت تناول العشاء علي الطبلية في الردهة تحدث (عابد) مع أسرته جميعا بنفس الطريقة التي تحدث بها معهم من قبل وقت ظهور نتيجة الشهادة الإعدادية, إنه يريد أن يكمل تعليمه في الجامعة, رد (مطراوى) و(آمنة) في نفس واحد:

ـ توكل علي الله يا (عابد) وسنتكفل بمصاريفك حتي التخرج من الجامعة أن شاء الله.

نظر (عابد) للأرض ورد:

ـ لكنها مصاريف كثيرة يا (مطراوى) والدراسة أربع سنوات.

دنا منه (مطراوى) باسما وقبله من رأسه وقال وهو يشير لـكتفيه:

ـ كتف ماء وكتف زاد يا (أخوي) كل ما تحتاجه أنا تحت أمرك, المهم أن تكمل تعليمك وتنجح وترفع من شأننا في «الواحة» أنا كانت امنيتي أن أكمل تعليمي في الجامعة يا (عابد) لكن ظروفنا الصعبة منعتني من ذلك لكني لن أقصر معك ابدا حتي تكمل تعليمك وتتخرج من الجامعة يا (أخوي).

طالعه (عابد) مدهوشا للحظات ثم رد:

ـ ربنا يبارك لي فيك يا (مطراوى).

وهنا ضمه (مطراوى) لـصدره وتابع باسما:

ـ تحت أمرك يا (أخوي) ولكن لا تنسانا عندما تصبح محامي كبير.

ـ وكيف انسي (أخوي) الذي رباني وصاحب الفضل الأول في كل ما وصلت إليه يا (مطراوى)؟!

قبض (مطراوى) علي كتف (عابد) الأيمن وهزه بقوة محدقا بـعينيه واكمل:

ـ انت ابني يا (عابد) لست (أخوي) الصغير فقط.

وراح (مطراوى) يحتضنه بقوة تلك المرة, وفي هذه اللحظة فرت دموع (آمنة) تأثرا بـالمشهد, كل ذلك كان في وجود

(عزيزة) و(لوزة) و(يونس) الذي ظل يأكل بنهم ولم يكترث بكل ما دار من حديث بين (مطراوى) و(عابد).

ابتاعت (آمنة) جاموسة بنقود كانت معها قد ادخرتها من عملها في الحقول وراحت تغدو بها للحقل يوميا في الصباح وتعود مساءا وكانت تبيع الحليب ليساعدهم علي المعيشة.

وفي أجازه نصف العام رجع (عابد) إلي «الواحة» مع قرب الغروب ومر علي (فردوس) وابنتها (تينة) الجالسين أمام بنايتهم, راحت (تينة) تنظر إلي (عابد) بنهم مدهوشة بوسامته, لقد صار شخص أخر وكأنه ابن أناس أثرياء لما يظهره من هيبه وجمال, بحدقتين مُتسعتين نظرت (فردوس) إلي (عابد) هي الأخرى مدهوشة من وسامته وغمغمت مع نفسها بهدوء:

ـ أيعقل أن يكون هذا الولد الجميل ابن حرام؟!

وصل (عابد) البناية وسلم عليهم جميعا في غياب ابيه واعدت له (آمنة) الطعام الذي راح يأكله بنهم شاكرا لها, وفي نهاية الليل خلدوا إلي النوم جميعا كلا منهم في مكانه داخل البناية وعاد (يونس) مخمورا والجميع في سبات عميق, وطرق (يونس) الباب علي (آمنة) وهي تنام بجوار (لوزة) في فراشهما داخل غرفتهما وطلب منها نقودا, اجابت انها ليس لديها أية نقود وهنا صفها بقوة علي وجهها وخرج ورأي (عابد) ينام بجوار (مطراوى) علي الأريكة في الردهة اسرع إليه وايقظه وراح يقبله ويحضنه سعيدا بعودته وجلسا معا يتحدثان.

***

الشمس سطعت بقوة هذا الصباح, مر (مطراوى) بجوار «الغابة» وسمع هذا التنفس المميز حوله قادم من داخلها وهنا دخل «الغابة» وتعمق أكثر وأكثر وكأنه صار يستريح في هذه «الغابة» الغريبة والمثيرة حتي وصل هذه الشجرة التي جلس تحتها من قبل وجلس يستريح ساندا ظهره علي جذعها مرة أخري وغلبه النعاس ونام ليفيق من نومه بعد المغرب وقد زحف الظلام, وفي تلك اللحظات ظهر (رجل الغابة) بين الأشجار الكثيفة المُعانقة للسماء وحدق لـ(مطراوى) حاملا شعلة النار بيده وبسبابته اشار بين الأشجار, بتمعن نظر (مطراوى) لمكان اشارته ورأي مشهد اغتصاب أمه من (يونس) بكل تفاصيله ثم تواري (رجل الغابة) في التو واللحظة دون أن يتفوه البتة, وثب (مطراوى) من مكانه بسرعة وشرع يضرب رأسه بكفيه وقد فهم أخيرا تفسير كلام (النمروس) وأم (سند) وتيقن أن أمه قد تزوجت (يونس) مُجبره وفرت دموعه وغمغم:

ـ (عابد أخوي) ابن حرام!

ظل (مطراوى) داخل «الغابة» هذه الليلة ونام تحت الشجرة دون أن يخاف هذه المرة حتي أفاق في صباح اليوم التالي علي أشعة الشمس تسلع وجهه, وهنا ظهر (الرجل القروي) يشقُ الأشجار لاهثا ودنا من (مطراوى) وسأله:

ـ أنت (مطراوى) الذي تاه في «الغابة» وهو طفل وانا

رجعته إلي أمه في «الواحة» المجاورة لـهذه «الغابة»؟!

طالعه (مطراوى) بـترقب وبـحزن نظر له وأجاب:

ـ نعم انا (مطراوى) الذي تاه هنا عندما كنت طفلا.

طالعه (الرجل القروي) مدهوشا ثم سأله بـترقب:

ـ ولماذا دخلت «الغابة» مرة أخري يا (مطراوى)؟! لقد قُلت لك قبل ذلك لا تدخل «الغابة» لأنها ليست آمنة لـجنس البشر وعلي ما اتذكر أنك رأيت هنا شخص غريب أخافك, اعتقد أنه عفريت, أليس كذلك؟!

حدق له (مطراوى) مُتعجبا للحظات ثم سأله بـترقب وحذر:

ـ ألست انت من جنس البشر يا خال؟!

وهنا زمجر (الرجل القروي) غاضبا كـوحش كاسر وصاح قائلا:

ـ لا تسأل كثيرا يا (مطراوى) وهيا أخرج من هنا بسرعة ولا تدخل «الغابة» مرة أخري أيها المخبول.

صمت (مطراوى) تماما وشرع بـالخروج سريعا بعد أن ارتعش جسده من الخوف واستدار (الرجل القروي) وراح يتعمق في «الغابة» بين الأشجار ونادي عاليا علي (مطراوى) وقال:

ـ لا تدخل «الغابة» مرة أخري أيها المخبول.

ظل (مطراوى) يركض بـكل قوته حتي خرج من «الغابة»

وعاد إلي بنايته وفي الردهة سألته أمه أين كان طوال الليل لكنه لم يكترث لسؤالها أصلا ونظر لها بتمعن واستنكار والعرق يغرق جبينه وسألها:

ـ لماذا لم تخبريني بكل شيء حدث وقتها يا (أماي)؟!

طالعته مدهوشة من سؤاله وسألته:

ـ ماذا تقصد بكلامك هذا يا حبيبي؟!

ـ لا أقصد أي شيء يا (أماي).

وغادر (مطراوى) المكان والدموع تملأ عيناه.

***

انتهت أجازه نصف العام ورجع (عابد) إلي «الإسكندرية» بعد أن أعطاه (مطراوى) نقودا تكفيه الفصل الدراسي الثاني, وصارت حياة (عابد) بين الدراسة والتسكع مع (كارما) في شوارع «الإسكندرية» العتيقة ليلا بسيارتها الخاصة تصرف عليه من مالها بين الحين والأخر حتي انتهت السنة الدراسية الأولي وحصل (عابد) علي امتياز وكان الأول علي دفعته, وفي اجازة الصيف ذهب للعمل في الساحل الشمالي ولم يعد إلي «الواحة».

وفي أحد أيام الصيف الحارة، خرجت (آمنة) بالجاموسة في الصباح إلي الحقل ومعها غذائها حتي لا ترجع إلي البناية وسط النهار, تناولت غذائها وقت القيلولة ومن شدة تعبها غفوت في هذه الحجرة المبنية من أفرع الأشجار علي رأس

الحقل حتي أفاقت بعد دقائق معدودة من غفوتها التي تسبق النوم علي شخص يحرك أنامل يده على رجليها...

(6)

«ما زالت الدنيا تُفجعنا مرارا وتكرارا علي فترات فاجعة تلو الأخرى من حين إلي حين, ولكن كانت الفاجعة الكبرى عندما تفقد الإحساس بـالأمان من أقرب الناس إليك, تبا لها دنيا غريبة عجيبة لم نفهما بعد».

يا لها من صدمة قوية, إنه ابيها من راح يعبثُ في لحم جسدها الطاهر كـالخنزير النجس الوسخ الذي ظل متربصا بين الزبالة باحثا عن لقمة نظيفة يلتهما دون صبر.

ارتجفت (آمنة) وارتعش جسدها وشعرت بـالبرد في عز الصيف وحدقت لـأبوها بعد أن أفاقت من غفوتها وبـصوت واهن غلبته الدهشة قالت بـشقاء:

ـ ماذا تفعل يا (أبوي)؟!

بـنظرات كلها شهوة وغدر رمقها تائها شاردا وأجاب:

ـ كنت اغطيك يا (آمنة) بعد أن تعرت قدميكِ من الهواء.

وفي هذه اللحظة, وثبت (آمنة) من مكانها بسرعة وهرولت وعادت إلي البناية تاركة الجاموسة وابيها في الحقل, وعند دخولها من الباب دنت نحوها (لوزة) ورمقتها مُتعجبة من عودتها الآن وسألتها:

ـ لماذا تبكين يا (آمنة) ولماذا رجعتِ الآن من الحقل وانتِ متعودة علي الرجوع أخر النهار وأين الجاموسة؟!

دخلت (آمنة) غرفتها بسرعة ثم جلست علي طرف سريرها

ودخلت ورائها (لوزة) وهنا راحت تحدق إلي (لوزة) متألمة ثم اخبرتها بما فعله ابيها؛ فـراحت (لوزة) تتراقص في وقفتها مثل الغزية اللعوب التي تتمايل علي الموسيقي وضحكات الرجال حولها وقهقهت عاليا وقالت ساخرة دون أدني اكتراث لـكلمات (آمنة) المُفجعة:

ـ انتِ مجنونة يا (آمنة) أيعقل أن كُرهكِ لـ(أبوي) يوصل بكِ انكِ تفتري عليه هكذا وتتهمِيه بـهذه الخرافات التي لا يصدقها عقل, ومن المجنون الذي سـيصدق كلامكِ هذا من الأساس؟!

وراحت (لوزة) تطالع (آمنة) بـغل وكره ثم تابعت:

ـ لم أكن أعرف أنكِ تحملين كل هذا الكره في قلبكِ تجاه (أبوي) يا (آمنة) أرجو أن لا تنسين قبل أي شيء أنه أبوكِ الذي خلفكِ من صلبه ومهما كان الأمر لن ينسي أنكِ بنته.

حدقت لها (آمنة) بـوجوم وصمتت لوهلة تفكر, وهنا وثبت في رأسها تفصيله مهمة وهي انها قررت أن لا تخبر أحدا بما حدث من ابوها وتجنبت ابوها البتة وباتت لا تذهب معه إلي الحقل وحدها إلا في وجود (مطراوى) أو (لوزة).

ذات مرة وقت عودة (آمنة) من الحقل مع الغروب قابلت (النمروس) في الطريق الذي وقف أمامها وراح يحدق لها بـتمعن وقال مُتهتها:

ـ عيني عليكِ وعلي ما ينتظركِ يا (آمنة) لطفك يا رب, أخرجِها منها بـسترك وعفوك يا كريم إنها ضعيفة لا حول لها

ولا قوة ولن تتحمل كل ما سيحدث لها يا الله.

بخوف وترقب نظرت (آمنة) إلي (النمروس) وشعرت بالقلق واكملت سيرها دون أن ترد عليه ولكنها باتت تدرك أن ثمة هناك مكروه سيحدث لها وصارت خائفة من المستقبل والمجهول.

«جميعا نخاف من المجهول لأنه مجهول لا نعلمه بعد, يا الله ماذا تخبئ لنا الدنيا من اسرار ومجهول, احمينا يا الله علّ نخرج من هذه الدنيا بسلام.»

***

الأيام تمر بهدوء علي الجميع وما زال كل شخص منهم في مكانه وعمله دون أي تغيير ومرت ثلاث سنوات أخري وتخرج (عابد) من كلية الحقوق وحصل علي المركز الأول علي الدفعة بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف وتطورت علاقته مع (كارما) .. صارا عاشقان.

عاد (عابد) إلي «الواحة» بصحبة (كارما) وذات يوم في الصباح راحت العصافير تُغني وترقص أعلي أشجار الزينة في حديقة الفيلا وكأنها سعيدة مع شمس يوم جديد, جلست (كارما) مع امها علي كرسيين يحتسيان القهوة وكانت (عزيزة) واقفة بجوارهما وقالت (كارما) لـ(عزيزة):

ـ مبارك نجاح (عابد) يا (طنط عزيزة) أن شاء الله يتعين معيد في الكلية أو وكيل للنائب العام.

ـ الله يبارك في حضرتكِ يا (كارما هانم).

هكذا ردت (عزيزة) باسمة دون أن تفهم ما قالته (كارما) من وظائف وغادرت المكان, وفي تلك اللحظات وضعت (كارما) كوب القهوة من يدها علي تلك الطاولة أمامها وتنهدت بقوة؛ فنظرت لها امها بوجوم وقالت:

ـ اعتقد صعب جدا يُقبل (عابد) في النيابة العامة يا (كارما).

صمتت (كارما) للحظات وراحت تحدق علي مرمي بصرها في نهاية الحديقة ثم ردت:

ـ كل شيء من الممكن أن يحدث بالوساطة في بلدنا هذه أصلا يا (مامي) ألم تعرفين ذلك؟!

طالعتها أمها بترقب دون أن تفهم ماذا تقصد بكلماتها بعد وأردفت (كارما):

ـ أرجوكِ يا (مامي) تكلمي مع (بابي) كي يساعد (عابد) أن يدخل النيابة العامة.

نظرت لها امها مدهوشة وبترقب ردت:

ـ الآن تأكدت مما كنت احس به يا (كارما)!

ـ وبماذا كنتِ تحسين يا (مامي)؟!

غضبت أمها غضبا لم تراه (كارما) من قبل وظهر ذلك علي ملامح وجهها الذي صار محمرا في الحال ونهضت منتصبة الجسد تماما وراحت تتجول حول (كارما) وردت بفظاعة:

ـ انكِ تحبِين هذا الولد يا (كارما).

تنهدت (كارما) وصمتت للحظات, ثم تابعت مُتلعثمة:

ـ وحتي لو كنت احبه بالفعل يا (مامي) ما هي المشكلة في ذلك؟ أن شاء الله سيتعين في مركز مرموق سواء معيد في الجامعة أو وكيل للنائب العام لو (بابي) ساعده في هذا الأمر.

وهنا وثبت أمها من مكانها واقتربت نحوها وقبضت علي كتفيها بعد أن أوقفتها وراحت تهزها بقوة وصاحت منزعجة قائلة:

ـ انتِ مجنونة يا (كارما) انسيتِ إنه ابن (عزيزة) الشغالة خادمتكِ, كيف تفكرين ولو لمجرد تفكير انكِ تحبِين هذا الولد الصعلوك؟!

وفي تلك اللحظات, ترقرقت عينيّ (كارما) بالدموع وردت مخنوقة:

ـ اعلم جيدا كل ظروفه وظروف أهله يا (مامي) لكني في الحقيقة احبه لدرجة العشق واتمني ان تساعديني في الارتباط به وإلا لن أكون سعيدة في حياتي ابدا.

صمتت أمها لوهلة ما زالت مصدومة ثم اردفت بعد أن هدأت قليلا وجلست مكانها مرة أخري:

ـ من المستحيل أن يوافق (بابي) علي ارتباطكِ بهذا الولد يا (كارما) اتمني أن تنسي هذا الولد للأبد.

وصمتت أمها لجزء من الثانية ثم تابعت بكياسة وحكمة:

ـ (كارما) حبيبتي, طالما احس إن (عابد) ولد خبيث ملعون ودائما إحساسي يكون في محله يا حبيبتي وأنا خائفة عليكِ من هذا الولد الخبيث الملعون.

راحت (كارما) تتجول بنظراتها في الحديقة ثم نظرت لأمها وقالت:

ـ لو دخل النيابة العامة سيوافق (بابي) علي زواجي منه, ارجوكِ يا (مامي) تكلمي مع (بابي) كي يساعده أن يدخل النيابة وبذلك سيوافق علي زواجي منه.

وهنا دمدمت (كارما) باكية وفرت الدموع من عيناها ونظرت للأرض دون أن تتفوه بأية كلمة مجددا؛ فحدقت لها امها مدهوشة وكأنها في كابوس أو حلم ونهضت من مكانها مرة أخري واقتربت نحوها وضمتها بين ذارعيها وتابعت مصبّرة:

ـ سأحاول يا (كارما) ولكن لن أوعدك بأي شيء لأني أعرف رأي (بابي) مُسبقا ولن يوافق علي كل هذا الهراء أصلا يا حبيبتي.

استمرت (كارما) في بكائها بعد ما شعرت بخيبة أمل من حديثها مع أمها وأن حلمها في الارتباط بـ(عابد) من الممكن أن يضيع منها.

***

جلس (عابد) ذات ليلة مع أمه في الردهة واخبرها أنه عندما يحصل علي وظيفته سيعيش في «الإسكندرية» ولن

يزور «الواحة» البتة لـأنه لا يحب «الواحة» بـكل ما فيها وأنها طالما تفكره بـحياته الصعبة التي عاشها من فقر وجوع, حدقت له أمه باسمة دون أن تتفوه وكأنها أرادت أن تخبره بـنظراتها أنها تتوقع منه أن يفعل أي شيء من أجل مصلحته وأنها تعودت منه علي ذلك وباتت تصرفاته لا تدهشها من الأساس, ظل يحدق لـأمه مدهوشا من عدم ردها عليه بـأية كلمة وأنها اكتفت فقط بـنظراتها الحادة والثاقبة له.

كان القمر بدرا هذه الليلة وراحت النجوم ترقص حوله بـهدوء وسكون وتغازله علي استحياء من شدة جماله كـالنسوة اللاتي قطعن أيديهن حين انبهرن بـجمال (سيدنا يوسف عليه السلام) جلس (مطراوى) مع أمه أمام بنايتهما واخبرها أنه يريد الزواج من (آمنة) وهنا حلقت (عزيزة) في السماء فرحا ووافقت بعد أن اخبرها أنه سوف يستأجر بناية صغيرة ويتزوج بها وطلب منها أن تقنع (يونس) بـذلك وأن كل همه وخوفه أن لا يوافق (يونس) راحت أمه تطمئنه بـكلماتها وأن (يونس) لن يجد لـأبنته شابا في أخلاقه ورجولته وشهامته لكنه ظل يطالعها باسما وكأنه يعرف رد فعل (يونس) مسبقا, وفي المساء أتي (يونس) وجلست مع (عزيزة) في الردهة وتحدثت معه في طلب (مطراوى) من الزواج من (آمنة) وهنا صاح (يونس) غاضبا وقال بـكل عنف وكأنه لم يغضب مثل ذلك من قبل:

ـ مستحيل ابنك يتزوج (آمنة) يا (عزيزة) اجننتِ كي تطلبي مني طلب مثل ذلك؟ يبدو أنكِ فقدتِ عقلك ايتها

المرأة الغبية.

وفي تلك اللحظات, دخل عليهما (عابد) وقد سمع حوارهما ونظر لـأمه وقال باسما ساخرا وهو ما زال يقف بـجوارهما:

ـ وأنا مع رأي (أبوي), (آمنة) و(مطرواى) غير مناسبين لـبعضهما أصلا يا (عزيزة).

بـعينها المتقدة شرارا حدقت له أمه غاضبة وردت مغتاظة:

ـ لا تتدخل في شيء لا يخصك من الأساس, فهمت؟

نظر لها (عابد) غاضبا ثم نظر لـأبيه باسما وقال:

ـ أضربها علقة موت يا (أبوي) مثل ما كنت تضربها زمان, هي فعلا تستحق الضرب لأنها لا تسمع كلامك ولا تنفذ أوامرك.

وهنا وثبت (عزيزة) من مكانها غاضبة وقد ترقرقت عيناها بـالدموع واقتربت من (عابد) وصفعته علي وجهه وصاحت عاليا وقالت:

ـ ولد لا أصل له مثل أبوك, أنا من فعلت بـنفسي كل هذا ليتني نزلتك من بطني وكنت ارتحت منك ومن أبوك للأبد, يا ملعون مثل أبوك.

وفي تلك اللحظة, نهض (يونس) بسرعة من مكانه ودنا من (عزيزة) ووضع يده علي فاها وكتم صوتها وقال بـأعلى صوته:

ـ اخرسي يا امرأة ولا كلمة ثانية وإلا قتلتك في الحال.

راحت (عزيزة) تنظر إلي (يونس) بكره وتحذير وبادلها (يونس) بنظرات رجاء وكأنه قد شعر أنها كادت أن تخبر (عابد) أنه ابن حرام من شدة غضبها, وفي تلك اللحظات دلف (مطراوى) وقد سمع صوتهم واقترب من أمه وحضنها ومسح دموعها ونظر إلي (عابد) غاضبا وصاح مغتاظا قائلا:

ـ إياك أن تهين أمك مرة ثانية وإلا قتلتك يا (عابد), فهمت؟

وحضن (مطراوى) أمه مرة أخري ودموعها ما زالت تسيل علي وجنتيها وقال:

ـ لن اسمح لأي شخص في الكون أن يهينك طيلة عمري يا (أماي).

وهنا هز (عابد) رأسه ساخرا دون أن يكترث لدموع أمه وكلمات (مطراوى) لكن (يونس) ارتجف وشعر بالخوف وأنزوي في ركن الردهة وجلس أرضا ووضع رأسه بين رجليه دون أن ينطق بأية كلمة مجددا, رأت (آمنة) و(لوزة) كل ما حدث دون أن يتدخلان البتة خوفا من ابيهم, وفي غرفتهما قُبيل النوم علي سريرهما راحت (آمنة) تتقلب علي جنبيها شاعرة بالغضب مما حدث اليوم وبصوتها الذي يشبه صوت الكروان قالت هادئة لكنها غير مطمئنة:

ـ (عابد) نسخة من (أبوي) يا (لوزة) نفس قلة الأصل ونكران الجميل, «فولة وانقسمت نصين».

بخبث ومكر ردت (لوزة) باسمة بعد ما اعتدلت وجلست علي السرير ساندة ظهرها علي وسادتها:

ـ (عابد) عنده حق في كل كلمة قالها يا (آمنة) أنا لا احب (عزيزة) ولا (مطراوى) ومستغربة قوي أنكِ تحبين (مطراوى) وتريدين الزواج منه أصلا! انتِ جميلة زينة بنات «الواحة» كيف تتزوجين هذا الولد العفن؟ شكله لا يبدو وسيما وحلو يا (آمنة) مثل شكل (عابد أخوي) مثلا.

بـغير اكتراث باسمة طالعتها (آمنة) وردت:

ـ بعد كل ما فعله (مطراوى) معنا هو وخالتي (عزيزة) تتكلمين عنهما هكذا يا (لوزة)!

لم ترد (لوزة) عليها واستمرت في ضحكاتها السمجة, وهنا استدارت (آمنة) بـوجهها بعيدا عنها واستلقت علي جنبها وقالت مع نفسها بـهدوء:

ـ يبدو أنهم جميعا يعانون من قلة الأصل كما قالت خالتي (عزيزة) حتي (لوزة).

***

ظلت (كارما) تلحُ على أمها لـتحدث ابيها كي يساعد (عابد) وبعد تفكير مستمر من أمها وذات ليلة كان المأمور وزوجته يجلسان في بهو الفيلا يحتسيان القهوة مع تناول المكسرات ويشاهدان التلفاز, نظرت له (فاتن هانم) بعد ما وضعت كوب القهوة من يدها علي تلك الطاولة المستديرة التي كانت امامهما وتنهدت بـقوة ثم تشجعت وتحدثت معه في ما طلبته (كارما) منها, وهنا وضع المأمور كوب القهوة من يده علي الطاولة وراح ينظر لها باسما مدهوشا وقال:

ـ ماذا تقولين يا (فاتن)؟ يبدو أنكِ تمزحين معي بكلامك الغريب هذا!

ـ في الحقيقة لا أمزح معك ابدا ولكن هذا شعور بنتك تجاه هذا الولد الصعلوك وهذا ما طلبته مني من فترة وأنا اخبرتك بكل الحقيقة دون أن اخفي عليك أي شيء وانت صاحب القرار في هذا الأمر.

وفي تلك اللحظات رفض المأمور بشدة كل هذا الكلام بل ورأي أنها جرأة زائدة من (عابد) أن يقترب من ابنته من الأساس لكن (فاتن هانم) اخبرته بحب (كارما) له وتلك هي رغبتِها, جن جنونه ونهض من مكانه وقال غاضبا:

ـ أيعقل أن بنتي أنا تحب ابن (عزيزة) الخادمة؟!

تنفست (فاتن هانم) الصعداء وتشجعت من جديد وقالت:

ـ لو دخل النيابة العامة سيكون في وظيفة محترمة ووقتها من الممكن أن يكون زوج مناسب لـ(كارما).

وهنا هدأ المأمور قليلا وجلس مكانه من جديد وقد أحمر وجهه بشدة كاد الشرار أن يخرج من عيناه وتابع مصدوما:

ـ انسي هذا الموضوع انتِ وبنتكِ يا (فاتن), فهمتِ؟

وهنا راحت (فاتن هانم) تنظر علي سلم الفيلا حيث كانت تقف (كارما) يبدو أنها سمعت كل ما حدث بين والديها.

في صباح اليوم التالي، خرج المأمور لعمله وجلست (فاتن هانم) مع (كارما) واخبرتها برفض ابيها التام للفكرة من

الأساس وطلبت منها أن تنسي هذا الموضوع لأن ابيها لن يوافق علي (عابد) ابدا وانه عنده حق أن لا يوافق لأنه غير مناسب لها ابدا, انهارت (كارما) ونشجت بقوة وقالت:

ـ لكني احب (عابد) يا (مامي) ولن استطيع ابدا أن اكمل حياتي من غيره, ارجوكِ اقنعي (بابي) بأية طريقة أن يساعده في دخول النيابة العامة ووقتها سيكون زوج مناسب لي.

حدقت لها أمها بعطف وقد رق قلبها بعد أن رأت دموعها وردت:

ـ لله الأمر من قبل ومن بعد.

***

جلس (مطراوى) مع (آمنة) ذات ليلة في الردهة وراح يحدق لها بتمعن هائما وقال:

ـ (آمنة) أنا احبك ولأزم نتزوج وابوكِ رافض تماما, ماذا سنفعل؟

صمتت (آمنة) لجزء من الثانية وهي تنظر له بحب وعطف ثم ردت:

ـ كنت اعلم أنه سيرفض يا (مطراوى) أنه (أبوي) اعرفه جيدا أكثر من أي شخص في الدنيا, لن يوافق علي أي شيء يسعدني أبدا وكأنه خلفني كي يعذبني.

وصمتت (آمنة) للحظة وقد ترقرقت عيناها بالدموع ثم

بـصوتها العذب الهادئ قالت:

ـ وأنا احبك اكثر من نفسي يا (مطراوى) انت الشخص الوحيد الذي حسيت معه بـالأمان في هذه الدنيا وكأن ربنا ارسلك لي لـتنور حياتي المُظلمة, ارجوك لا تتخلى عني مهما حصل, والله كانت حياتي مُظلمة من قبلك يا حبيبي.

وهنا فرت الدموع من عيناها علي وجنتيها وصمتت؛ فـدنا منها (مطراوى) وراح يمسح دموعها بـيده وقال:

ـ لن اتخلى عنكِ ابدا يا (آمنة) حتي لو كلفني الأمر حياتي, انتِ أمني وأماني في هذه الدنيا أنتِ حبي الوحيد يا حبيبتي.

«طالما كان يعرف كيف يزرع الدفء والأمان بـقلبي في الوقت الذي كان قلبه يرتجفُ من البرد».

وفي تلك اللحظات, دخل (عابد) مُتعجرفا ونظر لهما بـتكبر وخرج دون أن يتفوه البتة, كانت عينيّ (عابد) مليئة بـالكره لهما وكأنهما أعدائه رغم كل ما فعلاه معه, يا له من شخص غريب وكأن قلبه خُلق من حجر ليس من لحم ودم!

شعر (مطراوى) بـالضيق بعد كلام (آمنة) معه, وفي هذه الليلة استلقي علي الأريكة ورأي (رجل الغابة) مرة أخري علي جِدار الردهة يمسك شعلة النار بـيده وقال (رجل الغابة) غاضبا وكأنه يحذر (مطراوى) من أمر ما:

ـ (يونس) و(آمنة) وزواجك يا (مطراوى).

وفي تلك اللحظات تواري (رجل الغابة) في الحال قبل أن

يسأله (مطراوى) ماذا يقصد بـكلماته, وثب (مطراوى) من مكانه واعتدل ثم دفن رأسه بين ركبتيه وغمغم:

ـ ماذا يقصد بـكلامه الغريب هذا؟!

شعر (مطراوى) بـالضيق؛ فـخرج وجلس أمام البناية وأتي (عابد) ودخل ولم يلقي عليه السلام, وهنا نادي عليه (مطراوى) قائلا:

ـ (عابد) تعالَ يا (أخوي) اريد أن اتكلم معك.

التفت اليه (عابد) غاضبا ورد مغتاظا:

ـ وماذا تريد مني أصلا؟ ليس هناك أي مجال للكلام بيننا يا (مطراوى).

ـ انت متكبر تجلس مع أخوك يا (عابد)؟!

ـ لست متكبرا لكن انت تفكيرك غير تفكيري وهذا طبيعي أصلا بسبب فرق التعليم بيننا أم نسيت إني خريج جامعة وأنت خريج دبلوم يا (مطراوى).

ـ لم انسي بالطبع يا (أخوي) ولكن حتي لو تفكيرنا مختلف يا (عابد) هناك شيء اكبر يربطنا ببعض .. الدم يا (أخوي) دم الأخوة يا (عابد) أم نسيت اننا أخوه.

ضحك (عابد) ساخرا وقال:

ـ دم يا (مطراوى) ما هذا التفكير القديم, لقد قُلت لك مُسبقا اني لا احب احدا أصلا, أعلم جيدا أنك ساعدتني انت و(آمنة) في تكملة تعليمي وأنا لا انسي هذا ابدا, لا تقلق

سـأدفع لكم كل جنية صرفتموه عليّ في الوقت المناسب يا (مطراوى).

طالعه (مطراوى) بـدهشة وهز رأسه باسما ثم قال بـهدوء:

ـ لا نريد منك مال يا (أخوي) كل ما نريده منك أن تفهم وتحس اننا أخوه ويجري في عروقنا دم واحد ونتمنى أن تحبنا مثل ما نحبك يا (أخوي).

ضحك (عابد) وقهقه مجددا وتابع:

ـ اتمني أن تفهم انت يا (مطراوى) أن ليس هناك شيء اسمه حب في هذه الدنيا من الأساس وأن تعيش لـنفسك فقط وتحاول أن تنتهز أية فرصة وتحقق بها أحلامك وتعيش الحياة كما تريد, عش حياتك يا (مطراوى)؛ فـلن تعيشها مرتين.

وصمت (عابد) لـبرهة ثم اكمل ناصحا:

ـ وعلي فكرة زواجك من (آمنة) سـيدفنك حيا يا (مطراوى) انتم الاثنين فقراء وإذا تزوجتم سـتبقيان فقراء للابد, غير أن (أبوي) لن يوافق علي هذا الزواج ابدا.

ثم صمت (عابد) ولم يرد عليه (مطراوى) مجددا إلا ان (مطراوى) راح يحدق له مُتعجبا باسما ثم سأله:

ـ بعيدا عن عم (يونس) لماذا ترفض أنت زواجي من (آمنة) يا (عابد) طالما أنك لا تهتم بـأي شخص إلا نفسك؟!

ـ أنا لا رافض ولا موافق يا (مطراوى) انتم احرار مع بعض

تتزوجا تعيشا تموتا, كل هذا لا يهمني في شيء لكني انصحك ليس اكثر من ذلك.

أومأ (مطراوى) برأسه فاقدا الأمل في الحديث مع (عابد) ثم قال باسما:

ـ لكني اريدك أن تقنع أبوك أن يوافق علي زواجنا أنا و(آمنة) يا (عابد).

ـ لن أقنعه وليس لي علاقة بكم أصلا واتمني أن لا تتكلم معي مرة أخري في أي شيء من الأساس يا (مطراوى), فهمت؟

ـ فهمت يا (أخوي).

وهنا دلف (عابد) وترك (مطراوى) وحده, وفي نهاية الليل أتي (يونس) ودخل علي (عزيزة) غرفتهما وجلس بجوارها علي السرير وشرع يُقبلها ورائحة الخمر تفيح من فمه, ابتعدت عنه وحدقت له بغضب وقالت:

ـ وافق علي زواج (مطراوى) و(آمنة) يا (يونس).

ـ وإذا لم أوافق, ماذا ستفعلين يا (وزتي)؟!

ـ سأقول لـ(عابد) كل شيء وسأعرفه كل ما حصل قبل زواجنا واخبره بحقيقتك القذرة وأنه ابن حرام وأنني لم اكن اوافق علي زواجي منك مهما كلفني الأمر إلا عندما اغتصبتني وكان نتيجة هذا الزنا هو (عابد) ماذا لو عرف (عابد) أنه ابن زنا يا (يونس)؟!

شعر (يونس) بـالتوتر والقلق وتصبب جبينه عرقا ودنا منها وقبض علي ذراعيها بـيديه وراح يهزها بقوة كاد أن يخلع كتفيها وتملك من كل قوته ولطمها علي وجهها وسال الدم من فمها وقال:

ـ لو فعلتِ هذا سـأقتلكِ يا (عزيزة).

لم تكترث لـصفعته وبـنظرات تحدي حدقت له من جديد وقالت باسمة:

ـ أنا قُلت كل ما عندي يا (يونس) وعليك أن تختار, أن توافق علي زواج (مطراوى) و(آمنة) أو أن أخبر (عابد) بـكل شيء وانه ابن حرام وابن زنا.

وهنا ابتعد (يونس) عنها وجلس علي الطرف الأخر من السرير ووضع يديه علي رأسه وراح يفكر حائرا وفاتت ساعة وكلا منهما في ناحية من السرير, ثم اعتدل (يونس) ونظر لها غاضبا وقال:

ـ أنا موافق علي زواج (آمنة) و(مطراوى) يا (عزيزة) ولكن لا تعرفيهم موافقتي حتي يغادر (عابد) «الواحة».

بـنظرات انتصار ابتسمت وردت:

ـ حاضر يا (يونس) وعلي رأي (فردوس) .. «من حضّر العفريت يصرفه».

بـنظرات غدر وكره راح (يونس) يحدق لها وهو يجز علي ضروسه وكأن بـرأسه شيء لم يعلن عنه بعد...

(7)

«ومن يستطيع أن يتغلب علي حُكم القلوب, سلطان القلوب غلاب طالما غيّر وبدّل حياة ناس وذل ناس تحت مُسمي القدر والنصيب!»

كانت ليلة حارة علي «الواحة» كلها حيث جلست (كارما) مع والديها في بهو الفيلا وكانت ترتدي هوت شورت وقميص قصير أظهر سرتها لكنها كانت شاحبة الوجه بعض الشيء علي غير عادتها؛ فطالما كانت تضحك وتمزح طوال الوقت حيث انها البنت الشقية خفيفة الظل التي تملأ الفيلا علي والديها بهجة وسرور ولم يُرد لها طلب من قبل من والديها منذ طفولتها, راحوا الثلاثة يحتسوا القهوة معا مع بعض المكسرات التي يحضرها المأمور خاصة من «القاهرة» من أجل (كارما) والتي تعشقُ المكسرات بالقهوة, متوترة نظرت (كارما) لأبيها وبصوت خفيض قالت:

ـ لماذا لا توافق علي مساعدة (عابد) في دخول النيابة العامة يا (بابي)؟

اعترت الدهشة وجه أبيها مصدوما وبعينين متسعتين متقدة شرارا رمقها ورد:

ـ ولماذا اساعده من الأساس يا (كارما) أكان من بقية أهلنا وأنا لا أعرف مثلا؟!

وصمت المأمور للحظة ثم بغضب أكمل:

ـ أعتقد أنكِ تعرفين أننا أصلا من «القاهرة» يا (كارما) وكل أهلنا هناك في «القاهرة» ليس لنا أي أقارب في «سيوة» وجئت واستقريت هنا في «سيوة» عندما نُقل عملي هنا ورفضت أن أنقل من «سيوة» بعد ذلك نظرا لـحبي الشديدة للطبيعة الساحرة هنا.

وفي تلك اللحظات, نظرت (فاتن هانم) لـزوجها وغمغمت مع نفسها بـهدوء وقالت:

ـ ليتنا نقلنا من «سيوة» قبل أن تتعلق (كارما) بـ(عابد) هذا الملعون.

صمتت (كارما) لوهلة وراحت تتجول بـنظراتها بعيدا في نهاية البهو ثم بـهدوء ردت متلعثمة:

ـ اريد منك أن تساعد (عابد) لأني احبه يا (بابي) ومتأكدة انه سـيكون زوج مناسب لي لو دخل النيابة العامة, وهو ايضا ابن (طنط عزيزة) التي طالما تخدمنا بـإخلاص منذ زمن.

صمت المأمور للحظات شاردا وهو يحدق لـزوجته من جرأة حديث ابنته هكذا وتنهد بـقوة ثم قال:

ـ ممكن تبلغي (عابد) يجئ الفيلا اريد أن اتكلم معه قبل أي شيء وافهم ما في رأسه يا (كارما).

وهنا انفرجت أسارير وجه (كارما) وردت مُبتسمة وكأنها تحلق في السماء فرحا:

ـ أوكي يا (بابي).

***

كانت السماء صافية هذه الليلة, راح القمر يتوارى خلف السحب ويظهر مجددا علي استحياء, جلس (مطراوى) مع (آمنة) علي هذه الحصيرة أمام بنايتهم وراح (مطراوى) تارة ينظر للسماء وتارة أخري يحدق في وجه (آمنة) الذي ظهر كالبدر يشبه القمر الآن, وبهدوئه المعهود قال (مطراوى) وهو ينظر للقمر:

ـ القمر جميل وحلو قوي هذه الليلة يا (آمنة).

بخجل حدقت (آمنة) في عيناه ثم نظرت للسماء وقالت:

ـ القمر بدر, لأزم يكون جميل قوي يا (مطراوى).

وهنا استدار (مطراوى) بوجهه وظل محدقا في وجهها هائما وكأنه في عالم آخر, ثم قال:

ـ أتعرفين أن نور وجهك يشبه نور القمر هذه الليلة يا (آمنة).

ابتسمت (آمنة) خجلا وصمتا كلاهما لدقائق وهما ما زالا ينظران للقمر ثم اكمل (مطراوى) محدقا للسماء:

ـ هناك نجمة صغيرة بجوار القمر, أترينها يا (آمنة)؟

ـ نعم اراها, انها نجمة صغيرة قوي بالمقارنة بالقمر يا (مطراوى).

ـ حقيقي انها نجمة صغيرة يا (آمنة) تبدو مكسورة وضعيفة بالنسبة للقمر لكن نورها قوي بالنسبة لحجمها ولو

القمر اختفي الآن ستنور هذه النجمة السماء كلها رغم صغر حجمها.

وصمت (مطراوى) لـجزء من الثانية ثم تابع:

ـ هذه النجمة تشبهك بالضبط في حياتنا يا (آمنة) بالرغم انكِ طيبة وتظهرين ضعيفة ومكسورة مما يفعله بكِ أبوكِ إلا أن وجودكِ ينور حياة ناس كثيرة وأنا أولهم يا (آمنة).

ابتسمت (آمنة) خجلا من جديد وظلت تحدق للنجمة شاعرة بـالغبطة والسعادة وكأن الدنيا قد بدأت ترضي عنها وتسعدها وقالت بـنبرة عمتها الفرحة:

ـ شكرا يا (مطراوى) كلماتك نزلت علي قلبي بـالفرح والسرور, بجد شكرا علي كل شيء تفعله من أجلي, بصراحة لم أعرف ماذا كنت سـأفعل لو لم تكن في حياتي يا (مطراوى).

راح (مطراوى) يحدق للنجمة من جديد وقال:

ـ هذه النجمة الصغيرة من الآن اسمها (آمنة) علي اسمك يا (آمنة) اتمني ان اراها دائما بجوار القمر عندما يكون بدرا وارتوي بـالنظر إليها, (آمنة) في الأرض و(آمنة) في السماء.

وصمت (مطراوى) للحظة ثم قال متنهدا:

ـ ربنا ارسلكِ لي في حياتي كي تكون حياتي آمنة بكِ يا من بعثتِ الأمان في روحي وقلبي من وقت ظهوركِ في دنيتي يا (آمنة).

أومأت (آمنة) برأسها فرحا بكلامه وصمتا وراحا يحدقان للنجمة معا هائمين عشقا.

«ما أجمل لحظات السعادة التي نحاول أن نسرقها في ساعة غفلة من الدنيا مُتمنيين أن تدوم للابد لكنها دنيا دنيئة لن تغفل عنا كثيرا وسرعان ما تُفجعنا بحدث جديد يلغي شعورنا بلحظات السعادة المُسروقة وكأننا لم نشعر بها ابدا!»

***

يوم الجمعة عصرا ذهب (عابد) إلي فيلا المأمور ودخل ورحبت به (كارما) وأمها في البهو وجلسوا ينتظرون ابيها, مرت دقائق وأتي المأمور صافح (عابد) وطلب منه أن يجلسا معا وحدهما في غرفة المكتب, دخلا الغرفة وجلس المأمور علي كرسيه يحتسي كوبا من الشاي وجلس (عابد) علي الكرسي أمامه في أبهي صورة كان يبدو متألقا يجلس منتصب الجسد بكل شموخ وعزة وكبرياء وكأنه ليس أبن (عزيزة) الخادمة, بنظرات اعجاب ودهشة حدق له المأمور بتمعن وغمغم مع نفسه بهدوء:

ـ يا للهول! أهذا الشاب الوسيم بالفعل ابن (عزيزة) الخادمة أم أنه ابن ناس أخرين, انه يظهر وكأنه من أثرياء القوم في لبسه وهيئته وشكله وطريقة كلامه حتي, بالطبع يليق أن يكون وكيل للنائب العام, يبدو أن (كارما) كانت مُحقه في كلامها عنه.

ظل المأمور يكلم نفسه هكذا مبهورا بـ(عابد) ثم قال:

ـ لماذا تريد أن تدخل النيابة العامة يا ابني؟

بـغرور وثقة في النفس رمقه (عابد) وبـبرود رد:

ـ لأني متأكد من نفسي اني لائق لـهذه الوظيفة لـأكثر من سبب يا معالي المأمور, أولا أنا الأول علي دفعتي الأربع سنوات بـتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف, ثانيا اعلم جيدا اني سـأخدم هذه الوظيفة بـكل ما املك من مهارة وكفاءة وعلم, ثالثا وهذا هو المهم لأني احب (كارما) بنت معاليكم وأتمني من سيادتكم الموافقة علي زواجنا وأري أني عندما أصبح وكيل للنائب العام سـأكون مناسب لـبنت المأمور.

صُعق المأمور من جرأته, وبـحدقتين مُتسعتين ووجه محتقن بـالدماء قال متعصبا بعض الشيء لكنه لم يعلو بـصوته:

ـ أتحب بنتي وتقول هذا عادي هكذا في وجهي وكأن الموضوع سهل!

صمت (عابد) للحظات, ثم تنفس الصعداء ورد باسما بـهدوء دون أن يصبه أي توتر أو ارتباك من لهجة المأمور معه:

ـ نعم احبها والآن اطلب من معاليكم أن تساعدني كي ادخل النيابة العامة حتي أكون مناسب لـ(كارما) وحتي لو لم ادخل النيابة العامة سـأكون معيد في الجامعة وفي كلا الحالتين سـأكون مناسب لـبنت المأمور.

قال ذلك وهو يبتسم واثقا من نفسه يبدو أنه ايضا واثقا من حب (كارما) له, وهنا صمت المأمور لـدقائق وكأن علي رأسه

الطير ما زال يحدق لـ(عابد) مُتعجبا ثم قال:

ـ ممكن تسافر «القاهرة» وتسحب مظروف النيابة وربنا يقدم الخير أن شاء الله يا ابني.

وفي تلك اللحظات, شعر (عابد) بـالفرحة والسرور وظهر هذا علي وجهه في الحال ونهض من مكانه في التو واللحظة ودنا من المأمور وصافحه وهو يشكره بـحراره ثم خرج من المكتب للبهو وغادر الفيلا وراح ينظر إلي (كارما) باسما, وهنا خرج المأمور وجلس بجوار زوجته وابنته وقال:

ـ أن شاء الله يدخل النيابة يا (كارما) كل هذا من أجلكِ انتِ فقط يا بنتي الجميلة رغم اني قلقا من هذا الولد يبدو انه ليس سهلا ولم يظهر طيبا ابد مثل أمه (عزيزة).

وفي تلك اللحظات, نظرت (فاتن هانم) إلي (كارما) وقالت:

ـ لقد قلت لها نفس الكلام من قبل أن هذا الولد لا يبدو طيبا مثل أمه.

لم تكترث (كارما) ابدا لـكلام أمها وأبيها عن قلقهما من شخصية (عابد) ووثبت من مكانها سريعا كـالعصفورة التي كانت حبيسة في قفصها ومؤخرا أطلق صراحها متحررة واقتربت من ابيها وقد تبدّلت ملامحها تماما فرحا وسرور وراحت تُقبله من وجنتيه وقالت:

ـ احلي واجمل (بابي) في الدنيا كلها.

***

قدم (عابد) في النيابة العامة وراح يخبر (كارما) بـأخباره أولا بـأول و(كارما) تخبرُ ابيها بـكل المستجدات حتي طلب المأمور من ابنته أن تخبر (عابد) بـالمجيء إلي الفيلا مرة أخري يريد ابيها أن يجلس معه مرة ثانية ويتعرف عليه أكثر, وبالفعل ذهب (عابد) إلي الفيلا ذات يوم عصرا وجلس مع المأمور وزوجته و(كارما) في بهو الفيلا يتناولون الفاكهة وراح (عابد) يتكلم مع المأمور في كثيرا من أمور الحياة وهو في قمة سعادته بعد أن بدأ يشعر أنه صار فردا من هذه العائلة, وفي تلك اللحظات جاءت (عزيزة) تحمل صينية عليها أكواب الشاي, بـعينين متقدة شرارا حدق (عابد) لـأمه لـتلتقي عيناها بـعينيه؛ فـسقطت الصينية من يدي (عزيزة) في ذهول من الجميع, متوترة متلعثمة قالت (عزيزة) وهي ما زالت تنظر لـابنها:

ـ أسفة يا (فاتن هانم).

ثم جثت علي ركبتيها كي تلتقط الصينية والأكواب, وهنا نهضت (كارما) من مكانها واقتربت من (عزيزة) وربتّت علي كتفها وقالت:

ـ حصل خير يا (طنط).

غادرت (عزيزة) إلي المطبخ واستأذن (عابد) وخرج بسرعة خارج الفيلا وهو ينظر لـأمه نظرة غضب وكره, وهنا لحقت به (كارما) في الحديقة ونادت عليه وقالت:

ـ ماذا حصل يا (عابد) لماذا استأذنت ومشيت فجأة هكذا؟!

استدار (عابد) بـوجهه بعيدا عن (كارما) لكنها اقتربت منه ونظرت في وجهه ورأت دموعه لـأول مرة في حياتها رغم انها تعرفه منذ طفولتهما إلا أنها لم تراه يبكي البتة من قبل حتي في طفولته! صمتت (كارما) هنيهة وهي ما زالت تنظر له ثم قالت:

ـ لماذا تبكي يا (عابد)؟!

لم يرد عليها بـأية كلمة لـتكمل (كارما) قائلة:

ـ (عابد) حبيبي انت تعرف جيدا إننا نحب أمك ونثق فيها ونخاف عليها لـذلك ما زالت (مامي) تتمسك بها حتي الآن وانت متأكد اننا لا نعاملها علي اساس إنها شغالة ولكنها واحدة منا وأنا اعتبرها (مامي) الثانية لأنها من ربتني أصلا, إذا لماذا انزعجت هكذا من موقف اراه عادي جدا.

ظل (عابد) يسمعها صامتا ثم رد:

ـ (كارما) بعد إذنك اريد أن أمشي من هنا الآن ولا اريد أن اتكلم مع احد أرجوكِ.

ـ أوكي يا حبيبي بـراحتك لكني أطلب منك أن لا تزعل من أي شيء أرجوك لأني أغضب لـغضبك يا حبيبي.

قالت (كارما) هكذا بعد أن اقتربت منه أكثر وأكثر ومسكت يديه في محاولة أن تضمه لـصدرها لكنه سرعان ما فك يديه من يديها وتحرك من مكانه حتي وصل إلي بوابة الفيلا, وفي تلك اللحظات ركضت (كارما) بسرعة ناحية البوابة وهي تنادي عليه بـأعلى صوتها حتي وصلت إليه وحضنته

بقوة وضمته لصدرها وراحت تلمس بيدها علي شعر رأسه ثم نظرت في عيناه واقتربت بشفتيها من شفتيه وقبلته بحرارة ومن الغريب والغير متوقع أنه تجاوب معها حتي غابا في عالم آخر من اللذة والنشوة وكأنهما طالما كانا ينتظران تلك اللحظة التي جعلته يخرج من حزنه بعض الشيء وينسي ما حدث داخل الفيلا منذ قليل, فاتت دقائق وهم علي هذه الحالة حتي أفاقت (كارما) وابتعدت عنه بسرعه قبل أن يراهما أحدا وهم في أحضان بعضهما عاشقان وكأنهما زوجان وغادر (عابد) الفيلا متجها إلي «الواحة».

وفي المساء عادت (عزيزة) إلي «الواحة» لتجد (مطراوى) يجلس أمام البناية القت عليه السلام ودلفت حيث (عابد) مُستلقي علي الأريكة في الردهة, وهنا نهض (عابد) من مكانه وحدق لأمه بتكبر وغرور ممتزج بنظرات انكسار وذل وبغضب صاح (عابد) عاليا وقال:

ـ ما رأيك فيما حصل اليوم في الفيلا, الم تتراجعي عن الخدمة في البيوت بعد أم يبدو أنكِ قد تعودتِ علي الخدمة والذل والمهانة وستظلين هكذا بقية حياتكِ خادمة؟

سمعه (مطراوى)؛ فدلف سريعا ورأي دموع أمه تنزل علي وجنتيها دون أن تتفوه بعد, وفي تلك اللحظات دنا (مطراوى) من (عابد) وقبض علي يده وقال غاضبا ولكن بصوت خفيض:

ـ سبق وقُلت لك أن لا تعلو بصوتك علي أمك يا قليل الأدب, يا من لا تعرف شيء عن التربية والاحترام.

رمقه (عابد) بـكره ورد باسما ساخرا:

ـ انت لست رجل أصلا ولا تمتلك شيء عن الرجولة والنخوة والشهامة, الرجل لا يترك أمه تخدم في البيوت وتريد أن تتزوج (آمنة) وأمك ما زالت خادمة تخدم في الفيلا.

وهنا دنا منه (مطراوى) وتملك من كل قوته وصفعه علي وجهه صفعة دوت في البناية كلها حتي أن (آمنة) و(لوزة) خرجا من غرفتهما علي صوت هذه اللطمة وسقط (عابد) علي الأريكة وسال الدم من أنفه وفمه, اسرعت (عزيزة) نحو (مطراوى) وطوقته بـذراعيها وابعدته عن (عابد) وقالت:

ـ كفي هذا يا حبيبي من أجل خاطر أمك.

وثب (عابد) من مكانه ودنا نحو (مطراوى) أراد أن يضربه لكن (آمنة) و(لوزة) اقتربا منه وفصلا بينهما وحضنت (لوزة) (عابد) بقوة وهي تنظر إلي (مطراوى) بـكره وغضب, بـوجه ممتقعا محتقن بـالدماء صاح (عابد) قائلا:

ـ والله سـتدفع ثمن هذه الضربة غالي جدا يا ابن (عزيزة) الخادمة, انت وأمك من أصل واطي لـذلك لا تهتم بـخدمتها في البيوت.

باسما حدق له (مطراوى) ورد هادئا:

ـ لست أنا يا (أخوي) الذي من أصلي واطي ولو عرفت حقيقتك سـتندم علي كل ما تفعله هذا وتعيش بقية حياتك

أخرس.

ارتجفت (عزيزة) وحدقت إلي (مطراوى) تترجاه بـنظراتها أن يصمت ثم اقتربت من (عابد) وقبلت رأسه وقالت:

ـ أنا أسفة يا ابني لن أذهب إلي الفيلا مرة أخري ابدا.

رمقهم (عابد) جميعا بـكره وغل وبـغير اكتراث قال:

ـ ليس مهم عندي أصلا تذهبي إلي الفيلا أم لا, وأنتِ في نظري خادمة حتي إذا لم تخدمين في الفيلا ستخدمين في أي بيت أخر لأنكِ قد تعودتِ علي الخدمة في البيوت يا (عزيزة) يا خادمة.

اقترب منه (مطراوى) مرة أخري في محاولة أن يضربه من جديد لكنهم الثلاثة فصلوا بينهما وهنا نظر (مطراوى) لـأمه وقال:

ـ عرفتِ الآن أنه ليس عنده أصل يا (أماي) أم ستدافعين عنه مرة أخري؟!

ردت (عزيزة) غاضبة:

ـ كفي هذا يا (مطراوى) وهيا اخرج من هنا الآن.

ترقرقت عينيّ (مطراوى) بـالدموع وخرج من البناية وظل يتجول في «الواحة» دون أن يعرف إلي أين يذهب حتي منتصف الليل وجد نفسه...

(8)

«ماذا لو ضاقت عليك الدنيا كلها بما رحبت رغم وسعها, أين ستذهب وماذا ستفعل؟ جميعنا نجد أنفسنا كثيرا من الأوقات قد ضاقت علينا الدنيا لا نعرف ماذا سنفعل وأين سنذهب, لكن في كل مرة تجد قلبك يقودك دون أن تشعر بنفسك إلي الأمن والأمان لك ربما يكون الأمان في شخص ما تحبه أو مكان ما تحبه, كل ذلك سوف يحدث بقلبك تحت تأثير إشارات من عقلك إلي أن تجد نفسك في موضع الأمن والأمان, لكن سيظل السؤال قائما هل ستجد هذا الأمن والأمان في كل مرة أم ستخذلك الدنيا من جديد؟!»

وبعد منتصف الليل وجد (مطراوى) نفسه في الطريق القديم القريب من «الغابة», وهنا سمع شهيقا وزفيرا عاليا؛ فدخل وتعمق في «الغابة» وجلس ساندا ظهره علي جذع الشجرة في ظلمة الليل تحت نور القمر الذي كان له بمثابة مصباحا منيرا وقد اختفي الصوت وراح (مطراوى) ينظر للسماء؛ فرأي القمر اكتمل بدرا ورأي (آمنة) بجواره, تلك النجمة الصغيرة التي اسماها (آمنة) ابتسم فرحا سعيدا برؤية (آمنة) الآن وهنا ظهر (رجل الغابة) يأتي من بين الأشجار الكثيفة وبيده شعلة النار وعلي بعد امتار من (مطراوى) وقف وراح يطالعه باسما وقال بثقة وثبات:

ـ انت عاشق يا (مطراوى) والعشق سيقودك للمجهول, ابعد قبل فوات الأوان وقبل أن تجد نفسك قد دخلت في الهاوية ويكون الهلاك للجميع.

حدق له (مطراوى) مُتعجبا لوهلة وتنهد بقوة وأخذ شهيقا عميقا ورد:

ـ ليس بيدي يا صديقي كُتب عليّ العشق, عاشق وقلبي مُتيم بحبها, لقد صارت تجري في دمي وأصبت كالهواء الذي اتنفس به كي اعيش يا خليلي.

وهنا نظر (رجل الغابة) للأرض لجزء من الثانية ثم رفع رأسه ونظر إلي (مطراوى) من جديد وقال محذرا:

ـ إذا انتظر المجهول وما سيحدث يا (مطراوى) ولا تلوم إلا نفسك بعد ذلك يا عنيد.

وصمت (رجل الغابة) للحظة وهو ما زال يحدق إلي (مطراوى) غاضبا ثم أردف:

ـ لكني اريد أن أخبرك يا (مطراوى) أنك ربما لن تتحمل ما سيحدث لك بسبب قلبك وبسبب عشقك لـ...

وصمت للتو, وفي تلك اللحظات غضب (رجل الغابة) غضبا لم يغضبه من قبل وزمجر عاليا كالوحش المفترس وصرخ صرخة دوت في «الغابة» هزتها بأكملها من أرضها وأشجارها وتواري في التو واللحظة؛ فنادي عليه (مطراوى) وقد شعر بالخوف من شكل (رجل الغابة) المخيف وتمني أن تنشق الأرض وتبتلعه الآن وقال:

ـ عد يا صاحبي واخبرني بما تعرفه يا خليلي, لقد صرت صديقي الذي أشعر معه بالأمن والأمان أرجوك عُد واخبرني

بـكل ما تعرفه كي يستريح قلبي.

ولكن لم يظهر (رجل الغابة) مجددا ولم يرد البتة وعادت «الغابة» هادئة من جديد مُظلمة, ظل (مطراوى) وحده تحت ضوء القمر حتي اخلد إلي النوم لـيستيقظ في صباح اليوم التالي وقد ملأت الشمس السماء وهنا نظر عاليا للسماء وغمغم:

ـ لقد اختفي القمر واختفت (آمنة) معه واختفي ايضا (رجل الغابة) دون أن يخبرني بـما يهددني من مجهول.

وفي تلك اللحظات ظهر (الرجل القروي) وحدق إلي (مطراوى) غاضبا وقال:

ـ لقد قُلت لك من قبل أن لا تدخل «الغابة» مرة أخري يا عنيد, ألم تتراجع عما في رأسك بعد وتبعد عن (الغابة) وكل ما فيها؟ يبدو أنك تريد الهلاك لـنفسك ولا تعرف ما سـيصيبك!

باسما حدق له (مطراوى) دون اكتراث لأن باله مشغول بـما قاله له (رجل الغابة) ليلة البارحة وظل صامتا للحظات حتي خرج من صمته وقال بـصوت واهن ما زال يغلبه النعاس:

ـ في الحقيقة أنا لا اعرف كيف ادخل هذه «الغابة» في كل مرة, كل ما اعرفه انني في كل مرة لا احس بـنفسي إلا وأنا هنا وكأن هناك شيء خفي وغريب يقودني إلي هنا وأنا لا اشعر بـنفسي ابدا, يبدو أن راحتي صارت في هذه «الغابة» الغريبة ايها الرجل الغريب لأني لا أدخلها في كل مرة إلا

عندما أشعر بـالحزن ولا أعرف إلي أين أذهب كي ارتاح!

وصمت (مطراوى) لوهلة ثم تابع محدقا إلي (الرجل القروي):

ـ ما اسمك واين تعيش وماذا تعمل ومن أين تأكل وتشرب؟!

طالعه (الرجل القروي) غاضبا ورد بـنبرة من العنف:

ـ لا تسأل عن أشياء لن تنفعك لكني ما زلت أحذرك أن لا تدخل «الغابة» مرة أخري.

صمت (مطراوى) للحظة وهو يفكر ما السبب وراء تحذيره ثم قال بـهدوء:

ـ لقد قُلت لك أني ادخلها عندما اشعر بـالخنقة ولا اعرف إلي اين اذهب ويظهر صديقي الغريب المُرعب هذا ويحكي معي كلامه الغير مفهوم بالمرة كما تحكي أنت معي الآن!

وفي تلك اللحظات, تنفس (الرجل القروي) بقوة واتسعت عيناه وحدق إلي (مطراوى) بـتمعن وسأله مُترقبا:

ـ من صديقك هذا الذي تقصده؟!

ضحك (مطراوى) ورد:

ـ هذه قصة طويلة لا تشغل بالك بها يا صاحبي.

وضحك (مطراوى) وتابع:

ـ حلوة كلمة صاحبي هذه رغم أنك اكبر مني بـكثير وتبدو مختلف عن الناس في «الواحة» لكني صرت أشعر أنك

صاحبي, أليس كذلك؟!

لم يرد عليه (الرجل القروي) مجددا وحمل فأسه التي أتي بها معه علي كتفه وغادر المكان وقال محدثا نفسه:

ـ وقت العمل الآن.

ـ وما هو عملك داخل هذه «الغابة» المهجورة المُرعبة؟!

سأله (مطراوى) مترقبا, وهنا التفت له (الرجل القروي) وأجاب:

ـ اعمل في تقطيع الأشجار.

وتواري (الرجل القروي) في لحظات دون أن يعرف (مطراوى) اين أختفي! وهنا وثب (مطراوى) من مكانه وخرج من «الغابة» وعاد إلي بنايته في «الواحة» وقت القيلولة ليجد أمه تجلس علي الأريكة في الردهة, نهضت وتشبثت بعنقه وسألته في لهفة:

ـ كنت وين طوال الليل يا حبيبي؟!

راح يحتضنها بقوة ويقبلها تارة من رأسها وتارة أخري من يديها ورد:

ـ ليس مهما الآن كنت وين يا (أماي) المهم أني رجعت لكِ من جديد.

راحت أمه تحتضنه بقوة وقالت:

ـ لا تزعل مني البارحة يا حبيبي, «يقطعني يا (مطراوى)»

أنا أسفة يا قلب أمك.

وشرعت تقبل يده إلا أنه ظل يقبل رأسها وهو يغمرها بين أحضانه وقال:

ـ تأكدي يا (أماي) أني لم ولن اغضب أو أزعل منكِ مطلقا مهما حصل لكني ارجوكِ أن لا تذهبي إلي الفيلا مرة أخري.

وهنا أومأت برأسها إيجابا دون أن تنطق بأية كلمة مجددا والحزن يملأ عيناها الحنونة بنظراتها له.

***

مرت الأيام تباعا وقد قُبل (عابد) في وظيفة وكيل النائب العام بعد مساعدة المأمور له, عَلت زغاريد أمه وسمعها جميع الجيران بما فيهم (تينة) وأمها وظنت (تينة) أنها زغاريد خطوبة (مطرواى) علي (آمنة) وغضبت غضبا لم تغضب مثله من قبل وشعرت كأن روحها تُسحب منها ببطء وكأنها ستفارق الحياة بعد لحظات كادت أن تسقط مغشيّ عليها لولا انها جلست أرضا وركنت ظهرها علي جدار ردهة بنايتها.

وفي بناية (عزيزة) راح (يونس) يرقص فرحا في الردهة وهو يُقبل (عابد) تارة من خديه وتارة أخري من رأسه وقال وهو ينظر لزوجته بتمعن وكأنه يوجه رسالة لها متعمدا:

ـ مبارك يا (عابد بيه) من الآن لن اسمح لاحد أن يناديك إلا بـ(عابد بيه) وإياك أن تسمح لاحد يناديك بغير ذلك يا (عابد بيه) حتي أنا.

قهقهه (عابد) عاليا محدقا لـأمه ساخرا ورد:

ـ أكيد يا (أبوي) لقد اصبحت (عابد بيه) ولن اسمح لـأي شخص مهما كان أن يناديني بـغير ذلك.

وفي تلك اللحظات, اقتربت (عزيزة) من (عابد) وحضنته وقالت سعيدة:

ـ مبارك يا حبيبي ربنا يبارك لك في عملك وحياتك ويجعل لك الخير فيه.

تجاهل (عابد) حضن أمه وشعورها الحنون تجاهه ولم يعيرها أي اهتمام ونظر لها مستنكرا بـكل غرور وعجرفة ولم يرد البتة, وهنا جاءت (آمنة) و(لوزة) واقتربا من (عابد) مباركين له فرحين, حضن (لوزة) وقبلها وتجاهل (آمنة) التي حدقت له باسمة ودلفت إلي غرفتها بسرعة مغمغمه:

ـ ربنا يهديك ويحميك من نفسك يا (عابد) يا (أخوي).

أتي (مطراوى) لـيجدهم جالسين في الردهة و(عابد) علي الأريكة اقترب منه لـيحضنه مباركا لكن (عابد) ابتعد عنه بسرعة وراح ينظر له بـتكبر وغرور وهنا ابتسم (مطراوى) وقال:

ـ مبارك يا (عابد) يا (أخوي).

طالعه (عابد) غاضبا وقال بـكل حدة وعنف:

ـ من الآن اسمي (عابد بيه) يا (مطراوى).

ابتسم (مطراوى) وترقرقت عينيه بـالدموع ورد باسما غير

مستغربا رد فعل (عابد):

ـ مبارك يا (عابد بيه).

عرف كل الجيران بمنصب (عابد) وكانت الدهشة من نصيب (فردوس) التي كانت تجلس في غرفتها وسط سريرها وراحت تغمغم مع نفسها:

ـ يا للهول, أيعقل أن ابن الحرام هذا اصبح وكيل للنائب العام ومن المفروض أن يحكم بين الناس بالعدل, عجبا لهذا الزمن والحياة الغريبة التي تضع من ليس له أي أصل فوق رؤوس العباد!

اقتربت منها (تينة) التي كانت تجلس بجوارها وسألتها:

ـ أتقولين شيء يا (أماي)؟!

ـ لا يا حبيبِتي أنا فقط مُتعجبة أن (عابد) ابن الحرام هذا اصبح في هذا المنصب الكبير.

طالعتها (تينة) بدهشة وردت:

ـ (عابد) ابن الحرام! ماذا تقصدين بهذا الكلام يا (أماي)؟

ـ لم اقصد شيء أنا فقط لا احب هذا الولد وطالما احس أنه كتلة من الخبث واللئم وليس لديه نخوة وأصل ودائما قاسي علي أمه وأخواته وكأنه ابن حرام او زرع شيطاني يا (تينة).

ـ لقد اصبتِ قولا يا (أماي) هو بالفعل خبيث وملعون ليس طيب مثل (مطراوى) وبالرغم من شخصيته القذرة إلا ان ربنا انعم عليه بنعم كثيرة, شكله الوسيم جدا والذي يشبه شكل

الباشوات ومنصبه الجديد هذا الذي كان صدمة ومفاجأة لـجميع أهل «الواحة»!

***

استلم (عابد) عمله في «الإسكندرية» وقطنَ في شقة بها وقد بدأت السنة الدراسية الجديدة وصارت (كارما) في السنة الخامسة والأخيرة من الكلية.

باتت «الواحة» هادئة بعد سفر (عابد) وبعده عنها ومكثت (عزيزة) في البناية وصار (مطراوى) متكفل بـكل المصاريف, وذات ليلة علي فراشهما طلبت (عزيزة) من زوجها أن ينفذ وعده بـزواج (مطراوى) و(آمنة) راح يتهرب من وعده لكنها هددته من جديد أنها ستخبر (عابد) بـكل شيء وهنا تذكر (يونس) وراح يفكر في تهديدها بـجدية خاصة بعد وظيفة (عابد) المرموقة التي لم يتخيل يوما ما أن يصبح ابنه في هذا المنصب ووافق في الحال علي زواج (مطراوى) و(آمنة).

وفي صباح اليوم التالي, خرجت (عزيزة) من غرفتها إلي الردهة واخبرت (مطراوى) و(آمنة) بـموافقة (يونس) علي زواجهما وباركت لهما, استقبلا الخبر بـسعادة وكأنهما عصفوران صغيران راحا يُحلقان في السماء فرحا ولكن حدقت (لوزة) إلي (عزيزة) غاضبة ساخرة وقالت باسمة وهي تضع يديها علي وسطها وتتراقص علي باب غرفتها بـمياعة:

ـ وكيف اقنعتِ (أبوي) بـالموافقة يا الدلعدي يا خالتي,

سحرتِ له أم ماذا فعلتِ يا خالتي؟!

نظرت لها (عزيزة) غاضبة وتنهدت بقوة وبـنفاذ صبر ردت:

ـ أخرسي يا (لوزة) وصفي نيتك حتي يرزقكِ ربنا بـشخص طيب مثل (مطراوى) يتقي ربنا فيكِ كما رزق اختكِ.

بـجسدها الممشوق راحت (لوزة) تتراقص كـالغَانِيَة من جديد وتغمز بـطرف عينيها وتابعت بـتهكم:

ـ لو مثل (مطراوى) لن اتزوج ابدا يا خالتي.

وهنا غضبت (عزيزة) وردت:

ـ ادخلي حجرتكِ يا سافلة وكفي كلامكِ العفن هذا.

قهقهت (لوزة) عاليا ودلفت غرفتها.

***

مر اسبوع وتمت خطوبة (مطراوى) و(آمنة) بعد أن ابتاع لها دبلة ذهب من «سيوة» وكانت شبكتها وعندما عرفت (تينة) بـذلك سقطت مغشيّ عليها من الصدمة وراحت أمها تهون عليها وتقنعها أن الزواج قسمة ونصيب لكنها لم تقتنع بـذلك بعد وبات صدرها يحمل كثيرا من الغل والكره تجاه (آمنة) و(مطراوى) حتي انها تمنت لهما الموت وصارا ألد اعدائها في «الواحة».

مر الترم الأول من السنة الدراسية وتمت خطوبة (عابد) دون علم أهله علي (كارما) بعد موافقة ابيها رغم رفض أمها الشديد والتي طالما حذرت ابنتها من (عابد) وحثتها أن

تتراجع عن حبها له وكان شرط المأمور أن يعيشان معهما في الفيلا في «سيوة» وسوف ينقل عمل (عابد) في «مطروح» حتي يكون قريبا من «سيوة» ووافق (عابد) علي كل طلباته وشروطه حتي ينال حلمه وهو الزواج من (كارما) والتي كانت له حلم لم يتوقع يوما ما أن يتحقق ابدا, عاد (عابد) إلي «الواحة» وأخبر ابيه فقط بـخطوبته ولكن سمعتهما (لوزة) وهما يتحدثان وحدهما في الردهة والتي فرحت كثيرا بـخبر الخطوبة خاصة أنه خطب (كارما هانم) ابنة المأمور وغادر (عابد) قبل أن تأتي أمه.

عادت (عزيزة) من السوق واخبرتها (لوزة) بـمجيء (عابد) اليوم لكنها لم تخبرها بـخبر خطوبته بعد, وهنا صُدمت (عزيزة) وترقرقت عينيها بـالدموع وقالت:

ـ وهل من المعقول أن يمشي قبل ما أجي انا و(مطراوى) و(آمنة) بعد كل هذه الغيبة يا (لوزة)!

رمقتها (لوزة) ساخرة وقالت باسمة وهي تحرك حاجبيها لأعلي كـالغزية وهي ترقص:

ـ انا قلت له ينتظر يسلم عليكم يا خالتي لكنه رفض وقال إنه مشغول وليس عنده وقت لكل هذا وأن اهم شيء عنده هو رؤية (أبوي) والاطمئنان عليه.

نزلت كلمات (لوزة) علي أذنيّ (عزيزة) كـالصاعقة وفرت دموعها إلي وجنتيها وصمتت وكأن صوتها حُبس في حلقها لـتُكمل (لوزة):

ـ علي فكرة يا خالتي (عابد بيه أخوي) خطب (كارما) بنت المأمور.

تنهدت (عزيزة) باكية وصمتت البتة.

***

بدأ (مطراوى) في بناء حجرة جديدة بالحمام الخاص بها من الخشب بجوار بناية أمه بمساعدة أمه و(آمنة) و(سند) بعد أن رفضت (عزيزة) أن يستأجر بناية بعيدا عنها وطلبت منه أن يعيش هو و(آمنة) بجوارها, وكانت تراه (تينة) كل يوم لتشتعل نارا من الغيرة وتنظر إلي (آمنة) في كل مرة تلتقي فيها عيونهما نظرة كره وحقد وغل.

وذات يوم جلست (آمنة) و(مطراوى) وقت القيلولة يستريحان بجوار غرفتهما التي لم تكتمل بعد وراحت (آمنة) تحدق له بابتسامة رضا وبنبرتها الهادئة قالت:

ـ اعلم جيدا بحب (تينة) لك يا (مطراوى) واعرف انها تكرهني جدا لكن الأمر كان غصب عني, لقد احببتك بكل حواسي وفي نفس الوقت اشعر بالذنب تجاه (تينة) التي تحبك ايضا.

وهنا دنا منها (مطروای) قليلا ومسك يدها التي كانت ناحيته وقبض عليها بقوة ثم قال بهدوء وهو ينظر في عيناها هائما:

ـ لا تهتمِ بأمر (تينة) يا (آمنة) المهم اني احبكِ انتِ ولم احب قبلكِ ابدا ولن احب بعدكِ ابدا, انتِ حب عمري, انت

الحب كله, انتِ الدنيا وما فيها بـالنسبة لي يا (آمنة).

بـعينيها الساحرة راحت تحدق له بـصمت دون أن ترد مجددا وتابع (مطراوى) باسما:

ـ هذه النظرات الساحرة كافية لي يا (آمنة) وكأنها نظرات حورية من السماء هبطت إلي الأرض كي تنور الدنيا بـأكملها وتنور حياتي معها.

بـوَقار وخجل ورَصانة ابتسمت (آمنة) ابتسامة انارت وجهها الملائكي ولم ترد مجددا لكنها شعرت بـحب (مطراوى) اكثر واكثر وتمنت أن تتزوجه اليوم قبل الغد.

مرت الأيام وانتهي (مطراوى) من بناء غرفته الجديدة بجوار بناية أمه وبدأ العمل بـجدية مرة أخري لـيدبر المال اللازم لـزواجه.

انتهي الفصل الدراسي الثاني ونجحت (كارما) وحصلت علي بكالوريوس الصيدلة وبدأ (عابد) يجهز لـحفل زفافه دون أن يخبر أحدا من أهله حتي ابيه حتي لا يأتوا إلي الحفل ويراهم أصدقائه في السلك القضائي, وتم الزواج في «الإسكندرية» وسافر (عابد) و(كارما) إلي «أوربا» لـقضاء شهر العسل.

وفي «الواحة» ذات يوم تحت شمس الظهيرة الحارقة راحت (آمنة) تساعد ابيها في سقاية الزرع في الحقل, وبينما تقوم بـرفع الفأس وفتح الماء سقطت أرضا بين الطين والماء وعليها الفأس؛ فـصرخت وهنا دنا منها ابيها سريعا وشرع

يوقفها لكنه راح يتحسس نهديها بهدوء ويقربها منه أكثر وأكثر, مفزوعة هلعة وثبت (آمنة) وخلصت نفسها من بين يديه بعد أن شعرت بيديه واصابعه تضاجع نهديها, وفي تلك اللحظات ركضت بعيدا عنه وجسدها مُلطخ بالماء والطين وقد تسارعت أنفاسها وجبينها يتصبب عرقا وراح ابيها يحدق لها بشهوة وهو يعض علي شفتيه وصمت, غادرت (آمنة) الحقل مرتجفة خائفة لا تفهم ما يحدث معها من ابيها بعد ورجعت البناية ودلفت غرفتها وشرعت تنشج باكية بقوة عاليا بعد أن جلست علي حافة سريرها؛ فاقتربت منها (لوزة) وسألتها:

ـ لماذا تبكين الآن يا (آمنة)؟!

ظلت (آمنة) تبكي لدقائق وهي تنظر للأرض ثم رفعت رأسها ونظرت إلي (لوزة) مرتجفة وقصت عليها كل ما حدث من ابيها معها وانها ما زالت لا تفهم ما يفعله ابيها معها, بنظرات غاضبة ردت (لوزة) دون أي تفكير ولا اكتراث بكلام (آمنة):

ـ أرجعتِ لهذه الخرافات من جديد يا (آمنة)!

ـ أتعرفين عني الكذب يا (لوزة)؟

ـ في الحقيقة لا يا (آمنة) وهذا ما يحيرني انكِ طيلة عمركِ ما كذبتِ في حياتكِ حتي عند خطأكِ كنتِ تصدقين القول لكني لا اتخيل ابدا ولم اصدق ما تقولينه عن (أبوي) وما يفعله معكِ خاصة أنه (أبوي) وابيكِ كيف يفعل ذلك مع بنته؟

شيء يجنن بصراحة ولا مؤاخذة يا (آمنة) (أبوي) لو حابب يفعل شيء مشين مثل هذا هناك نسوان كثيرة غيركِ أصلا في «الواحة» ومن المستحيل أن يرتكب هذا مع بنته! أنت عبيطة يا (آمنة) كيف يفعل الأب هذا مع بنته؟!

وصمتت (لوزة) هنيهة مدهوشة ثم اكملت:

ـ (آمنة) يا اختي أن شاء الله ستتزوجين (مطراوى) قريبا, ارجوكِ انسي كل ما قولتِ الآن وكأنكِ كنتِ في حلم وإياكِ ان تخبري احدا بأي شيء خاصة (مطراوى).

قوست (آمنة) جسدها كالجنين في بطن أمه ودفنت رأسها بين فخذيها وردت وهي ما زالت تبكي بحرقة:

ـ يبدو أنكِ محقة يا (لوزة) أكيد ما يفعله (أبوي) معي ما هو إلا حلم ويجب أن انساه ويجب أن اتزوج (مطراوى) في اقرب وقت.

مكثت (آمنة) في حجرتها هذا اليوم, وفي المساء جاء (مطراوى) بعد عمل يوم شاق وتناول العشاء وجلس علي الأريكة في الردهة, وهنا خرجت (آمنة) من غرفتها وجلست بجواره, وبخوف حدقت له متوترة وقالت بصوت خفيض غلبه البكاء بعض الشيء:

ـ أرجوك يا (مطراوى) اريد ان نتزوج في أقرب وقت.

غمرها حبا وحنانا بنظراته ورد باسما:

ـ تعرفين اني اتمني زواجنا اليوم قبل الغد يا (آمنة) لكني

ما زلت لم اجمع كل المال اللازم لـزواجنا وأنا اريد ان لا انقصكِ أي شيء كي تظهرين أجمل عروس في «الواحة» كلها.

تنفست الصعداء وبـنبرة فيها رجاء تابعت:

ـ ليس كل ذلك مهما عندي يا حبيبي لكني ارجوك اريد أن يتم زواجنا بسرعة.

ـ أن شاء الله يا (آمنة) يا قلب (مطراوى) سـأبذل كل جهدي كي نتزوج قريبا.

***

مر شهر وعاد (عابد) وزوجته من «أوربا» إلي «سيوة» وقطنا في الفيلا مع أهل (كارما) في غرفة في الطابق العلوي, وفي اليوم التالي استلم (عابد) عمله الجديد في نيابة «مطروح» وكان عمله ثلاثة أيام في الأسبوع واعتاد السفر كل أسبوع وكان يقيم في استراحة العمل ثم يرجع في نهاية الثلاثة أيام إلي «سيوة».

ومر شهرين من زواج (عابد) دون أن يذهب إلي أهله ويخبرهم بـزواجه كما أنهم قد تعودوا علي غيابه وكأنهم سعداء بـبعده عنهم رغم كل نفوذه وسلطته, وذات يوم سقطت (كارما) مغشيّ عليها في بهو الفيلا و(عابد) في عمله؛ فـسرعان ما اتصلت (فاتن هانم) بـالمأمور وأتي مسرعا ومعه الطبيب الذي فحصها طبيا وأخبرهم أنها حامل, فورا اتصلت (كارما) بـ(عابد) واخبرته, صار يحلق في السماء فرحا وكأنه سمع أول خبر يسعده في حياته واعطي ساعي مكتبه نقودا

وطلب منه أن يبتاع الشكولاتة ويوزعها علي جميع العاملين معه, وبعد يومين عاد (عابد) وجلس بجوار (كارما) التي كانت مُستلقيه علي ظهرها وسط سريرها وراح يتحسس بطنها بـيده وقال باسما:

ـ ولد أن شاء الله يا (كارما).

باسمة حدقت له وقالت:

ـ ولماذا تريد ولد يا حبيبي؟

صمت هنيهة وراح يتجول بـنظراته في الغرفة ورد:

ـ الدنيا عودتني أن أي شيء اتمناه يتحقق لي وكأني أمرها تحقق لي كل أحلامي وأنا اعلم هذا جيدا, لا أنا متأكد أن الدنيا لن تعند معي هذه المرة بـالخصوص وسـيكون ولد أن شاء الله يا (كارما).

ـ أن شاء الله يا (عابد).

وفي تلك اللحظات, قبلَ (عابد) يدي زوجته واحدة تلو الأخرى ثم قبلَ بطنها باسما.

***

انتهي (مطراوى) من تجهيز غرفته التي سـيتزوج بها وقد دبر حاله استعدادا للزواج بعد شهر وصارت (آمنة) تذهب إلي الحقل قليلا منذ ما فعله معها ابيها أخر مرة, أحيانا بـصحبة (عزيزة) أو (لوزة) وفي أحد الأيام جلس (يونس) في تلك الغرفة التي علي رأس الحقل وحده وقت القيلولة ولا يوجد

أي شخص هناك علي الطريق وراح يدخن الحشيش, وهنا راي فتاة قادمة من بين الحقول مُتجهة نحوه بسرعة وكأن هناك شخصا ما يطاردها حتي اقتربت أكثر واصبحت واقفة علي باب الغرفة امامه تنهج بقوة وكأنها كانت تجري بسرعة...

(9)

«النفس الخبيثة شديدة اللئم لا تحب ولا تعرف ابدا شيء اسمه سعادة الأخرين, الإنسان الذي يُحب لا يؤذي حبيبه وإن كان كل الأذى لم يصُبه إلا منه!»

انها (تينة) .. جاءت من بين الحقول شاردة تلتفت حولها في كل مكان لا تريد أن يراها أحدا حتي وصلت ووقفت أمام (يونس) ورمت مبلغا من المال في وجهه قبل أن تتفوه بأية كلمة, وهنا أخذ (يونس) المال بسرعة لاهثا مثل الكلب الذي حصل علي عظمة أخيرا علّها تسد جوعه ثم راح يشم حزمة النقود الورقية ونظر إلي (تينة) مدهوشا؛ فلم يكن بينهما أي احتكاك من أي نوع من قبل؛ فهي وأسرتها طالما يبغضونه ويكرهونه بشدة نظرا لأفعاله المُشينة والمعروفة لكل أهل «الواحة», ظلت (تينة) تحدق له بغضب للحظات ثم قالت بثقة وعجرفة وكأنها تأمره لأنها أدركت جيدا ثمنه ودفعته مقدما:

ـ اريد منك أن تمنع زواج (مطراوى) و(آمنة) ولك مني مثل هذا المبلغ.

راح (يونس) يلوح بحزمة النقود بيده ثم نظر لها باسما ورد:

ـ كل هذا من أجل حبكِ لهذا الولد الملعون يا (تينة)!

ضمت شفتيها غضبا محركة أرنبة أنفها وبنفاذ صبر صاحت:

ـ لا تتكلم كثيرا, وهيا اخبرني الآن هل ستقدر أن تمنع هذا الزواج أم لا؟

وهنا دنت (تينة) نحو (يونس) وجثت علي ركبتيها في محاولة أن تأخذ النقود من يده إلا أنه ابعد النقود عنها وازدرد ريقه بصعوبة وأجفل وقال:

ـ كيف امنع زواج (مطراوى) و(آمنة) والزفاف بعد أيام ومن المستحيل أن يبعدا عن بعضهما!

بحدة صاحت غاضبة وقالت:

ـ ليست مشكلتي, عرفني الآن هل ستستطيع أن تمنع هذا الزواج أم لا ولا تثرثر كثيرا بالكلام ايها النسوانجي المدمن؟

وهنا جثت علي ركبتيها من جديد والتقطت النقود من يده؛ فصمت وراح يحدق للنقود وتذكر احتياجه للمخدرات وتابع باسما:

ـ اتفقنا يا (تينة) اعتبريه حصل, ليس هناك زواج.

ـ اتفقنا يا (يونس) ولكني احذرك إياك أن يعرف أحدا بهذا الاتفاق بيننا وإلا ستري مني وجه أخر لم تراه من قبل, فهمت؟

وهنا أومأ (يونس) برأسه تنفيذا لكل كلامها وكأنه عبدا يطيع الأوامر, يا له من مدمن قد يفعل أي شيء من أجل أن يحصل علي المخدرات.

غادرت (تينة) المكان بعد ابرام هذا الاتفاق الخبيث بينها

وبين (يونس) ثم نهض (يونس) من مكانه ونادي عليها ضاحكا:

ـ أتتخيلين أن (مطراوى) سيتزوجكِ أصلا حتي لو بعد عن (آمنة) يا (تينة)؟!

ـ ليس مهما أن يتزوجني أم لا, المهم أن لا يتزوج (آمنة) يا (يونس) يا عفن.

جلس (يونس) مكانه مرة أخري وبدأ يفكر كيف يبعد (مطراوى) عن (آمنة) دون أن يظهر في الصورة خوفا من تهديد (عزيزة) وفي المساء ابتاع الحشيش وجلس مع (مهدي) في المقهى وراحا يدخنان الحشيش مع احتساء القهوة, وهنا حكي (يونس) لـ(مهدي) كل ما حدث من (تينة) وأنه يبحث عن حل سريع ليبعد (مطراوى) عن (آمنة) لأنه متأكد أن (آمنة) من المستحيل أن تبعد عن (مطراوى) بسهولة وطلب مساعدة (مهدي) لكنه أخبره أنه ليس لديه أي حلول وظلا يتعاطيان الحشيش حتي الفجر.

***

ذات ليلة ذهب (مطراوى) إلي (سند) في بنايته وجلس معه علي كرسيين في غرفة المعيشة يحتسيان الشاي, وهنا دلفت (أم سند) وجلست معهما وراحت تطمئن علي (مطراوى) وأمه ثم سألته عن زفاف (عابد) وهل ذهبوا إلي حفل الزفاف أم لا؟ وفي تلك اللحظات, وضع (مطراوى) كوب الشاي من يده علي هذه المنضدة أمامه وبرق عيناه ورد مدهوشا:

ـ ماذا تقصدين يا خالتي, هل تزوج (عابد)؟

في التو ردت:

ـ (عابد) تزوج بنت المأمور من ثلاثة شهور تقريبا يا (مطراوى) انا عرفت بالصدفة من (أخوي) عندما كنت ازوره في «سيوة».

اعترت الدهشة وجه (مطراوى) وصمت وكأن علي رأسه الطير ثم قال حزينا:

ـ لا احدا منا يعرف أي شيء عن زواج (عابد) يا خالتي, وكيف يتزوج دون أن نعرف!

وصمت (مطراوى) مجددا ثم تابع باسما:

ـ بصراحة لست مصدوم أصلا, هذا هو (أخوي عابد) وكل شيء متوقع منه صرت لا اصدم من تصرفاته.

عاد (مطراوى) مساءا إلي بنايته واخبرهم جميعا بـزواج (عابد) من ابنه المأمور, صُدموا جميعا إلا (يونس) لا يهتم بـشيء من الأساس كل ما يشغل تفكيره الآن كيف يفرق بين (مطراوى) و(آمنة) وراحوا ينظرون لـبعضهم البعض شاعرين بـالحزن من معاملة (عابد) لهم دون أن يتفوه أحدا منهم مجددا.

وفي اليوم التالي, خرج (مطراوى) حاملا فأسه علي كتفه, وفي طريقه للعمل قابل (النمروس) الذي وقف امامه مُترنحا كالعادة وقال (النمروس) مُتهتها:

ـ عيني عليك وعلي (آمنة) يا (مطراوى) استرها قبل فوات الأوان يا (مطراوى).

ثم استدار (النمروس) ليغادر لكن اوقفه (مطراوى) بعد أن شعر بالخوف من كلماته هذه المرة وحدق له باسما وقال:

ـ كلامك خوفني يا بركة «الواحة» ارجوك قُل لي ماذا تقصد بكلامك هذا, أنا (مطراوى) حبيبك الذي يعطيك الحلوى دائما اخبرني بما تعرفه يا صديقي.

بنظرة حزينة رمقه (النمروس) وكرر نفس الكلمات وغادر المكان دون أن يجيبه ابدا رغم محاولات (مطراوى) معه, وهنا شعر (مطراوى) بالخوف علي (آمنة) وراح قلبه يخفق وتذكر طلب (آمنة) منه أن يستعجل بالزواج وربط بين طلبها الغريب وبين كلام (النمروس) الآن؛ فهي طالما كانت خجولة ولا تتكلم في أمور الزواج ابدا وشرع يمشي متجها إلي الحقل عازما أن يعجل من زواجه في أسرع وقت, وفي هذا التوقيت خرجت (آمنة) من البناية بجاموستها متجه إلي الحقل, وصلت وربطت الجاموسة مكانها وقد أخذت غذائها هذا اليوم حتي لا ترجع وسط النهار وقد عرفت من ابيها مُسبقا أنه لن يذهب إلي الحقل هذا اليوم, شعرت بالطمأنينة وحدقت للجاموسة وهي تُدندن مع نفسها فرحا قائلة:

ـ سأتزوج (مطراوى) حبيبي قريبا يا جاموستي وصديقتي.

راحت الجاموسة تحدق لها؛ فنظرت لها (آمنة) ضاحكة

وقالت:

ـ لا تقلقين يا جاموستي الجميلة لن اقصر معكِ مطلقا بعد زواجي, انتِ صديقتي الغالية والشاهدة علي حبي الطاهر لـ(مطراوى) حبيبي.

مر الوقت وأذن الظهر وقامت (آمنة) للوضوء وصّلت داخل الحجرة علي رأس الحقل ثم تناولت غذائها وقد دخلت عليها القيلولة؛ فـغلبها النُعاس ونامت داخل الغرفة من شدة التعب والإرهاق.

الحقل يقع في الجانب الغربي من «الواحة» بعيدا عن الكتلة السكنية, وفي هذا التوقيت وقت القيلولة يذهب كل المزارعون يتناولون غذائهم ويعودون إلي حقولهم بعد صلاة العصر, دخلت (آمنة) في سبات عميق ونامت الجاموسة أيضا بعد أن تناولت وجبة دسمة من البرسيم منذ الصباح, كانت هناك «يمامة» تقف اعلي أحد أفرع الشجرة المُلاصقة لهم راحت تغني بـصوتها الجميل وهي تنظر إلي (آمنة) السكون والهدوء ساد المكان حول (آمنة) في فصل الصيف والشمس الحارقة, وهنا استيقظت (آمنة) مُسرعة مُفزوعة وقد شعرت بـيد تتحسس جسدها هلعة حدقت له .. أنه ابيها شرع يتحسس جسدها بـشراسة وحيوانية وهمجية صاحت (آمنة) غاضبة مرتجفة:

ـ ماذا تفعل يا (أبوي) ولماذا جئت هنا الآن أصلا؟!

دنا منها أبيها أكثر وهو ما زال يحدق لها وقال:

ـ جئت اجلس معكِ حتي لا تخافين وحدكِ هنا وقت القيلولة يا (آمنة).

وفي تلك اللحظات, راح يضمها ويتحسس جسدها ونهديها بقوة, نهضت (آمنة) بسرعة من مكانها في محاولة أن تتخلص من قبضته عليها لكنه مسكها بقبضة يده من قدمها قبل أن تفر منه واسقطها أرضا واستلقي فوقها بجسده القوي العريض ودفنها تحته أرضا وقال متلعثما:

ـ أتريدين أن تهربي مني مثل كل مرة يا (آمنة).

ترقرقت عينيها بالدموع ودققت النظر في عيناه وبصوت باكي قالت:

ـ اتركني يا (أبوي) ولا تفضحني, أنت أكيد تحت تأثير المخدرات, أنا بنتك لماذا تفعل معي كل هذا؟!

وهنا تملك منها أبيها ودنا منها أكثر وهو لا يسمع ولا يكترث لكلماتها وباتت كالدمية بين يديه نظرا لضعف جسدها بالمقارنة بجسده العملاق الضخم, مسكت (آمنة) المنجل الذي كان بجوارها وأبيها ما زال فوقها ووضعته علي رقبته وصاحت باكية قائلة:

ـ ابعد عني وإلا سأقتلك واقتل نفسي.

في الحال بعد عنها أبيها قليلا وهو ما زال ينظر لها بشهوة وشبق ثم اقترب منها من جديد وقد صار كالثور الهائج الذي أصبح لا يهمه إلا أن يفرغ شهوته بأية طريقة وتمكن منها مرة أخري ومسك المنجل منها بقضبة يده ورمي به بعيدا

خارج الغرفة وراح يصفعها علي وجهها صفعات متتالية حتي أصيبت (آمنة) بـالإغماء وسال الدم من فمها وأنفها, وصارت جثة بين يدي أبيها الذي ظل يحدق لها بـشهوة واللعاب يتساقط من فاه وقال متلعثما:

ـ كيف اترك هذه القشدة لـ(مطراوى) الكلب يأكلها وحده؟

وفي تلك اللحظات, رأت «اليمامة» من اعلي الشجرة كل ذلك وايضا الجاموسة رأت ذلك وصاحت الجاموسة بـأعلى صوتها كادت أن تُقطع رباطها لـتنقذ (آمنة) وهنا دنا (يونس) من ابنته وازاح ملابسها السفلية وتعري جسدها الطاهر امامه, ظل يحدق لها كـالوحش الثائر الذي يريد أن يُفترس فريسته وهو يعض علي شفتيه وقد زادت حرارة جسده, سال لعابه وتمكن منها واغتصبها بـوحشية وهمجية وهي ما زالت مغشيّ عليها لا تشعر بأي شيء, لقد فضَ غشاء بكارتها وبات دمها ومائه سائلا واحدا وسال دم (آمنة) المُختلط بـماء ذكورة أبيها علي ملابسهما, وهنا صرخت «اليمامة» باكية وكأنها تُناجي ربها اعتراضا علي ما فعله (يونس) في ابنته وظلت الجاموسة تصرخ وكأنها تستغيثُ بـأي شخص ولكن هيهات هيهات أن يظهر أحدا في هذا التوقيت, وانتهي (يونس) من اغتصاب ابنته وارتدي ملابسه وغادر المكان سريعا و(آمنة) ما زالت مغشيّ عليها لا تشعر بـأي شيء حتي الآن.

«طالما كنت أعتقد أن الخنزير فقط حيوان!».

مرت نصف ساعة من الوقت وأفاقت (آمنة) لـتجد نفسها

عارية تماما, نشجت باكية بقوة وصرخت صرخة هزت المكان وراحت تلطم علي وجهها وقالت:

ـ يا فضيحتي في «الواحة» كلها.

ثم نهضت بسرعة وراحت تستر نفسها بما تبقي من ملابسها وركضت إلي البناية ودموعها تسيل علي وجنتيها لتجد (عزيزة) تجلس في الردهة والتي سرعان ما وقفت من مكانها مفزوعة واقتربت من (آمنة) وبخوف وترقب سألتها:

ـ لماذا تبكين يا (آمنة) ولماذا وجهكِ شاحب هكذا ولماذا عدتِ الآن ووين الجاموسة؟!

لم ترد البتة ودلفت غرفتها مسرعة لتجد (لوزة) في سريرهما ودخلت ورائها (عزيزة) وهنا حدقتا لها (عزيزة) و(لوزة) بتمعن وسألاها في نفس واحد:

ـ ماذا أصابكِ يا (آمنة)؟!

لم تجيب ايضا وراحت (عزيزة) تمسحُ دموعها و(لوزة) تحدق لها صامتة ثم خرجا إلي الردهة بعد أن هدأت (آمنة) قليلا.

خرجت (عزيزة) من البناية وذهبت إلي الحقل وعادت بالجاموسة مع الغروب وهي ما زالت لا تعرف ماذا حدث لـ(آمنة) وعاد (مطراوى) إلي البناية ودنا من أمه التي كانت تجلس في الردهة سعيدا باسما وقال:

ـ لقد دبرت كل المال المطلوب لزواجي أنا و(آمنة) يا

(أماي) واريد أن يتم الزفاف في اسرع وقت.

متعكرة المزاج حدقت له أمه وحَكت له عن مجيء (آمنة) المفاجئ من الحقل وسط النهار وعن بكائها طوال اليوم دون الحديث معهم في أي شيء؛ فـدلف (مطراوى) لـ(آمنة) غرفتها بـصحبة (لوزة) وأمه وسألها عن ما حدث لها لكنها لم تجيب البتة غير أنها راحت تحدق له نظرة حزن وخوف والدموع تسيل من مقلتيها, وهنا نظرت (آمنة) إلي (لوزة) وقالت مُتلعثمة:

ـ أنا بردانة يا (لوزة) غطيني بـالبطانية أرجوكِ.

مدهوشة ردت (لوزة):

ـ بردانة كيف يا (آمنة) في عز الصيف؟!

نظرت (عزيزة) إلي (لوزة) وقالت:

ـ غطي اختكِ ونامي جنبها يا (لوزة).

وفي الصباح, استيقظوا جميعا و(آمنة) ما زالت علي هذه الحالة لم تنطق بـأية كلمة بعد وذهب (مطراوى) إلي غرفتها لـيطمئن عليها, لقد امتنعت عن البكاء ولكن لم تجب عن أي سؤال؛ فـخرج (مطراوى) إلي عمله واستيقظ (يونس) باكرا وأخذ الجاموسة وذهب بها إلي الحقل في دهشة من (عزيزة) و(لوزة)؛ فـهو غير متعود علي ذلك!

فات أسبوع و(آمنة) ما زالت لم تتحدث مع أحدا مطلقا غير أنها تأكل قليلا بعد محاولات كثيرة كل يوم من (عزيزة)

و(لوزة) معها كي تأكل وبدأت صحتها تتدهور بعض الشيء ونزل وزنها كثيرا وصار وجهها شاحبا ولم تخرج من البناية أو تذهب إلي الحقل بعد.

ذهبت (عزيزة) إلي (فردوس) وسط النهار وراحت تقص عليها عن ما أصاب (آمنة) في وجود (تينة) التي غمغمت مع نفسها بهدوء وقالت:

ـ معقول (يونس) يكون هو سبب ما حصل لـ(آمنة)؟!

اكملت (عزيزة) قائلة:

ـ أنا حاسة أن (آمنة) مسحورة يا (فردوس) حالها تبدّل وشكلها تغيّر واصبحت شخص أخر غير التي كنا نعرفها دائما وكانت الابتسامة لا تفارق وجهها.

رمقتها (فردوس) حزينة وردت:

ـ إذا لأزم نحضر لها (الشيخ فتوح) يقرأ عليها ويقول لنا عن ما اصابها يا (عزيزة).

أومأت (عزيزة) برأسها ايجابا ولم تتفوه (تينة) مطلقا مما أثار دهشة أمها و(عزيزة) معا!

***

وفي فيلا المأمور جلس (عابد) متألقا ليلا مع زوجته وامها يحتسوا الشاي بعد تناول العشاء في البهو, باسمة حدقت له (كارما) وقالت:

ـ اريد زيارة (طنط عزيزة) يا حبيبي لأنها وحشتِني جدا

وأيضا اريد أن اتعرف علي أخوتك (مطراوى) و(آمنة) و(لوزة).

باسمة قالت (فاتن هانم):

ـ وانا ايضا اريد زيارتهم معكِ يا (كارما) لأن (عزيزة) وحشتِني جدا لم أراها منذ فترة.

وهنا وضع (عابد) كوب الشاي من يده وتنهد بقوة ورد:

ـ انا حقيقي اريد زيارة (أبوي) لكني لا اعرف ماذا سيكون رد فعل (أماي) عندما تعرف أني تزوجت دون علمها.

ضمت (كارما) شفتيها وراحت تنظر له غاضبة وقالت:

ـ بالطبع من حقهم يزعلوا منك, لا احد يعامل أهله هكذا يا (عابد)!

وصمت ثلاثتهما لوهلة ثم قال (عابد):

ـ أن شاء الله سأزورهم وحدي قريبا واعرفهم كل شيء وبعد ذلك نزورهم كلنا معا يا (كارما).

أومأت (كارما) وامها برأسهما أيجابا.

***

مساءا حضر (الشيخ فتوح) إلي (آمنة) بصحبة (عزيزة) و(فردوس) في وجود (مطراوى) و(لوزة) وجلس (الشيخ فتوح) بجوار (آمنة) علي السرير ووضع يده علي رأسها وراح يتلو القرآن الكريم مُحدقا النظر في عيناها ثم صمت لوهلة

وازدرد ريقه وصاح مفزوعا:

ـ يا لطيف يا مُنجي من المهالك يا ستار يا رب.

أجفل (الشيخ فتوح) وانتفض جسده وظل يردد هذه الكلمات مُرتعشا ثم تابع متذمرا وقال...

(10)

«صرت أعرف أن الحياة سيئة بما يكفي عندما أذاني من كان أماني وليس من توقعت منه يوما الأذى!»

ـ لا تعاني من أي سحر أو لمس أو حسد.

هكذا قال (الشيخ فتوح) وهو ما زال يحدق إلي (آمنة) بحسرة وحزن وهي راقدة وسط سريرها كزهرة فقدت رائحتها في فصل الربيع, بترقب ردوا جميعهم في نفس واحد:

ـ إذا وما الذي أصابها وبَدلَ حالها هكذا يا (شيخ فتوح)؟!

خفقُ قلب (الشيخ فتوح) وتسارعت أنفاسه وأجاب بهدوء:

ـ ربنا وحده هو العالم بحالها, يا ستار استرنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض عليك يا الله, استرنا يا رب .. استرنا يا رب.

ظلّ (الشيخ فتوح) يردد هذه الكلمات كالممسوس ثم غادر البناية وهو يغمغم مع نفسه مرتعشا:

ـ الستر من عندك يا رب, نخرجُ من هذه الدنيا علي خير وسلام يا رب.

وفي تلك اللحظة, دنا (مطراوى) من (آمنة) ونشج باكيا بقوة وقال مخنوقا بالبكاء:

ـ ارجوكِ يا (آمنة) عرفيني ما حصل معكِ يا حبيبتي

وغيركِ هكذا وأوعدكِ لن أخذلكِ ابدا.

لم تتفوه (آمنة) بـأية كلمة وراحت تنظر له نظرات غير مفهومة لم يفهمها رغم أنه طالما كان يفهم ماذا تريد أن تقول له من نظراتها, لقد صارت (آمنة) شخص أخر لا يعرفه (مطراوى) من قبل.

وفي المساء عاد (يونس) واخبرته (عزيزة) بـكلام (الشيخ فتوح)؛ فـلم يكترث لـحديثها أصلا وكأنه لم يسمع شيء, ثم تجموا جميعا حول الطبلية في الردهة وشرعوا يتناولون وجبة العشاء, وكان (مطراوى) جالسا بجوار أمه لم يمد يده علي لقمة واحدة بعد, وبـعينيه الممتلئة بـالدموع حدق لـأمه وقال:

ـ أدخلي لـ(آمنة) يا (أماي) وحاولي معها تخرج من حجرتها تأكل معنا علّها تخرج من الحالة التي تمر بها الآن وتبدأ تتكلم ولو حتي كلمة واحدة, أرجوكِ يا (أماي) كي يستريح قلبي.

ـ حاضر يا حبيبي.

وهنا نظرت (عزيزة) إلي (لوزة) التي راحت تأكل بنهم وكأنها لم تأكل من قبل قط رغم ما فيه أختها وقالت:

ـ تعالِ معي يا (لوزة).

غاضبة ردت (لوزة) مغتاظة وهي تبلع لقمة عيش:

ـ حاضر يا خالتي.

وفي تلك اللحظات, خفق قلب (يونس) ووضع اللقمة من

يده علي الطبلية أمامه؛ فتلك هي المرة الأولي التي سيري فيها (آمنة) منذ فعلته الملعونة, بخطوات سريعة دخلت (عزيزة) و(لوزة) إلي (آمنة) في غرفتها واقتربت (عزيزة) منها وهي تجلس مكومة وسط سريرها تدفنُ رأسها بين ركبتيها وشعرها الأسود الناعم كالحرير يغطي جسدها وقالت:

ـ تعالِ يا (آمنة) لتأكلِ معنا وأبوكِ يريد أن يطمئن عليكِ يا حبيبتي.

وفي تلك اللحظة عندما سمعت (آمنة) اسم ابيها رفعت رأسها لأعلي وأنسدل شعرها علي ظهرها وبرقت عيناها لأقصي اتساع وحدقت إلي (عزيزة) وارتجف جسدها وراح يرتعش ولم ترد بأية كلمة, وهنا دنت (عزيزة) من (آمنة) وبدأت تساعدها علي الهبوط من السرير ونظرت (عزيزة) إلي (لوزة) وقالت:

ـ ساعديني يا (لوزة).

اسرعت (لوزة) واقتربت منها وحملا (آمنة) معا من سريرها وامسكا بها كل واحدة من ذراع وراحا يسيران بها إلي الردهة, (آمنة) غير قادرة علي السير وكأن قدميها لا تُحملها, وعلي باب غرفتها نظرت (آمنة) في الردهة وهنا رات ابيها وحدقت في عيناه وفي تلك اللحظات, ارتعش جسدها أكثر وراحت تصرخ بقوة صراخات سمعها معظم الجيران, في الحال وثب (مطراوى) من مكانه ودنا من (آمنة) وحضنها بقوة؛ فتعلقت برقبته وشرع يلمس علي شعرها علّها تهدأ وصار

ظهر (مطراوى) في وجه (يونس) وما زالت (آمنة) تنظر لأبيها صارخة حتي سقطت مغشيّ عليها؛ فـحملها (مطراوى) وهي في حالة إغماء كاملة ودلف بها إلي غرفتها ووضعها في سريرها وراح يبكي بجوارها ودخلت أمه خلفه وبدأت تهدئه, وهنا انزوت (لوزة) في ركن الردهة وراحت تحدق لأبيها غضبا وهي تفكر وشرعت تتذكر ما كانت تقوله (آمنة) عن أبيها يبدو أنها فهمت شيء ما الآن, كل ذلك و(يونس) ما زال مكانه لم يحرك ساكنا ولا حتي حاول أن يطمئن علي (آمنة) ظلّ (مطراوى) يطوق (آمنة) بين ذراعيه باكيا حتي أفاقت ونامت علي ذراعيه كـالطفلة التي طالما تبحث عن الراحة والأمان لـتنام.

يا للهول, ظلت (آمنة) تبحث عن الأمان طيلة حياتها لكنها لم تجده بعد حتي بعد أن توهمت أن الأمان سـيكون في زواجها من (مطراوى)!

***

وفي الكهف, كانت النيران مُشتعلة في كل مكان تخرج من عيون كثيرة في أرضية الكهف الرملية وكأنها براكين صغيرة انفجرت نيرانها وطاقتها وبات الكهف كتلة من النار, وبين كل هذه النيران المُشتعلة كانوا الثلاثة رجال ما زالوا جالسين أعلي الثلاث مقابر تحيطهم النيران من كل جانب وسرعان ما اشتعلوا مع النار واختفوا تماما ثم ظهروا من جديد بين النيران, وهنا ظهرت (فتاة الكهف) عارية تماما دون سترتها وجسدها مشتعلا تجر (فتي الكهف) من يديه الأثنين

وسحلته أرضا وراحت تقترب به من النيران التي بداخلها الثلاثة رجال في محاولة أن ترميه معهم وهو ما زال يصرخ عاليا علّها تتركه, حتي تخلص منها بصعوبة في النهاية بعد أن كادت تلتهمه النيران وبعد عنها مسرعا خائفا منها وصاح بـأعلى صوته قائلا:

ـ لماذا تفعلين معي كل هذا, أنا حبيبِك, أنسيتِ ذلك يا حب العمر كله؟!

اقتربت منه وقبضت علي يديه من جديد وراحت تُقبلها باكية وردت:

ـ وأنت أيضا حبيبي الذي طالما انتظرتك أن تظهر في حياتي, سامحني لم أقصد أن أذيك رغم كل الأذى الذي حدث لي.

مدهوشا رمقها وبـنبرة هادئة قال:

ـ تعالِ معي نخرج من هذا الكهف الملعون ونرجع نعيش حياتنا من جديد وننسي كل ما حصل.

وفي تلك اللحظات, نظرت (فتاة الكهف) للسماء المُظلمة في عتمة الليل وراحت تضحك وتقهقه عاليا, ضحكات كادت أن تهدم الجبل علي الكهف وصاحت قائلة:

ـ لقد فات الأوان يا حبيبي.

وهنا بعدت (فتاة الكهف) عن (فتي الكهف) وراحت تركض بسرعة في تلك النار في نهاية الكهف حتي توارت تماما بين

النيران بعد أن اشتعل جسدها تماما, لقد احترقت (فتاة الكهف) في التو واللحظة وراح يصرخ (فتي الكهف) مُناديا عليها بـأعلى صوته علّها ترجع مرة أخري وتستجيب له.

***

مرت الأيام يوما تلو الأخر و(آمنة) ما زالت علي نفس الحالة لم تتكلم عن ما أصابها بعد مع أي مخلوق وصار المنزل مُظلما بـالحزن علي (آمنة) التي طالما كانت لينة حتي في ضحكاتها مع الجميع, تلك الضحكات التي تنير وجهها وتنير العالم أجمع من حولها, انطفأت (آمنة) وانطفأت معها الضحكات وعم الحزن علي الجميع, وفي أحد الأيام دلفت (آمنة) إلي الحظيرة مساءا وجلست أرضا علي القشُ بجوار جاموستها, وهنا مالت الجاموسة بـرأسها علي جسد (آمنة) وراحت (آمنة) تمسح بـيدها علي رقبتها وفرت دموعها علي خديها؛ فـصاحت الجاموسة ونزلت دموعها علي جسد (آمنة) لقد بكت الجاموسة وكأنها تشعر بـكل ما تعيشه (آمنة) من ألم ووجع.

وبين كل هذا الضيق ذهب (مطراوى) إلي «الغابة» ووصل لـجذع الشجرة الذي تعود أن يجلس بجواره وجلس أرضا ساندا ظهره عليه وراح يحدق للسماء حتي زحف الليل وظهر القمر بدرا وهنا صاح (مطراوى) باكيا وقال:

ـ (آمنة).

لقد رأي النجمة (آمنة) قد ظهرت واضحة بجوار القمر, وهنا

ظهر (رجل الغابة) قادما من بين الأشجار الكثيفة وبيده شعلة النار كما تعود أن يظهر, وبنظرة باكية باسما قال (مطراوى):

ـ مرحبا بك يا خليلي, كنت انتظرك, وحشتني قوي.

وهنا دنا (رجل الغابة) من (مطراوى) أكثر ووقف علي بعد أمتار, وبحزن حدق له وقال:

ـ (آمنة) يا (مطراوى).

ارتعش جسد (مطراوى) وبترقب وخوف مرتجفا رد:

ـ ماذا حصل لـ(آمنة) أتوسل إليك قُل لي ما الذي أصابها يا صاحبي؟

كشّر (رجل الغابة) وجهه وغارت عينيه للداخل بين جلد وجهه وأخرج من عيناه شرارات من النار راحت تنتشر في المكان حتي وصلت إلي وجه (مطراوى) وصاح عاليا حتي دوي صوته في «الغابة» كلها:

ـ لقد سال دمها ولم تعد ملكك من الآن, لقد حذرتك مُسبقا أن العشق سيقودك إلي الهلاك وقد أتي الهلاك, الهلاك هو بعدك عن (آمنة) يا (مطراوى).

انزوي (مطراوى) بعيدا عن جذع الشجرة مصدوما مدهوشا لا يفهم أية كلمة من كلمات (رجل الغابة) وصمت للحظات تائها ثم رد:

ـ ماذا تقصد بكلامك الغريب هذا ولماذا تغيّر شكلك لهذا

المنظر المُخيف, أتريد أن تخيفيني مرة أخري مثل أول مرة ظهرت لي فيها أم ماذا؟!

وهنا تواري (رجل الغابة) في التو واللحظة دون أن يرد مجددا بـأية كلمة علي (مطراوى) وثب (مطراوى) من مكانه مسرعا وراح يركض في كل مكان باحثا عنه وصاح بـأعلى صوته قائلا:

ـ أرجوك لا تختفي قبل أن تُخبرني بـكل ما أصاب (آمنة) يا صديقي.

لم يظهر (رجل الغابة) البتة؛ فـعاد (مطراوى) وجلس أرضا ساندا لـجذع الشجرة من جديد وراح ينظر إلي (آمنة) بجوار القمر مرة أخري حتي أدركه النُعاس وأخلد إلي سبات عميق, وفي الصباح استيقظ (مطراوى) ليجد (الرجل القروي) يقف أمامه وهنا حدق له (مطراوى) مدهوشا وسأله:

ـ من أنت وكيف تظهر لي وماذا تريد مني أيها الرجل الغريب؟!

تنهد (الرجل القروي) ورد باسما:

ـ لا تسأل كثيرا, ربما اظهر لك في كل مرة كي أحميك يا (مطراوى).

ـ تحميني من ماذا؟!

بـعينين متسعتين متقدة بـالشرار حدق له (الرجل القروي) وصاح قائلا:

ـ هيا أخرج من «الغابة» الآن ولا تدخلها ابدا مرة أخري ولا تسأل كثيرا أيها العنيد.

وفي تلك اللحظة, شعر (مطراوى) بـالخوف وغادر «الغابة» مسرعا دون النظر خلفه وكأن أحدهم يركض خلفه حتي وصل إلي بنايته في «الواحة» ووجد أمه و(لوزة) يجلسان في الردهة, وهنا سألته أمه:

ـ كنت وين طوال الليل يا حبيبي؟

بدون تفكير رد (مطراوى) سريعا:

ـ كنت مع (آمنة) يا (أماي).

نظرت له أمه و(لوزة) مدهوشتان وردت أمه:

ـ ماذا تقول يا (مطراوى) وكيف كنت مع (آمنة) وهي لم تخرج من غرفتها؟!

صمت (مطراوى) لـجزء من الثانية ثم رد متلعثما:

ـ لا تشغلين بالكِ يا (أماي) يبدو إني أهلوس من قلقي علي (آمنة) ولا أعرف ماذا أقول.

***

مر شهر علي اغتصاب (آمنة) وهي ما زالت علي حالتها لم يحدث أي تغيير, وذات ليلة وبينما يجلسون جميعا في الردهة و(آمنة) في غرفتها دق الباب وفتحت (لوزة) أنه (عابد) أتي لـيزورهم بعد غياب طويل, اقتربت نحوه (لوزة) وراحت تحتضنه وقالت:

ـ (أخوي عابد) وحشتني قوي يا (أخوي).

ـ وأنتِ يا (لوزة) وحشتِني جدا.

ثم دخل (عابد) من الباب, وهنا نهض (يونس) ودنا منه سريعا وتشبث بعنقه وقال:

ـ ابني حبيبي وحشتني يا (عابد بيه).

كل هذا و(عزيزة) و(مطراوى) ما زالا يجلسان أرضا ولم يحركا ساكنا, اقترب (عابد) وصافح أمه باليد؛ فصافحته دون أن تقف ثم دنا من (مطراوى) الذي وقف سريعا وحضن (عابد) وضمه لصدره بقوة وقال (مطراوى):

ـ طمني عليك يا (أخوي).

بعد عنه (عابد) مسرعا ورد ببرود دون اكتراث:

ـ أنا بخير يا (مطراوى).

مقطبة جبينها في استهجان حدقت (عزيزة) إلي (عابد) بغضب وقالت:

ـ كنت عارفة انك زرع شيطاني يا (عابد) ليس عنده أصل مثل أبوك لكن أخر شيء كنت أتوقعه أنك تتزوج بدون ما نعرف.

كشّر (عابد) وجهه وراح يحدق لأمه ساخرا باسما كاد أن يحرقها بنظراته ثم رد بغير اكتراث:

ـ حفل الزفاف كان في «الإسكندرية» يا (أماي) ولم اريد أن

اتعبكم في السفر كل هذه المسافة.

بـوجه ممتقعا ظلت أمه تنظر له معبرة عن رفضها لـكذبه ولئمه واكملت:

ـ طيلة عمرك كذاب ومخادع وعديم الأصل والتربية وتفعل أي شيء كي تصل لما تريده يا (عابد) ومن أجل مصلحتك فقط.

باسما ساخرا راح (عابد) يحدق لـأمه بـغير اكتراث من جديد وراح يتجول في الردهة وتابع قائلا:

ـ نفس النغمة التي تتكلمين بها معي في كل مرة يا (أماي) عموما أنا قُلت لكِ ما عندي وإذا لم تصدقيني أنتِ حرة لا يهمني أمرك أصلا, أنا جئت الآن كي أطمئن فقط علي (أبوي) ليس إلا ولا يهمني أحد هنا أصلا؛ فـلا ترهقيني معكِ في كلام لا يهمني من الأساس.

وهنا دنا (مطراوى) من أمه وراح يطبطب عليها وقبلَ رأسها, وبـنبرة حانية قال (مطراوى):

ـ لا داعي لـهذا الكلام الآن يا (أماي) وعموما مبارك عليك الزواج من بنت المأمور يا (عابد بيه).

بـغضب وكره رمق (عابد) (مطراوى) ولم يرد البتة وتابعت (عزيزة) وقالت:

ـ عندك حق والله يا (مطراوى) لا داعي للكلام مع شخص مثله أصلا.

وهنا خرج (يونس) من صمته بعد أن اقترب من (عابد) وجلس بجواره علي الحصيرة أرضا وقال:

ـ طمني عليك يا حبيبي, أنا فرحان أنك تزوجت بنت سيادة المأمور.

ـ الحمد لله يا (أبوي) أنا سعيد جدا مع (كارما) ونقلت شغلي من «الإسكندرية» إلي «مطروح».

اقتربت (لوزة) من (عابد) وقالت:

ـ مبارك يا (أخوي) اتمني اقابل (كارما) أكيد جميلة وحلوة مثل ممثلات السينما.

ضحك (عابد) عاليا ورد وهو يحدق لـأمه:

ـ (كارما) بنت عادية جدا يا (لوزة) وممكن تسألي خالتكِ (عزيزة) عنها تعرفِها جيدا من وقت ما كانت تخدم عندهم في الفيلا, فاكره يا (أماي) الخدمة في الفيلا أم نسيتِ الخدمة في البيوت يا (عزيزة)؟

وفي تلك اللحظة, اشتعلت (عزيزة) غضبا وأحمر وجهها بشدة وردت في الحال:

ـ نعم فاكره خدمتي في بيوت «الواحة» والفيلا يا (عابد بيه) ولكن اريدك أن تعرف شيء واحدا, أن خدمتي في البيوت هي التي وصلتك لما أنت فيه الآن واصبحت (عابد بيه) ولا نسيت أنت تربيت وتعلمت كيف؟!

وفرت الدموع من عيني (عزيزة) وتابعت باكية وقالت:

ـ أنا خدمت في البيوت بشرفي يا عديم الشرف أنت وابوك.

وراحت (عزيزة) تحدق لزوجها غاضبة وصاحت:

ـ فاهم قصدي يا (يونس) ولا أفهم أنا (عابد بيه) الذي يعايرني بخدمتي في البيوت الآن؟

توتر (يونس) ونظر إلي (عابد) وقال:

ـ كفي يا (عابد) ولا يصح أن تتكلم مع أمك هكذا, هي أمك مهما حصل يا ابني.

وهنا هز (عابد) رأسه ساخرا وتابع ببرود:

ـ في الحقيقة ما زلت لا أعرف من الذي ساعدني بالضبط كي أكمل تعليمي .. (أماي) أم (مطراوى) أم (آمنة).

صمتوا جميعا ولم يرد أحدا عليه وراح (عابد) ينظر حوله في الردهة وقال:

ـ وين (آمنة) ولماذا لا تجلس معكم الآن؟

وهنا نشجت (لوزة) باكية بقوة وراحت تقص عليه حالة (آمنة) الغير مفهومة.

صمت (عابد) للحظة ثم تابع مدهوشا:

ـ وما الذي حصل لها بالضبط؟!

لم يجيبه أحدا, وهنا وثب (عابد) من مكانه ودخل حجرة (آمنة) ووراءه (لوزة) وجدها راقدة علي جنبها الأيمن وسط

سريرها, دنا منها وحدق لها بتمعن وسألها مصدوما:

ـ ماذا بكِ يا (آمنة) وكيف ولماذا اصبحتِ نحيلة وهزيلة هكذا؟!

لم ترد (آمنة) عليه البتة ولم تحرك ساكنا وكأنها لم تسمع ما قاله من الأساس, وهنا دقق (عابد) النظر في عيني (آمنة) ورأي دموعها تفر إلي وجنتيها بهدوء, وبمساعدة (لوزة) اجلساها لتأخذ وضع القرفصاء ودفنت (آمنة) رأسها بين ركبتيها ما زالت تبكي بصمت, ظلّ (عابد) يحدثها ويسألها عن ما أصابها؛ فلم تتفوه بأية كلمة, وهنا خرج (عابد) من غرفتها وخلفه (لوزة) وقال لهم في الردهة:

ـ أنا ممكن أخذ (آمنة) لأكبر طبيب في مصر يكشف عليها ويخبرنا بما أصابها.

بغضب نظرت له أمه وقالت:

ـ ليس هناك داعي أن تتعب نفسك يا (عابد بيه) (آمنة) لا تحتاج إلي طبيب.

لم يرد (عابد) علي أمه واقترب من ابيه واخرج مبلغا من المال واعطاه له وقال:

ـ خذ يا (أبوي) ولو (آمنة) و(لوزة) احتاجوا أي شيء وفره لهم في الحال وفي كل مرة أجئ إلي هنا سأعطيك كل ما تحتاجه كي تعوض أيام الفقر والحرمان والجوع التي عشتها يا (أبوي).

راح (يونس) يرقص فرحا بـما أخذه من (عابد) ورد:

ـ ربنا يبارك لك يا حبيبي ويعطيك من خيراته.

وهنا اقتربت (عزيزة) من زوجها وبـغضب قالت:

ـ لا نحتاج منه أي نقود, نحن مستورين الحمد لله.

صاح (يونس) غاضبا:

ـ هذه النقود من حقي ولن تأخذي منها شيء.

ثم اخرج (عابد) مبلغا من المال ودنا من (مطراوى) وقال باسما:

ـ خذ يا (مطراوى) مثل ما وعدتك من قبل إني سـأدفع لك كل ما صرفته عليّ حتي لا تعايرني أمك في كل مرة تراني فيها إنك ساعدتني لـأكمل دراستي.

نظر له (مطراوى) باسما ورد بهدوء:

ـ لا نريد منك أي نقود يا (عابد بيه) أنا ساعدتك زمان لأنك (أخوي) الذي طالما تمنيت أن يكون لي السند في هذه الدنيا وتمنيت إنك تحبني ولو بـجزء من حبي لك, ساعدتك من أجل الأخوة والدم الذي يجري في عروقنا, عارف الأخوة يا (عابد بيه) للأسف أنت لا تعرف عن الأخوة شيء, اتعرف لماذا؟

وترقرقت عيني (مطراوى) بـالدموع واكمل:

ـ لأنك طيلة عمرك لا تعرف أي شيء عن الحنية يا (عابد بيه) الحنية لا تُباع ولا تُشتري وأنت كل شيء عندك يُباع

ويُشتري, الأخوة والحنية لا تقدر بـثمن وأنت كل شيء عندك بـثمن.

وهنا سالت دموع (مطراوى) أمامهم جميعا ومسك النقود من (عابد) ورمي بها أرضا وخرج مسرعا من البناية, أخذت (لوزة) النقود التي رماها (مطراوى) ونظرت إلي (عزيزة) وقالت:

ـ أخذهم يا الدلعدي يا خالتي؟

صاحت (عزيزة) غاضبة قائلة:

ـ لا نريد منه أي شيء.

أخذ (عابد) النقود من (لوزة) واتجه إلي الباب واسرع ابيه خلفه, وعلي الباب راح (عابد) ينظر لـأمه بـغضب ثم خرج واستقل سيارته وغادر.

وفي نهاية الليل عاد (مطراوى) وقد اخلدوا جميعا إلي سبات عميق إلا (آمنة) كانت تجلس علي أريكة (مطراوى) في الردهة وكأنها تنتظره, اقترب منها (مطراوى) وربتّ علي كتفها وبـنبرة حانية قال:

ـ أخيرا خرجتِ من حجرتكِ يا حبيبتي, اتوسل اليكِ عرفيني ما أصابكِ أنا حبيبِك يا (آمنة) وسـأكون زوجكِ وسـيكون سرنا واحد, أرجوكِ لا تخبئ عني شيء.

فرت دموع (آمنة) من عيناها إلي وجنتيها وحدقت له بـحب وردت متلعثمة:

ـ أنت حبيبي يا (مطراوى).

وهنا دنا منها سريعا وضمها لـصدره لكنها ابتعدت عنه مرتجفة وتابعت باكية:

ـ أنت حُب العمر كله الذي طالما انتظرته ولن اتزوج شخص غيرك مهما حصل يا (مطراوى) أنت ظهرت في حياتي المُظلمة كي تنورها, أنت الوحيد الذي حسيت معه بـالأمان والاطمئنان, عندما تنظر عيوني لك قلبي يرقص في صدري وكأنه يحلق في السماء فرحان واحس إني اتنفس سعادة تجري في عروقي, حُبك هو الهواء الذي اعيش به يا (مطراوى).

وصمتت (آمنة) هنيهة ثم اكملت:

ـ كنت دائما أسأل نفسي, معقول في سعادة لـهذه الدرجة, معقول يكون في حُب هكذا, معقول تكون الدنيا سـتسعدني بعد كل هذا العذاب الذي عشته منذ صغري, أنت طوق النجاة الذي ظهر لي كي ينقذني من عذاب (أبوي) يا (مطراوى).

وهنا حدق لها (مطراوى) باسما وقال:

ـ كلامكِ جميل وحلو يا (آمنة) إذا وين المشكلة ولماذا تبدّلَ حالكِ هكذا؟!

صمتت (آمنة) للحظات وتنهدت بقوة, وبـعينين متسعتين ممتلئة بـالدموع غمرته بـنظراتها ثم ردت:

ـ ما حصل أن الدنيا لا تعطينا كل ما نريده يا (مطراوى)

لا أمان في هذه الدنيا, كنت اعرف جيدا أنها ستغدر بي وتخوني وتخدعني لكني طالما كنت أكذب نفسي وأقول لا, لقد ضحكت لكِ الدنيا وعوضتكِ بـ(مطراوى) يا (آمنة) لكن للأسف كنت مُخطئة لـأنها دائما عودتني علي الغدر منذ صغري, من يوم موت (أماي) وكل ما فعله فيّ (أبوي) منذ طفولتي حتي الآن.

وتنهدت (آمنة) بقوة كادت أن تنفجر رئتيها وتابعت:

ـ اعلم جيدا أنك تحبنِي واريدك أن تعرف إني احبك أكثر من حبك لي مليون مرة ولهذا الحب الطاهر أنا لي طلب واحدا عندك يا (مطراوى) وأرجوك لو حقيقي تحبني كما أحبك نفذ لي هذا الطلب بدون أي نقاش أو جدال حتي لا تتعبني أكثر من تعبي الآن.

بـترقب حدق لها (مطراوى) وخفق قلبه ورد:

ـ كل طلباتكِ أوامر يا (آمنة).

وفي تلك اللحظة, صمتت (آمنة) لوهلة وراحت تنظر للأرض باكية بهدوء ثم ردت متلعثمة في تجهُم...

(11)

«لا أحد يعلم ما أخفيه في قلبي, وجع وخوف من المجهول, ألم وكسرة خاطر, يبدو أن قلبي لن يستطيع أن يتجاوز كسرته, وكأن الحياة أبت أن تسعدني وبدأت تعذبني من جديد بعد ما كنت توهمت انها تصالحت معي, عادت مُظلمة مرة أخري بعد أن أزاحت ظلامها من قبل وبدأت تبتسم لي, كنت واهم عندما اعتقدت أن الحياة ابتسمت لي ونورت في وجهي, مرحبا بكم في الدنيا!»

ـ بدون الخوض في أي تفاصيل وبدون ما تسأل عن السبب, اريد منك أن تنسي حُبنا ونصبح أخوة من الآن.

وثب (مطراوى) من مكانه كالمجنون أو ربما كالمذبوح الذي قُطعت رقبته بسكين بارد وترقرقت عيناه بالدموع وبحزن وحسرة رد:

ـ ماذا تقولين يا (آمنة) وعن ماذا تتحدثين أصلا؟ أنا لا أفهم أي شيء من كل ما يحدث معكِ ولا أفهم ماذا تقصدين بكلامكِ الغريب هذا!

فرت دمعة من عينها علي خدها الوردي وردت (آمنة) بصوت خفيض:

ـ ما سمعته للتو يا (مطراوى) انسي (آمنة) وانسي حبنا وهيا بنا من الآن نصير أخوة, ستكون لي نعم الأخ وسأكون لك نعم الأخت من الآن.

وفي تلك اللحظة, نهض (مطراوى) من مكانه بسرعة ودنا من (آمنة) وقبض بيديه علي كتفيها وراح يهزها بقوة وقال غاضبا:

ـ مستحيل ابعد عنكِ يا (آمنة) ولأزم نتزوج في اقرب وقت, انتِ حُب عمري الوحيد لأزم تعرفيني كل شيء ونجد حل معا ونخرج من هذه المشكلة بهدوء وتأكدي مهما كانت المشكلة عصيبة سأكون سندكِ وفي ظهركِ مهما حصل يا حب العمر كله وسأكون سركِ وأمانكِ.

وهنا تخلصت (آمنة) من يدي (مطراوى) بصعوبة وانزوت ناحية جدار الردهة وهي ما زالت تنظر باكية له وتابعت بصوت متعب قائلة:

ـ تأكد يا (مطراوى) إني احبك أكثر من نفسي وتأكد إني لن اتزوج غيرك لأني لن اتجوز أصلا.

ـ ولماذا كل هذا يا حبيبتي؟! اخبريني بكل ما بداخلك وتأكدي لن اخذلك ابدا يا (آمنة).

وهنا كشّرت (آمنة) وجهها وتحركت من مكانها واستدارت بعيدا عنه وبحدة بعض الشيء قالت:

ـ انتهي الكلام بيننا يا (مطراوى) والزواج قسمة ونصيب وأرجوك أقفل الكلام في هذا الموضوع للأبد لو بالفعل تحبني ومن الآن نحن أخوة ليس إلا.

وفي تلك اللحظات, خلعت (آمنة) الدبلة من يدها ووضعتها علي الأريكة واتجهت إلي غرفتها, أسرع (مطراوى) ولحق

بها علي باب الحجرة ومسك يدها دون أن يتفوه بأية كلمة, راحت تحدق له باكية وتخلصت من يده بصعوبة وأغلقت الباب وجلست علي طرف سريرها تبكي بحرقة وهي تدفن رأسها بين ركبتيها.

أوي (مطراوى) إلي فراشه وظل مُستيقظا طوال هذه الليلة لم يذقْ طعم النوم وكأن فراشه صار مكانا للألم وليس للراحة ومرت عليه هذه الليلة وكأنها ليلة في الجحيم.

وفي الصباح, خرجت (آمنة) من غرفتها ونظرت إلي (مطراوى) حيث كان جالسا وسط أريكته لم ينام بعد وقالت:

ـ صباح الخير يا (مطراوى).

دنا منها وبصوت واهن حزين رد:

ـ ويجئ من وين الخير بعد كلامكِ ليلة البارحة يا (آمنة)؟!

بجمود وحدة ردت:

ـ أرجوك أنسي كل شيء مثل ما قُلت لك ليلة البارحة يا (مطراوى) الزواج قسمة ونصيب يا (أخوي).

صمت (مطراوى) للحظة وكأنه في كابوس ثم قال:

ـ صرتي تقولي لي يا (أخوي) بعد ما كنت حبيبكِ يا (آمنة).

بقلب متقطع من الألم والحزن والكسرة ردت:

ـ هذا هو انسب تعبير بيننا من الآن يا (مطراوى) لأنك فعلا صرت (أخوي).

وهنا اتجهت (آمنة) إلي الحظيرة وخرجت بـالجاموسة متجهة إلي الحقل باكرا, وبعد دقائق خرجت (عزيزة) و(لوزة) إلي الردهة وأخبرهما (مطرواى) بـطلب (آمنة) ليلة أمس وهو أن يبعد عنها وأنها خلعت دبلته من يدها وراح يشير بـسبابته للدبلة بجواره علي وسادته, وأخبرهما أيضا بـخروجها إلي الحقل منذ قليل, حدقت له أمه مدهوشة وقالت:

ـ وكيف (آمنة) تقول لك هذا الكلام الغريب ولماذا؟!

رد (مطراوى) بـحزن وكسرة:

ـ لا أعرف يا (أماي) حقيقي صرت لا افهم أي شيء ولا أعرف أي شيء من كل ما يحدث معي يا (أماي)! أتفهمين أنتِ أي شيء من كل هذا يا (أماي)؟!

هزت أمه رأسها في أشاره أنها لا تفهم أي شيء من كل ما يحصل من (آمنة).

وهنا حدقت (لوزة) إلي (مطراوى) ساخرة وقالت باسمة وهي تتراقص بـوسطها المنحوت داخل ملابسها الضيقة والتي قسمته كـالغزية:

ـ المهم أن (آمنة) رجعت طبيعية مرة أخري يا خالتي وخرجت من البيت وعموما الزواج قسمة ونصيب يا (مطراوى) وأصلا من البداية أنت غير مناسب لـ(آمنة) لكن ماذا كان بـأيدينا, (خالتي عزيزة) وقفتِ ضد (أبوي) لـيوافق علي زواجكم وتحدت الجميع وحتي (عابد بيه أخوي) لم

يكن موافق علي هذا النسب, الحمد لله أن (آمنة) بعدت عنك يا (مطراوى) خاصة بعد ما صار (عابد بيه أخوي) في وظيفة كبيرة وصرت أنت غير مناسب لنسب أخته يا (مطراوى) ولا تزعل يا (مطراوى) أن شاء الله ربنا يعوض عليك ببنت مناسبة لك.

غاضبة صاحت (عزيزة) وقالت:

ـ اخرسي يا (لوزة) يا ملعونة مثل أبوكِ وأخوكِ.

ضحكت (لوزة) وقهقهت عاليا وردت:

ـ حاضر يا خالتي.

وهنا خرج (يونس) من غرفته, اقتربت منه (لوزة) ما زالت باسمة واخبرته بما قالته (آمنة) لـ(مطراوى) صمت (يونس) تماما ولم يتفوه بأية كلمة مما أصاب ثلاثتهما بالدهشة! لم يخرج (مطراوى) لعمله هذا اليوم وذهبت أمه إلي الحقل وجلست مع (آمنة) بجوار الجاموسة التي شرعت تأكل بنهم وكأنها سعيدة برجوع (آمنة) إلي الحقل مرة أخري وقالت (عزيزة) متذمرة:

ـ ما هذا الكلام الغريب الذي سمعته من (مطراوى) يا (آمنة)؟!

راحت (آمنة) تتجول بنظراتها في مكان اغتصابها وارتجف جسدها عندما تذكرت جسد ابيها يعلو جسدها يلتهمه كالخنزير, وبوجه ممتقعا ردت:

ـ هذا ما يجب أن يحصل يا خالتي وأرجوكِ نقفل الكلام في هذا الموضوع وإلا ورحمة (أماي) أهج من «الواحة» كلها ولا يعرف أحد لي طريق.

وهنا نشجت (آمنة) باكية بقوة حتي علا نحيبها في المكان, اقتربت منها (عزيزة) وطوقتها بين ذراعيها وقالت:

ـ لهذه الدرجة يا بنتي, أهدئ يا (آمنة) وعلي راحتكِ والزواج قسمة ونصيب, لله الأمر من قبل ومن بعد.

وهنا بكت (عزيزة) وتابعت قائلة:

ـ يا حسرتي عليك وعلي بختك الحزين يا (مطراوى) يا ابني.

عادت (عزيزة) إلي البناية وأخبرت (مطراوى) بكل ما حدث بينها وبين (آمنة) وطلبت منه البعد عنها مؤقتا علّ ترجع لصوابها قريبا.

***

رجعت (آمنة) لحياتها الطبيعية وصارت تذهب بالجاموسة للحقل كل يوم في الصباح ومعها غذائها كي لا تأتي في منتصف النهار وتعود مساءا وكأنها ارادت أن تعتزل العالم أجمع, لم يعد (يونس) يذهب للحقل مجددا, (تينة) رأت (آمنة) قد تحسنت وذات يوم بعد أن تأكدت من خروجهم جميعا طرقت الباب وفتحت لها (لوزة)؛ فدلفت سريعا وجلست علي الأريكة وسألت (لوزة) عن صحة (آمنة) مؤخرا, بضيق حدقت لها (لوزة) واخبرتها أنها صارت بخير كما

أخبرتها بـفسخ خطوبة (آمنة) و(مطراوى) وهنا شعرت (تينة) بـالغبطة والسرور وكأنها كانت تنتظر هذا الخبر وغادرت البناية, واتصلت (لوزة) بـ(عابد) واخبرته بـفسخ خطوبة (آمنة)؛ فـأستقبل الخبر بـسعادة أيضا.

***

الشمس علت السماء صارت حارقة وقت القيلولة وسرعان ما استظل (مطراوى) تحت شجرة عالية علي رأس الحقل الذي يعمل به هذا اليوم, جاءت (تينة) وجلست بجواره أرضا حدق لها مدهوشا وسألها:

ـ لماذا جئتِ إلي هنا الآن يا (تينة)؟!

صمتت (تينة) البتة وراح (مطراوى) يحرك الفحم حول براد الشاي وكرر عليها سؤاله:

بـتورد زائد في وجهها ردت:

ـ أنا عرفت بـكل ما حصل بينك وبين (آمنة) وأنها بعدت عنك يا (مطراوى).

التفت إليها غاضبا وقاطعها قائلا:

ـ ولا كلمة أخري وهيا امشي من هنا وإلا احرقتكِ بـهذا الفحم.

فرت الدموع من عيناها ووثبت من مكانها مفزوعة من رد فعل (مطراوى) وغادرت سريعا, وفي الطريق اثناء عودتها لـبنايتها قابلت (يونس) واعطته ما تبقي من المال حسب

الاتفاق المُبرم بينهما دون الخوض في أي تفاصيل حتي أنها لم تسأله عن ما فعله كي يبعد (آمنة) عن (مطراوى) وغادرت المكان حزينة مما فعله معها (مطراوى).

يا لها من أفعي ملعونة قد انجزت مهمتها بـهدوء دون أن يعرف أحد بـأي شيء!

«لا تأمن لـجميع الناس من حولك ولا تتعامل مع الجميع بـحسن نية, كن حذر وتوقع الغدر من أي شخص وفي أي وقت دون سابق انذار مهما كانت صلتك بـهذا الشخص, إنها الدنيا لم نعد نستغرب حدوث أي شيء فيها!».

***

كانت «الواحة» هادئة هذه الليلة بعد منتصف الليل وقد عمَ السكون, وداخل البنايات غرق كل أهل «الواحة» في سبات عميق, اختفي القمر وكان الظلام داكن عاتم لا تستطيع أن تري كف يديد أمامك, وعلي أول طريق «الغابة المهجورة» ظهر شعاع من النور قادما من بين الأشجار التي راحت تتراقص بـهدوء مع نسمات الهواء, ظل شعاع النور يظهر أكثر وأكثر حتي ظهرت تحمل بـيدها شعلة من النار وراحت تضحك تلك الضحكات التي دوت في السماء .. انها (فتاة الكهف) بـزيها الأسود وشعرها الذي يغطي وجهها وظهرها, راحت تتقدم أكثر نحو «الواحة» حتي صارت تمشي في شوارعها تنظر للبنايات حولها مُتعجبة تفكر وكأن هذه الشوارع والبنايات تُذكرها بـشيء ما! وهنا برقت عيناها وراحت شرارات من النار تخرج من بين شعرها الكثيف

المُغطى وجهها تماما وحدقت تحت قدميها وركضت مسرعة في الشوارع, تقف أحيانا تلتفت حولها في كل مكان وكأنها لا تريد أن يراها أحد ثم تعاود الركض من جديد حتي وصلت بناية (مطراوى) وقفت أمامها لـدقائق تحدق حزينة ثم وثبت في التو واللحظة أعلي البناية وأشعلت النيران بسرعة البرق في البناية كلها ثم شرعت تضحك من جديد تلك الضحكات المُخيفة وهي تقف في الهواء أعلي البناية المُشتعلة ثم صرخت بـكل قوتها صرخة كادت أن يسمعها أهل «الواحة» جميعا لولا أنهم في سبات عميق الآن وقفزت في النار صارخة, وفي تلك اللحظات استيقظت (آمنة) من نومها صارخة واستيقظت (لوزة) بجوارها علي صراخها وظلت (آمنة) تصرخ بـأعلى صوتها قائلة:

ـ ابعدوه عني وابعدوا هذه النار عني, كل شيء لأزم يولع ويحترق مثلي لقد ولعت واحترقت وانتهت حياتي.

وهنا اقتربت منها (لوزة) وضمتها لـصدرها وراحت تهدئها وربتّت علي يدها بـقوة, وفي تلك اللحظات, دلف للحجرة (مطراوى) وأمه بعد أن استيقظا علي صراخ (آمنة) دنا (مطراوى) من (آمنة) في محاولة أن يحضنها ويضمها إلي صدره لكنها ابتعدت عنه مسرعة وبـنظرات غضب كادت أن تحرقه حدقت (آمنة) في عيني (مطراوى) وقالت باكية منتحبة:

ـ ابعد عني واخرج من هنا, ابعدوا عني واخرجوا من هنا كلكم لأزم تولعوا وتحترقوا مثلي لقد ولعت واحترقت.

وشرعت (آمنة) تضرب جسدها وتقطع ملابسها إلا أن (عزيزة) و(لوزة) سيطرا عليها تماما قبل أن تأذي نفسها, وراحوا جميعا يحدقون لها مدهوشين مُتعجبين مما تقول وخرج (مطراوى) من الحجرة ووقف علي بابها وظل يحدق إلي (آمنة) باكيا, وهنا اقتربت (عزيزة) من (آمنة) وضمتها لـصدرها وربتّت علي رأسها وشرعت تقرأ القرآن الكريم لـدقائق حتي هدأت (آمنة) تماما وراحت تتمتم بـكلمات غير مفهومة وأخلدت إلي النوم علي صدر (عزيزة) حتي الصباح ونامت (لوزة) أرضا علي هذه الحصيرة بجوار السرير.

***

مر شهرين علي اغتصاب (آمنة) واصبحت صحتها في حالة غير متزنة لم تعُد تُقبل علي الطعام كما أنها صارت تشعر دائما بـالدوار والغثيان كثيرا والشعور بـحالة إعياء في الجسم, قلقت من هذه الأعراض وقررت الذهاب إلي الطبيب لـتطمئن علي نفسها دون أن تُخبر أحدا البتة, وذات يوم خرجت في الصباح بـجاموستها مُتجهة إلي الحقل ووضعت لها البرسيم كفايتها طوال النهار وغادرت الحقل واستقلت سيارة الأجرة من «الواحة» إلي «سيوة» وصلت الوحدة الصحية قبل صلاة الظهر ونادي علي اسمها ودخلت إلي الطبيب, وبعد الانتهاء من الكشف الطبي عليها رمقها الطبيب باسما وقال:

ـ مبارك حامل شهرين وبدأتِ في الثالث يا (مدام).

وفي تلك اللحظات, شعرت (آمنة) بـالدوار وسقطت مغشيّ عليها؛ فـحملها الطبيب بـمساعدة الممرضة ووضعاها علي

السرير وبعد دقائق أفاقت وسألها الطبيب:

ـ أنتِ متزوجة؟

نهضت مسرعة وهبطت من السرير وجسدها يرتجف وردت متلعثمة:

ـ نعم يا (بيه) أنا متزوجة.

ـ إذا لماذا زعلتِ عندما عرفتِ بـخبر حملكِ؟!

ـ لأن زوجي لا يريد أطفال الآن يا (بيه) العيشة صعبة وحالنا يصعب علي الكافر.

ـ لا تقلقين الرزق من عند الله, المهم حافظِ علي صحتكِ وتغذي جيدا لأنك ضعيفة جدا وتحتاجين تغذية جيدة حتي لا تتعبين ويأثر ذلك علي صحتكِ وعلي صحة الجنين.

ـ أن شاء الله يا (بيه).

وغادرت (آمنة) الوحدة الصحية ووصلت الحقل في «الواحة» بعد العصر وجلست بجوار الجاموسة وعيناها تطلق دموعها حائرة لا تعرف ماذا ستفعل في هذه المصيبة الكبرى؟ ومع الغروب وقد شرعت الشمس تتواري رويدا رويدا حزينة, عادت (آمنة) إلي البناية وأدخلت الجاموسة في الحظيرة ودلفت غرفتها سريعا وجلست وسط سريرها باكية, وهنا دخلت عليها (لوزة) ونظرت لها وسألتها:

ـ لماذا تبكين من جديد يا (آمنة)؟

ـ أنا بخير يا (لوزة).

لم تذق (آمنة) طعم النوم طوال هذه الليلة, وفي الصباح ذهبت إلي الحقل بـالجاموسة كالعادة ولم تظهر لأي شخص أي شيء وظلت تفكر طوال النهار وعادت إلي البناية في المساء وتناولت العشاء معهم جميعا ماعدا (يونس) لم يكن موجود, جلست (آمنة) بجوار (مطراوى) ناظرة للأرض وعيني (مطراوى) لم تفارقها البتة؛ فـفرت مسرعة من نظراته الثاقبة الحزينة وهربت إلي حجرتها, وهنا ترقرقت عيني (مطراوى) بـالدموع ولاحظت أمه و(لوزة) دموعه وراحت (لوزة) تبتسم ساخرة منه, وبعد منتصف الليل عاد (يونس) اسرعت (آمنة) وخرجت من غرفتها حيث كانت تنتظره وقابلته في الردهة متلعثمة بـتوتر قالت هامسة حيث كان (مطراوى) غارق في نومه علي الأريكة في الردهة بجوارهم الآن:

ـ اريدك في أمر مهم وخطير جدا.

حدق لها أبيها مدهوشا؛ فـتلك هي المرة الأولي التي تتحدث معه منذ هذا اليوم الملعون الذي اغتصبها فيه ورد:

ـ وماذا تريدن مني الآن أصلا؟!

ـ سـأنتظرك غدا في الأرض وسـأعرفك كل شيء.

متوترا قلقا ازدرد (يونس) ريقه وأومأ بـرأسه أيجابا ودلف لـغرفته ودخلت (آمنة) غرفتها واستلقت بجوار (لوزة) التي سمعت حديثها مع ابيها للتو وهي تقف خلف الباب تتنصّت عليهما, ظلت (لوزة) تفكر طوال هذه الليلة عن ماذا يكون

بين (آمنة) وابيها ولماذا طلبت منه (آمنة) أن تتحدث معه في الحقل وحدهما بعيدا عن المنزل, وهنا تذكرت كل ما قالته لها (آمنة) عن ابيها سابقا, ارتجفت واعتدلت علي سريرها وغمغمت:

ـ استر يا رب, معقول يكون (أبوي) سبب الحالة التي أصابت (آمنة)؟!

وفي اليوم الموالي, ذهب (يونس) إلي الحقل, وفي الطريق قابل (النمروس) الذي وقف أمامه مُترنحا وحدق له غاضبا وصاح قائلا:

ـ دم (آمنة) في رقبتك يا ملعون.

ارتعش (يونس) من كلمات (النمروس) وغادر المكان بسرعة دون أن يرد عليه بـأية كلمة وراح يغمغم:

ـ وكيف عرف هذا المجنون بـما حدث لـ(آمنة) مني؟!

وصل (يونس) الحقل وجلس مع (آمنة) وحدق لها بـترقب وسألها:

ـ أتريدين أن تقتليني أم ماذا يا (آمنة)؟!

بـكره وغل رمقته وردت بـحدة:

ـ بصراحة اتمني أن أقتلك لكن ليس لدي القدرة الكافية كي افعل ذلك, من صغري وأنت تقتلني في كل يوم تطلع فيه الشمس لم أري منك إلا العذاب طيلة عمري, عاملتني وكأني لست بنتك.

وصمتت (آمنة) للحظة ثم تابعت وقالت:

ـ عندي سؤال واحد وارجو أن تجاوبني عليه, أنا بنتك فعلا أم بنت حرام؟! يا رب أكون بنت حرام كي اتخيل واتقبل ما فعلته بي لأني مستحيل أتخيل أن هناك أب من الممكن أن يفعل مع بنته ما فعلته معي!

صمت (يونس) تماما وصمتت (آمنة) للحظات بعد أن تأكدت أنها ابنته ثم تابعت باكية:

ـ لماذا ذبحتني ولماذا حرمتني من (مطراوى)؟! حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

وفي تلك اللحظات, نشجت (آمنة) باكية وعلا صوت بكائها ونحيبها ونظرت علي مرمي بصرها في الحقل ثم هدأت قليلا وتنهدت بقوة وقالت:

ـ أنا حُبلي منك يا (أبوي).

وهنا وثب (يونس) من مكانه مفزوعا وارتعش جسده وقال:

ـ ماذا تقولين؟ مستحيل يكون حصل ذلك!

ـ للأسف حصل يا (أبوي) قل لي اتصرف كيف الآن؟

صمت (يونس) للحظات شاردا ثم خرج من صمته وقال:

ـ لأزم تسقطي الجنين من بطنك دون أن تخبري احد بـأي شيء وإلا سـأقتلكِ وأدفنكِ دون أن يعرف أحد, فهمتِ؟.

ـ وكيف افعل هذا واسقط ما في بطني؟

ـ سأحضر لكِ دواء في أقرب وقت قبل أن تعلو بطنكِ وتنتفخ ويُفضح أمركِ في «الواحة» كلها.

صمتت (آمنة) وراحت تحدق له باكية ودموعها تسيل علي وجنتيها كالغيث المُنفجر من سحب مُلتهبة وغادر (يونس) الحقل.

وفي المساء, جلس (يونس) مع (مهدي) في المقهى وشرعا يدخنان السجائر المحشوة بالحشيش وقال (يونس) وهو يخرج الدخان من فمه وأنفه:

ـ اريدك أن تساعدني في أمر مهم وخطير يا (مهدي) علي أن يكون هذا الأمر سر بيننا.

نظر له (مهدي) بتمعن ورد:

ـ أنت تأمر يا (يونس) انت صديقي و(أخوي).

صمت (يونس) لجزء من الثانية ثم قال:

ـ أنا أخطأت مع بنت هنا في «الواحة» وهي الآن حُبلي مني واريد أن اتخلص من الجنين ولكن لا أعرف كيف؟

حدق له (مهدي) مدهوشا مصدوما وهو يخرج الدخان من أنفه وفاه بشدة ورد بحدة:

ـ لماذا فعلت هذا في بنات الناس يا (يونس) أنت عندك بنتين, ألم تخاف أن يُفعل بهما ما فعلته مع هذه البنت؟!

غضب (يونس) بشدة ورد بحدة:

ـ لا اريد منك نصائح الآن, كل ما اريده أن تساعدني كي نسقط الجنين.

صمت (مهدي) لـدقائق يفكر وهو ما زال يدخن الحشيش ثم قال:

ـ طالما كنت اسمع من جدتي زمان وأنا طفل أن المرأة لو شربت قليلا من مبيد دودة القطن سـيسقط الجنين من بطنها بدون ما يصيبها أي مكروه.

حدق له (يونس) بـترقب وقال:

ـ أنت عبيط يا (مهدي) هذا المبيد سام وقاتل وأنا لا اريد أن اقتلها, أنا فقط اريد أن اسقط الجنين قبل أن تعلو بطنها ويُفضح أمرها في «الواحة».

ضحك (مهدي) ساخرا وبـوجوم أردف:

ـ أنا قُلت لك تشرب كمية قليلة فقط, ركز معي يا (يونس).

ـ لكني أخاف عليها أن تموت يا (مهدي).

ـ لن تموت يا (يونس) لو شربت كمية قليلة وعليك أن تحضر لها كمية قليلة من المبيد حتي لا تشرب منه كثيرا.

ـ ربنا يستر يا (مهدي).

وفي اليوم الموالي, أحضر (يونس) كمية قليلة من مبيد دودة القطن وذهب إلي الحقل, كانت (آمنة) تضع البرسيم للجاموسة دنا منها وراح ينظر لها بـتوتر وقال متلعثما:

ـ لقد أحضرت لكِ الدواء يا (آمنة) أشربيه الآن وخلال أيام سيسقط الجنين وكأن شيء لم يكن.

أخذت (آمنة) زجاجة الدواء منه دون أن يخبرها أنه مبيد دودة القطن وغادر (يونس) الحقل دون أن يتفوه مجددا.

وقت القيلولة تناولت (آمنة) غذائها وحدها لا يوجد أحدا في جميع الحقول حولها إلا جاموستها علي مربطها وهذه «اليمامة» التي تعودت تقف علي فرع الشجرة المجاورة وتلقي لها (آمنة) دائما قطع العيش الصغيرة؛ فتتناولها وتقف مرة أخري علي فرع الشجرة, فتحت (آمنة) زجاجة الدواء وشربتها كاملة واستلقت داخل الحجرة وغلبها النُعاس وما هي إلا دقائق استيقظت علي...

(12)

«طالما كنت اعتقد أنه عندما لا أذي أحد لن يؤذيني أحدا, كنت واهم لأن كل الأذى كان من أقرب الناس, لماذا كل هذا يحدث لي يا رب؟! لقد قُلت في كتابك الكريم «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» لكن ما يحدث لي فوق طاقتي نعم فوق طاقتي, اشكو لمن وأتصرف كيف؟ اشكو (أبوي) لك ام اشكوك أنت لك يا رب, أنا اشكو ربنا لربنا علي هذا القدر والنصيب!»

نشجت (آمنة) باكية عاليا من ألم شديد بالجزء السفلي من بطنها بعد أن أفاقت من غفوتها وراحت تحدق بين فخذيها وبنفاذ صبر قالت:

ـ أنزل الآن حتي ارتاح من كل هذا, انزل حتي اتخلص من عاري وفضيحتي.

مرت الدقائق علي (آمنة) كالسنوات من شدة الألم وزاد الألم أكثر, وهنا وثبت من مكانها كالدجاجة المذبوحة واقتربت من جاموستها وهي تتلوي من الألم والوجع, نظرت لها الجاموسة وصاحت عاليا وكأنها تستنجد بأي شخص ينقذ (آمنة) الآن ولكن هيهات هيهات أن يظهر أحدا الآن, وراحت (آمنة) تدور حول الجاموسة في كل مكان علّ يسقط الجنين من رحمها الآن حتي راتها «اليمامة» من أعلي الشجرة؛ فهبطت «اليمامة» واقتربت من (آمنة) وشرعت تطير حول رأسها وكأنها أرادات أن تخفف عنها الوجع والألم, تمكن الألم

من (آمنة)؛ فدلفت الحجرة واستلقت علي بطنها تأكل من القش المفروش أرضا وهي تتحرك يمينا ويسارا تشعر وكأن سكاكين تقطع أمعائها, لقد تمكن السم منها وظلت هكذا تدعي ربها أن يسترها حتي دخلت ورائها «اليمامة» وراحت تقف علي جسدها ثم تطير من جديد, فاتت ساعة علي (آمنة) هكذا كادت أن تفقد الوعي وباتت لا تحرك ساكنا.

وفي هذا التوقيت, كان (مطراوى) يجلس تحت ظل شجرة يتناول غذائه ويسوي الشاي علي الفحم, خفق قلبه بشدة وشعر بالضيق والخنقة في صدره, وفي تلك اللحظات رأي (النمروس) علي مرمي بصره قادما من بعيد يسير مُسرعا هذه المرة؛ فحدق له (مطراوى) مدهوشا لأنه لم يعهده يسير بهذه السرعة؛ فهو يمشي ببطء شديد ودنا منه (النمروس) وصاح لاهثا حزينا وقال:

ـ (آمنة) تبكي في الأرض يا (مطراوى) انقذها قبل فوات الأوان.

نهض (مطراوى) من مكانه وركض سريعا إلي الحقل تاركا (النمروس) مكانه حتي وصل الحقل ليجد (آمنة) قد استلقت علي بطنها تماما تدفن رأسها أرضا تبكي من شدة الألم وبدأت تتقيأ إفرازات من فاها وجاموستها تمد رأسها داخل الحجرة تحرك في رأس (آمنة) بعد أن قطعت حبالها واقتربت منها, جلس (مطراوى) بجوار (آمنة) وحاول أن يجلسها لكنها لم تستطيع الجلوس البتة واستلقت علي بطنها مرة أخري, وبصوت واهن باكية قالت (آمنة) متلعثمة:

ـ خذني للمستشفى بسرعة يا (مطراوى).

حدق لها مدهوشا وبوجوم سألها وجسده ينتفض من الخوف عليها:

ـ ماذا حدث لكِ يا حبيبتي.

بطرف عينيها رمقته وردت:

ـ ليس هناك وقت للكلام الآن يا (مطراوى) خذني للمستشفى ارجوك.

وفي تلك اللحظة, ربط (مطراوى) الجاموسة مكانها ثم حمل (آمنة) علي ذراعيه؛ فتشبثت بعنقه بقوة وباتت كطفلة صغيرة بين أحضانه وراح يركض بها بين الحقول كالمجنون حتي وصل إلي أول الطريق ووجد رجلا من «الواحة» يمتطي حماره؛ فوضع (آمنة) خلف هذا الرجل علي الحمار حتي وصلوا إلي موقف السيارات واستقلا (مطراوى) و(آمنة) سيارة سريعا إلي «سيوة», وظل يطوقها بذراعيه وهي ما زالت تتألم محدقة في عيناه وقالت برجفة في صوتها:

ـ خذني في حضنك يا (مطراوى) سامحني لو كنت زعلتك في أي شيء, كان غصب عني والله يا حبيبي, ضمني لصدرك حاسة أني بردانة خذني في حضنك ودفيني.

راح (مطراوى) يضمها أكثر وهي ما زالت تحدق بتمعن في عيناه وقال:

ـ عرفيني كل ما حصل معكِ يا حبيبتي واوعدكِ لن اخذلكِ ابدا مهما كان يا (آمنة).

لم ترد مجددا وراحت ترمش وكأنها ستفقد الوعي, وهنا صرخ (مطراوى) عاليا وقال:

ـ رد عليّ يا (آمنة).

لكنها لم ترد حتي وصلا المستشفى وكشف عليها الطبيب جيدا ثم قال:

ـ حالة تسمم.

اسرع الطبيب بعمل الإسعافات لـ(آمنة) و(مطراوى) خارج غرفة الكشف حتي خرجت الممرضة وأخبرت (مطراوى) أن (آمنة) تريده؛ فدخل سريعا ودنا منها وأصبحا وحدهما وهنا نظرت له محدقة وبهدوئها المعهود قالت:

ـ قرب مني يا (مطراوى) خذني في حضنك وأمسك يديّ قوي.

حضنها بقوة وراح يمسح دموعها ويلمس بيديه علي رأسها دون أن يتكلم وتابعت (آمنة) قائلة:

ـ حضنك دافئ يا (مطراوى) كم تمنيت هذا الحضن, لم اكن اريد أي شيء في الحياة سوي حضنك وأن تكون زوجي يا حبيبي.

وهنا ترقرقت عيني (مطراوى) بالدموع ورد:

ـ ستعيشين يا (آمنة) وسنتزوج ونخلف صبيان وبنات,

أرجوكِ تمسكِ بـالدنيا أكثر من ذلك لا تتركيني وحدي يا حبيبتي أنتِ حبي الأول والأخير يا (آمنة).

وهنا قبضت (آمنة) علي يدي (مطراوى) بقوة وراحت تقص عليه كل ما حدث منذ وقت اغتصابها من أبيها حتي هذه اللحظة الآن, راح (مطراوى) يضمها أكثر وأكثر وهو لا يصدق كل ما يسمع من شدة الصدمة لولا أنه يعرف (آمنة) جيدا ومتأكد أنها لا تكذب في حرف واحد, تنفس (مطراوى) الصعداء وقال باكيا:

ـ ليس مهم كل هذا الآن يا (آمنة) المهم أن ترجعي لـصحتك وسـنتزوج ونغادر «الواحة» ونعيش في أي مكان بعيد عنها.

ـ لا يا (مطراوى) اريد أن أموت الآن, لا اريد أن يعرف سري أي شخص ويقول أني حَبلت من (أبوي) الموت رحمة وستر لي يا (مطراوى).

ـ لا تتحدثين هكذا يا (آمنة) لن يعرف سركِ احدا ابدا وسـنتزوج وكأن لم يحدث أي شيء.

صمتت (آمنة) لـجزء من اللحظة ثم أكملت متلعثمة:

ـ أوعدني يا (مطراوى) أن لا تخبر احدا مهما حصل بـسري, اريد أن أموت ويموت سري معي ولا يعرف أحدا سري غيرك يا حبيبي.

ـ لا يا (آمنة) أرجوكِ تمسكي بـالدنيا أكثر من ذلك, أرجوكِ لا تموتي وتتركيني وحدي يا حب عمري كله.

وهنا فرت دموع (آمنة) إلي وجنتيها وشاعت ابتسامة ساحرة علي وجهها؛ فحدق لها (مطراوى) وتابع:

ـ أجمل ابتسامة في حياتي كلها هي ابتسامتكِ يا (آمنة) أرجوكِ لا تحرميني منها وكفي دموع وبكاء.

بصوت مُتقطع مُتهتِهة ردت (آمنة) بصعوبة:

ـ أنا ابكي الآن لأني سأفتقد وجهك يا (مطراوى) وابتسم الآن لأن وجهك سيكون أخر وجه رايته في هذه الدنيا يا (مطرواى).

وهنا بدأت (آمنة) تفقد الوعي وتدخل في حالة من الإغماء ونظرت لسقف الغرفة وصارت تتنفس بصعوبة ولم تتفوه مجددا, صرخ (مطراوى) بأعلى صوته الذي دوي في المستشفى كلها وصاح قائلا:

ـ لا يا (آمنة) لا تتركيني وحدي يا (آمنة) ارجوكِ انظري إليّ يا (آمنة) ولا تموتين.

وفي تلك اللحظات, دخل الطبيب عليهما سريعا رفعت (آمنة) سبابتها للسماء ونطقت الشهادة وخرجت روحها تاركة جسدها جثة هامدة بين أحضان (مطراوى) الذي صار يصرخ كالمجنون بكلام كثير غير مفهوم كطير ذُبح بسكين حاد الآن, اقترب منه الطبيب وربتّ علي كتفه وقال:

ـ البقاء لله, تسمم بمبيد حشري وغالبا مبيد دودة القطن من رائحته, أنت جئت بها متأخر جدا بعد أن وصل السم إلي

الدم وتمكن منها.

ماتت (آمنة) وأمر الطبيب بعمل محضر بالواقعة وأدخل (آمنة) ثلاجة الموتى وتم التحفظ علي (مطراوى) بمخفر شرطة المستشفى, كان بالمستشفى في هذا التوقيت أحد رجال «الواحة» الذي رأي جثة (آمنة) وما حدث مع (مطراوى).

وبينما كانت الشمس بدأت ترحل رويدا رويدا وزحف الظلام بهدوء علي «الواحة» كانت (عزيزة) في الردهة مع (يونس) ينتظران مجيء (آمنة) من الحقل وقد أصابهما التوتر والقلق نظرا لتأخيرها هذا اليوم؛ فهي لم تتعود علي التأخير هكذا وراح (يونس) يغمغم بهدوء:

ـ يا رب تكون سقطتِ حتي ننتهي من هذا الموضوع المزعج.

وصل الرجل الذي رأي ما حدث في المستشفى إلي بناية (عزيزة) في «الواحة» وطرق الباب عدة مرات حتي فتحت (لوزة) ودخل سريعا, وبوجه شاحب نظر لهم وقال:

ـ (آمنة) ماتت.

وهنا صرخت (عزيزة) و(لوزة) وتجمع الجيران وحكي لهم هذا الرجل ما راه في المستشفى وراح الجميع يبكي ويصرخ إلا (يونس) صمت البتة وانزوي في ركن الردهة وجلس أرضا ساندا ظهره لجدارها ولم تسقط دمعة واحدة من عيناه, وما هي إلا أقل ساعة ووصلوا جميعا إلي المستشفى

ومعهم (تينة) وأمها, اخبرهم الطبيب بكل ما حدث والسبب في موت (آمنة) وعرفت (عزيزة) بالقبض علي (مطراوى) وهنا لطمت الخدود, وصل الطبيب الشرعي للكشف علي الجثة واتصلت (لوزة) بـ(عابد) وهي تنشج وتبكي بقوة واخبرته بكل شيء وهنا راح (عابد) يبكي بحرقة ودخلت عليه زوجته وراته هكذا؛ فحدقت له مدهوشة من بكائه وأخبرها بموت (آمنة) مرت نصف ساعة ووصل (عابد) إلي المستشفى واقتربت منه أمه باكية وقالت:

ـ (آمنة) ماتت مسمومة وأخوك مُتهم يا (عابد) انقذ أخوك من أجل خاطر أمك, أنت تعلم جيدا أن (مطراوى) كان يعشق (آمنة) ومن المستحيل أن يؤذيها أو يضرها أو يسبب لها أي أذي يا (عابد).

دنا (عابد) من أمه في مشهد غير مسبوق وربتّ علي كتفها وقال:

ـ لا تخافي يا (أماي) أنا أعرف جيدا أن (مطراوى) مستحيل يضر (آمنة).

كل ذلك و(يونس) لا يتفوه بأية كلمة غير أنه ظل ناظرا للأرض طوال الوقت و(لوزة) تحدق له مدهوشة! اقترب (عابد) من أبيه وربتّ علي كتفه وقال:

ـ البقاء لله يا (أبوي).

لم يرد (يونس) البتة وكأنه لم يسمع ولا يدرك ما يدور حوله, وهنا ذهب (عابد) إلي مخفر شرطة المستشفى وأخرج

(مطراوى) ثم هاتف رئيس النيابة وطلب منه سرعة خروج أذن الدفن, نظر (مطراوى) إلي (عابد) والدموع تفر من عيناه وقال:

ـ شكرا أنك خرجتني يا (أخوي).

صمت (عابد) لـجزء من البرهة ثم قال:

ـ أنا خرجتك لأني متأكد أنك مستحيل تؤذي (آمنة) يا (مطراوى).

ذهبوا جميعا للمشرحة ودخل (عابد) وحده ووقف بجوار الطبيب الشرعي صامتا والدموع تسقط من عيناه بـهدوء حتي انتهي الطبيب من فحص الجثة, وفي تلك اللحظة نظر (عابد) للطبيب بـترقب وسأله بـتوجس:

ـ ما هو سبب الوفاة يا دكتور؟

راح الطبيب يتخلص من قفازا يديه ودنا منه وبـهدوء أجاب:

ـ ماتت منتحرة بـمبيد دودة القطن.

اعترت الدهشة وجه (عابد) وراح يحدق للجثة المُغطاة وقال:

ـ منتحرة! مستحيل يا دكتور (آمنة) تنتحر, هي تعرف ربنا جيدا وتصلي منذ طفولتها.

تنفس الطبيب الصعداء وتابع متلعثما:

ـ (آمنة) كانت حامل في شهرها الثالث ومن معلوماتي أنها ليست متزوجة أصلا وهذا سبب كافي للانتحار.

وفي تلك اللحظات, شعر (عابد) بالدوار؛ فاقترب من الجِدار واسند رأسه عليه كاد أن يسقط مغشيّ عليه وصمت للحظات ثم قال:

ـ أرجو من حضرتك أن تنهي التقرير بسرعة يا دكتور, إكرام الميت دفنه.

ـ حاضر يا (عابد بيه).

وغادر الطبيب المشرحة, وهنا دنا (عابد) من جثة (آمنة) وأمر عامل المشرحة أن يتركه وحده, كشف وجهها وحدق لها بتمعن باكيا ثم قَبلَ جبينها وقال:

ـ من الذي فعل بكِ هذا يا حبيبتي؟! أنا أعرف أنه مستحيل يكون (مطراوى) ردي عليّ يا (آمنة) وأوعدكِ أخذ لكِ حقكِ, أنا متأكد أنكِ تسمعيني الآن, طيلة عمري وأنا أحبكِ يا (آمنة) لكني كنت أكابر نفسي حتي لا أظهر ضعيفا أمامكِ, ليتني ما عاملتكِ بقسوة ابدا, لو كنت أعرف أنكِ سترحلين من الدنيا بهذه السرعة كنت زوجتكِ (مطراوى) سامحيني علي كل شيء يا قلب أخوكِ.

وراح ينشج بالبكاء عاليا؛ فدلف عليه عامل المشرحة واقترب منه وقال:

ـ كفي هذا يا (بيه).

وهنا غطي (عابد) وجه (آمنة) وغادر المشرحة بـهدوء.

خرج أذن تصريح الدفن من النيابة ووصلت (آمنة) إلي مقابر «الواحة» في تمام الساعة الثالثة صباحا وخرج جميع أهل «الواحة» يحملون شعلات النار وكشافات الإضاءة يودعونها في ظلمات الليل الحزين, وكانت ليلة دفنها القمر بدرا نظر (مطراوى) للقمر والناس يغطون (آمنة) بـالتراب وراي (آمنة) بجوار القمر, أنها النجمة (آمنة) ظهرت الآن وكأنها أرادت أن تودع (آمنة) هي الأخرى, وهنا صرخ (مطراوى) بـأعلى صوته قائلا:

ـ (آمنة).

اقترب منه (سند) وربتّ علي كتفه وقال:

ـ كفي هذا يا (مطراوى) كن شديد وقوي أكثر من ذلك يا (أخوي).

ظل (مطراوى) يردد اسم (آمنة) حتي سقط مغشيّ عليه وهنا حمله (سند) علي كتفه وهبط به من المقابر و(عزيزة) تمشي ورائهم باكية, ظهر (عابد) مُتماسكا أمام الجميع وانتهوا من الدفن واتجهوا جميعا إلي مسجد «الواحة» لـصلاة الفجر, وفي الطريق إلي المسجد دنا (مهدي) من (يونس) وربتّ علي يده واقترب من أذنه هامسا وبـهدوء قال...

(13)

«يقتل القتيل ويمشي في جنازته!».

ـ المبيد كان لمن يا (يونس)؟

بحزن غير معهود عليه سأل (مهدي) (يونس) مقتضبا هذا السؤال, وهنا تنهد (يونس) بقوة كاد أن ينشق صدره وقوس حاجبه غيظا وراح يرسل نظرات تحذير إلي (مهدي) ورد:

ـ ماذا تقصد بكلامك هذا يا (مهدي)؟ أنا لا افهم عن ماذا تتكلم من الأساس!

حدق له (مهدي) مدهوشا ولم يرد البتة وبات متأكدا أن (يونس) هو من قتل (آمنة) بعد أن انتشر خبر تسمم (آمنة) بمبيد دودة القطن في «الواحة» كلها, وراح (مهدي) يفكر حائرا ماذا سيفعل وقرر أن لا ينطق بأية كلمة خوفا من (يونس) وابنه (عابد بيك).

ومع غروب هذا اليوم وصلت (كارما) وأمها إلي «الواحة» بعد أن أتصلت بزوجها واستأذنت منه لتقوم بواجب العزاء وجلسا مع (عزيزة) وبقية النساء وراح (كارما) البناية التي تربي فيها زوجها, وهنا صُدمت أن (عابد) يترك أهله يعيشون في هذا المكان الغير أدامي وراحت تتبادل النظرات مع أمها بصموت وكأنهما يفهمان بعضهما البعض.

ظل نساء «الواحة» يتهامسون بهدوء علي جمال (كارما) ابنة المأمور التي فاز بها (عابد) ابن (يونس) و(عزيزة)

الخادمة ومرت ساعة من الوقت وغادرت (كارما) و(فاتن هانم) العزاء بعد أن طلبت (كارما) أن تعزي (عابد) و(مطراوى) وكانت هذه هي المرة الأولي التي رات (كارما) فيها (مطراوى) نظرت له بشفقة وحزن وفرت دموعها من عيناها علي فراقه لـ(آمنة).

مر يوم العزاء ولم ينظر (مطراوى) إلي (يونس) ابدا حتي لا يتهور ويهجم عليه ويقتله امام الجميع, وفي نهاية الليل غادر جميع الناس والحزن يسيطر علي الجميع, وفي الردهة كان (مطراوى) شبه مُخدر لا يعي العالم من حوله مُستلقي علي الأريكة ويجلس بجواره (عابد) علي كرسي وكانت (عزيزة) و(لوزة) و(يونس) يجلسون أرضا, وبينما كان الصمت يعمُ المكان بوجه ممتقعا حدق لهم (عابد) وقال:

ـ (آمنة) ماتت وهي حامل في شهرها الثالث!

صُدمت (عزيزة) فاغرة فاها, وبوجهها الحِنُطيُ راحت (لوزة) تحدق لـأبيها بغيط وبتجهُم قالت (لوزة) باكية:

ـ أكيد هذا هو سبب إنها انتحرت يا (عابد).

وراحت (لوزة) تنشج وتبكي عاليا, وهنا دنا منها (عابد) وقبض علي ذراعها بقوة وبحزم وحدة قال:

ـ اخرسي لا اريد أن يعرف أي احد في «الواحة» بهذا الخبر وإلا دفنتك حية, فهمتِ؟

باكية مرتجفة وجسدها يرتعش من الخوف ردت:

ـ حاضر يا (أخوي).

بـتمعن نظر (عابد) إلي (مطراوى) وقال:

ـ غريبة جدا أنك لست مصدوما بـخبر حمل (آمنة) يا (مطراوى)!

راح (مطراوى) يحدق إلي (يونس) بـغل وكره ورد مغتاظا:

ـ لأني كنت اعرف بـحَبلها يا (عابد), (آمنة) قالت لي قبل موتها بـدقائق كل ما حصل معها وعرفتني سبب موتها وكيف ماتت.

نزلت كلمات (مطراوى) علي (يونس) كـالصاعقة وراح (يونس) ينظر له بـترقب وخوف ولم يتفوه وأكمل (عابد) قائلا:

ـ وقالت لك من الذي فعل بها هذا يا (مطراوى)؟

صمت (مطراوى) للحظة وهو ما زال ينظر إلي (يونس) بـكره وغل ثم أجاب:

ـ لا, لم تعرفني من جني عليها لكنها عرفتني أنها شربت الدواء كي تسقط ما في بطنها قبل ما يُفضح أمرها في «الواحة» كلها وأنها لم تكن تعرف أنه مبيد اعتقدت انه دواء للإجهاض وأن من جني عليها هو الذي أحضر لها هذا الدواء القاتل أصلا علي أساس أنه دواء للإجهاض ولم تكن تعرف أنه سم قاتل.

وهنا تنفس (يونس) الصعداء وانفرجت أسارير وجهه

والعرق يغرقُ جبينه ولم ينطقُ بعد, دنا (عابد) من ابيه وحضنه بقوة وقال:

ـ لأزم امشي الآن يا (أبوي) وأطمئن لن يغفل لي جفن حتي أعرف من الذي فعل في (آمنة) هذا وسيكون مصيره الشنق علي يديّ أن شاء الله.

اعتدل (مطراوى) جالسا وسط الأريكة, وبصوت واهن قال:

ـ أصحيح كلامك هذا يا (عابد)؟ أنك ستوصل رقبة القاتل لحبل المشنقة.

ـ أكيد يا (مطراوى) (آمنة) أختي لحمي ودمي وحتي لو في يوم من الأيام كنت قاسي عليها لكني كنت احبها ولن اتكاسل ابدا في معرفة الحقيقة كاملة مهما كلفني الأمر وسأخذ حقها.

وفي هذه اللحظة حدقت (لوزة) إلي (مطراوى) بتمعن وخبث وغمغمت مع نفسها بهدوء:

ـ يبدو أن (مطراوى) يقصد ما فهمته!

***

وبعد منتصف الليل يوم دفن (آمنة) غادر (مطراوى) البناية ودخل «الغابة» وجلس في مكانه الذي طالما يجلس به في كل مرة يُحاط بصرير الأشجار مع نسمات الهواء ونقيق الضفادع المُزعج, تحت ظلام الليل ظهر (رجل الغابة) بيده شعلته قادما علي مرمي البصر باسما؛ فحدق له (مطراوى)

وبـنبرة حزينة سأله بـلوم:

ـ لماذا لم تخبرني بما كنت تعرفه عن (آمنة) يا خليلي, كان من الممكن أن أنقذها.

دنا منه (رجل الغابة) أكثر ووقف أمامه, وبـصوت جهوري غاضبا ردَ:

ـ لا مفر من القدر والمكتوب يا (مطراوى).

أجفل (مطراوى) وقال:

ـ أكنت تعلم أن (آمنة) حُبلي من ابوها؟

ـ نعم كنت اعرف كل شيء وعندما شربت المبيد حاولنا أن ننقذها لكنك لم تصل في الوقت المناسب يا (مطراوى).

فاغرا فاه مدهوشا حدق له (مطراوى) وسأله:

ـ ماذا تقصد بـكلامك هذا؟!

لم يرد (رجل الغابة) وصمت (مطراوى) لـبرهة يفكر ثم أكمل:

ـ أنا عرفت من (النمروس) وكنت مُتعجب من جريه بسرعة لأنه معروف عنه مشيته العاجزة!

لم يكترث (رجل الغابة) لـحديثه, وبـنبرة حزينة باسما صاح عاليا وتردد صوته في سماء «الغابة»:

ـ لقد انتهي الأمر يا (مطراوى) وماتت (آمنة).

ظل صوته يتردد عاليا حتي تواري من جديد داخل

«الغابة»؛ فـنادي عليه (مطراوى) باكيا:

ـ لا تتركني وحدي الآن يا خليلي, أنت رفيقي في هذه «الغابة» المخيفة!

وهنا سمع (مطراوى) صوت (رجل الغابة) بين الأشجار رغم أنه تواري تماما يقول:

ـ نحن معك وحولك في كل مكان يا (مطراوى) لا تقلق ولا تخاف يا حبيبي.

لم يذق (مطراوى) طعم النوم هذه الليلة حتي اختلط معني النور بـالظلام مع الفجر وغلبه النُعاس وغرق في سُبات عميق بجوار جذع الشجرة, ومع قرب الظهيرة أستيقظ علي لسعة الشمس وراي (الرجل القروي) يقف أمامه, بـوجه مُتجهم حدق له (الرجل القروي) وقال حزينا:

ـ البقاء لله.

بـدهشة نظر له (مطراوى) وسأله:

ـ وكيف عرفت بـموت (آمنة)؟!

لم يرد بـأية كلمة وراح يعنفه علي دخوله «الغابة» من جديد وتابع (مطراوى) أن كل أهل «الواحة» يخافون دخول «الغابة» إلا أنه لم يعد يخافها البتة بل صارت مكان الراحة والأمان له, لوّح له (الرجل القروي) بـيده رافضا لـكلامه وتواري في الحال وظل (مطراوى) مكانه طوال هذا اليوم لم يجسرُ علي العودة إلي «الواحة» ومع الغروب وقد بدأ الظلام

يزحف بهدوئه وسكونه, ظهر (الرجل القروي) من جديد ودنا من (مطراوى) وأعطاه رغيف من الخبز وقطعة جبن قديم, شرع (مطراوى) يأكل بنهم وشكره وقال (الرجل القروي):

ـ سأغادر الآن قبل دخول الليل لأني اخاف أن امشي في «الغابة» ليلا.

وهنا أومأ (مطراوى) برأسه ولم يتفوه مجددا وتوراي (الرجل القروي) من جديد وبات (مطراوى) في «الغابة» وحدة ليلة أخري منتظرا ظهور (رجل الغابة) مرة أخري لكنه لم يظهر بعد.

مرت ليلتين علي (مطراوى) ولم يرجع إلي «الواحة» وأمه تعتقد أنه عند (سند) وفي اليوم الموالي ذهبت أمه إلي (سند) الذي أخبرها أنه لم يراه منذ يوم العزاء وراح يطمئنها وخرج يبحث عن (مطراوى) في «الواحة» بين الحقول, وفي المساء ذهب إلي (عزيزة) وأخبرها أنه لم يجده أبدا, دمدمت بحرقة قلقه علي ابنها.

مر شهر علي (مطراوى) يوما تلو الأخر ما زال داخل «الغابة» لا يفعل أي شيء غير أنه يجلس طوال النهار بجوار جذع الشجرة وبالليل ينتظر ظهور (رجل الغابة) لكنه لم يظهر بعد و(الرجل القروي) يأتي له كل صباح برغيف من الخبز وقطعة من الجبن القديم وزجاجة ماء صغيرة وصار صديقه يجلس معه وقت القيلولة يستريح من عمله في قطع الأشجار ويقص عليه (مطراوى) حياته منذ طفولته حتي هذا الوقت وما عاناه من تعب وشقاء وعن قصة حبه لـ(آمنة) التي

انتهت بـقتلها.

راحت (عزيزة) تبحث عن (مطراوى) كل يوم بـمساعدة (سند) في «الواحة» والبلدات المجاورة وتعود مساءا تنظر لها (لوزة) بـغبطة وسرور ساخرة منها وكأنها سعيدة بـاختفاء (مطراوى).

التحقيقات في قضية (آمنة) مستمرة وذات ليلة أتي (عابد) إلي «الواحة» وجلس مع ابيه وراح (يونس) يبكي له وقال:

ـ استرنا يا ابني وحاول أن تقفل القضية بـأية طريقة حتي لا يُفضح أمر (آمنة) في «الواحة» كلها لو أي شخص من أهل «الواحة» عرف أنها كانت حُبلي قبل موتها.

صمت (عابد) للحظات ناظرا له مدهوشا من بكائه هذه المرة ثم قال:

ـ يبدو أن القضية سـتُقيد انتحار بالفعل يا (أبوي) لأن الشك كله كان حول (مطراوى) لكن تحليل الحمض النووي اثبت أن الطفل الذي كان في بطن (آمنة) ليس ابن (مطراوى) أصلا.

كل ذلك و(عزيزة) كانت تجلس بجوارهم صامتة لا تفكر إلا في اختفاء ابنها و(لوزة) تحدق لـأبيها بـكره وغضب.

وبعد توصية من (عابد) اغلقت القضية بالفعل وصارت (آمنة) مُنتحرة أمام القضاء وأهل «الواحة».

وذات صباح دخلت (لوزة) الحظيرة كي تذهب بـالجاموسة إلي الحقل كما تعودت أن تفعل كل يوم بعد موت (آمنة)

بعد رفض (يونس) أن يذهب للحقل البتة بحجة حزنه علي (آمنة) وجدت (لوزة) الجاموسة قد ماتت بعد أن صار أكلها قليل تدريجيا منذ موت (آمنة) ورفضت أن تحلبُ مجددا نقطة واحدة من لبنها رغم محاولات كثيرة من (عزيزة) و(لوزة) لحلبها وضرب (يونس) المُتكرر لها, صاحت (لوزة) وأتت (عزيزة) وزوجها سريعا واقتربت (عزيزة) من الجاموسة وضمت رأسها لصدرها وقالت باكية:

ـ حتي الجاموسة ماتت حزنا علي (آمنة).

ظلت (عزيزة) تبكي طوال هذا اليوم وتردد:

ـ وينك يا (مطراوى) وينك يا حبيبي؟! خرب البيت (آمنة) ماتت و(مطراوى) اختفي والجاموسة ماتت وكأن اللعنة نزلت علي البيت بعد موت (آمنة).

وفي الشهر السابع من حملها ولدت (كارما) في مستشفى «سيوة» وانجبت ولدا اسمته أمها (آسر) وعادت إلي الفيلا في اليوم الموالي بصحبة (عابد) وأمها ورجع ابيها من عمله وحمل حفيده وراح يُقبله وهو يشعر بالغبطة والسرور وكأنه يحلق في السماء فرحا.

كانت (لوزة) هذا اليوم تجمع الفول الأخضر التي زرعته (آمنة) ثم دخلت تستريح في الحجرة الصغيرة علي رأس الحقل لتجد «اليمامة» قد ماتت هي الأخرى في نفس المكان التي طالما كانت تجلس به (آمنة) نظرت لها (لوزة) باكية ورمتها بعيدا .. لقد مات رفيقي (آمنة) حزنا عليها, الجاموسة

و»اليمامة».

***

مر شهرين بعد موت (آمنة) و(مطراوى) ما زال داخل «الغابة» وذات يوم أتي (الرجل القروي) وقت القيلولة وجلس بجواره أرضا وقال:

ـ ألم تنوي بعد أن تخرج من «الغابة» يا (مطراوى)؟

راح (مطراوى) ينظر علي مرمي بصره بين الأشجار وبغير اكتراث رد:

ـ أخرج لمن بعد موت (آمنة) ولماذا أخرج من «الغابة» أصلا؟ لم يعد لي احدا في «الواحة» إلا (أماي) وأنا أعرف أنها قوية تستطيع أن تحافظ علي نفسها جيدا حتي في غيابي, صرت لا أطيق «الواحة» بعد (آمنة).

ـ ولكن أنت شكلك تغير تماما يا (مطراوى) شعر رأسك وذقنك صارا طويلا ولم تغير ملابسك منذ يوم دخولك «الغابة».

باسما يأسا قال (مطراوى) بهدوء:

ـ ليس مهم كل هذا أصلا, ماتت (آمنة) ومات معها كل شيء, لم يعد يهمني شكلي أو أي شيء أخر بعد موت (آمنة) كم اتمني أن أموت والحق بها في السماء علّ ارتاح مما أنا فيه الآن, صارت حياتي جحيم بعد (آمنة).

وصمت (مطراوى) لدقائق يفكر ثم تابع:

ـ أريد أن أعمل معك هنا في قطع الأشجار يا خال.

اعترت الدهشة وجه (الرجل القروي) ورد متلعثما:

ـ وأنا موافق يا (مطراوى) نبدأ العمل معا غدا.

راح (مطراوى) ينظر له سعيدا بعض الشيء بموافقته ورد:

ـ سأنتظرك الفجر ونبدأ أن شاء الله.

وهنا أزدرد (الرجل القروي) ريقه وارتجف جسده برعشة وتغيرت ملامح وجهه في الحال ورد متذمرا:

ـ العمل بعد شروق الشمس يا (مطراوى).

تعجبّ (مطراوى) من غضبه لكنه لم يُعلق علي كلماته واكمل بهدوء:

ـ سأنتظرك بعد الشروق أن شاء الله يا خال.

غادر (الرجل القروي) وتواري بين الأشجار, وفي اليوم التالي أتي بعد الشروق ومعه ملابس جديدة لـ(مطراوى) واعطاها له, سروالا واسعا فضفاضا وقميصا طويلا حتي الركبة زيتين اللون, حدق لهما (مطراوى) وقال باسما:

ـ ما هذه الملابس الغريبة التي تشبه ملابس العصر الجاهلي.

ـ هذه ملابسي يا (مطراوى) وقد غسلتها جيدا ونظفتها قبل أن احضرها لك.

شكره (مطراوى) بحرارة ثم أنزوي بين الأشجار وبدّل

ملابسه بـالملابس الجديدة وراح ينظر لـنفسه باسما وغمغم:

ـ الآن صرت اشبه شكل (الرجل القروي).

خرج (مطراوى) من بين الأشجار, باسما حدق له (الرجل القروي) وقال:

ـ تبدو جميلا في ملابسي يا (مطراوى).

وساد الضحك المكان ثم تحركا أكثر وتعمقا داخل «الغابة» وشرعا يقطعان الأشجار بعد أن أحضر (الرجل القروي) الأدوات الأزمة, ظلا يعملان طوال النهار ومع الغروب أسرع (الرجل القروي) وغادر قبل حلول الظلام ونادي عليه (مطراوى) وهو يشير بـسباته للشجر المُقطع:

ـ من سـيحمل هذ الأشجار من هنا؟!

غاضبا رد (الرجل القروي):

ـ لا تسأل كثيرا يا (مطراوى) كل شيء مُرتب له, أنت عملك فقط هو قطع الأشجار ولا تسأل عن أي شيء أخر ولا تشغل بالك بـما لا يخصك, فهمت؟

صمت (مطراوى) ولم يتفوه مجددا وهو لا يفهم أي شيء! وتواري (الرجل القروي) وعاد (مطراوى) وجلس مكانه بجوار جذع الشجرة وأخلد إلي النوم.

وفي الصباح, أتي (الرجل القروي) واصطحب (مطراوى) لـمكان قطع الأشجار البارحة وراح (مطراوى) يحدق حوله مدهوشا, ليس هناك أي آثر لـتلك الأشجار التي قُطعت أمس!

بـتوجس متوترا سأله (مطراوى):

ـ وين الأشجار التي قُطعت امس ووين جذورها يا خال؟!

غاضبا رد (الرجل القروى):

ـ أنا قُلت لك لا تسأل كثيرا, كل ما عليك أن تعمل معي وسـتحصل علي المال مقابل عملك.

مرت الأيام يوم تلو الأخر, وأسبوع تلو الأخر, وشهر تلو الأخر, وسنة تلو الأخرى وقد مر عامين علي (مطراوى) وهو ما زال داخل «الغابة» بعد موت (آمنة) ولم يرجع إلي «الواحة» بعد وقد فقدت أمه الأمل أن يعود بعد أن بحثت عنه كثيرا ولم تجده, وذات يوم جلست (عزيزة) مكان (مطراوى) علي الأريكة وراحت تنشج باكية بقوة وتذكرت هذا اليوم الذي اختفي فيه (مطراوى) وهو طفلا وأخبرها بعد ذلك أنه دخل «الغابة المهجورة» وتاه فيها, وهنا هرولت وذهبت إلي (سند) مُسرعة وقصت عليه قصة (مطراوى) مع «الغابة» تعجبّ (سند) من كلماتها وأخبرها أنه لا يعرف أي شيء عن هذا البتة وطلبت منه أن يذهب معها إلي «الغابة» بحثا عن ابنها وصديقه ولكنه رفض بشدة خوفا من «الغابة» والتي لم يدخلها أحدا أبدا من قبل نظرا لما يُقال عنها أنها مسكونة بـالجن والعفاريت, وبعد بكائها الشديد وافق أن يذهب معها.

وقت القيلولة سارا معا في الطريق الغربي القديم في «الواحة» متجهين إلي «الغابة» حتي وصلا بداية «الغابة»

وهنا سمعا صوتا عاليا حولهما وصار الهواء ساخن يلسعهما في وجههما كاد أن يحرقهما, ارتعشا في الحال وتيبسا جسدهما مكانهما وشعر (سند) بيدين تخنقه كادت أن تخرج روحه وانتصب شعره خوفا, بعينين متسعتين حدق (سند) إلي (عزيزة) وصاح قائلا:

ـ أجري بسرعة يا خالتي.

وركض (سند) سريعا وركضت خلفه (عزيزة) وكأن أحدهما يركض ورائهما بسرعة البرق حتي بعدا تماما عن «الغابة» ووصلا أول «الواحة» وقفا وراحا يلتقطان أنفاسهما بصعوبة وقال (سند) متلعثما والعرق يغرق جبينه:

ـ صدقتِ أن «الغابة» مسكونة بالجن والعفاريت يا خالتي؟ أنا حسيت أن في شخص يخنقني, أكيد كان عفريت من الجن في هذه «الغابة المهجورة»!

ـ عندك حق يا ابني, تعالَ نمشي من هنا بسرعة.

***

مرت ثلاث سنوات أخري و(مطراوى) ما زال داخل «الغابة» ولم يظهر (رجل الغابة) بعد وبذلك قد مكث (مطراوى) خمس سنوات في «الغابة» منذ موت (آمنة), (عزيزة) تقدمت في السن بعض الشيء وقد تغيّرت ملامحها وكل يوم تخرج تمشي في شوارع «الواحة» وكأنها تنتظر رجوع ابنها, وذات ليلة جلست مع (تينة) وأمها أمام بنايتهما وقالت باكية:

ـ أنا حاسة أن (مطراوى) جنبي, حاسة برائحته في كل

مكان حولي.

حدقت لها (فردوس) ساخرة وردت:

ـ أكيد هج في أية بلدة وتزوج, كفي بكاء يا (عزيزة) ستفقدين بصرك.

ـ وما الفائدة من بصري الآن, أنا فقدت ابني حبيبي من كنت اراه ببصري, ليس مهما الآن أي شيء بعد (مطراوى) حتي لو صرت عمياء يا (فردوس).

ـ عندك ابنك (عابد بيه) يا (عزيزة).

صمتت (عزيزة) هنيهة ثم تابعت باكية:

ـ لم أري (عابد) منذ يوم موت (آمنة) واختفاء (مطراوى) إلا ثلاث مرات وفي كل مرة لم يجلس معي كان يجلس مع ابوه ويلقي عليّ السلام من بعيد وكأني لست أمه التي خلفته وأرضعته من صدرها والأصعب من هذا أنه غير مهتم باختفاء اخوه ولا حتي سأل عليه كل هذه السنوات.

بحزن ردت (فردوس):

ـ لله الأمر من قبل ومن بعد, ربنا يصبرك علي فراق (مطراوى) و(آمنة) يا (عزيزة) يا أختي.

ذات ليلة, جلست (عزيزة) وزوجها و(لوزة) في الردهة, وهنا طرق الباب نهضت (لوزة) بسرعة وفتحت...

(14)

(عابد) وزوجته وطفلهما ذو الخمس سنوات علي الباب, اقتربت (لوزة) من اخيها وحضنته بقوة وراح يضمها هو الأخر ثم دلفوا جميعا ودنا (يونس) من (عابد) وبحب ولهفة ضمه وشرع يلومه علي غيابه كل هذه الفترة, (عزيزة) ما زالت مكانها, الحزن والكسرة يُسيطران عليها لم تتفوه بعد حتي اقتربت منها (كارما)؛ فنهضت مُسرعة من مكانها وطوقتها (كارما) بذراعيها واطمأنت عليها ثم دنا (عابد) من أمه وصافحها باليد وقال:

ـ كيفك يا (أماي)؟

ترقرقت عيني (عزيزة) بالدموع, وبنبرة حزينة باكية ردت:

ـ لن اكون بخير إلا عندما يرجع أخوك يا (عابد) ابوس رجلك يا ابني ابحث عن أخوك أنت لك معارف وممكن توصل لمكانه من أجل خاطر أمك وقلبها الموجوع يا ابني.

وانهارت (عزيزة) باكية, اقتربت منها (كارما) وراحت تمسح دموعها وربتّت علي كتفها وقالت:

ـ هوني علي نفسكِ يا (طنط) ولا تخافي سأطلب من (بابي) أن يبحث عن (مطراوى) في كل مكان وأن شاء الله خير.

باسما ساخرا حدق (عابد) لأمه وقال:

ـ لماذا كل هذا الحزن يا (أماي)؟ أكيد (مطراوى) هج في أي مكان وتزوج وخلف وعايش حياته وانتِ هنا ما زلتِ باكية عليه, يا رب تكوني عرفتِ الآن من هو عديم الأصل أنا أم (مطراوى) يا (عزيزة)؟ تركِ وهج ولا سأل عنكِ منذ سنوات.

وفي تلك اللحظات, صاحت (عزيزة) غاضبة باكية وقالت بحدة:

ـ مستحيل (مطراوى) يتزوج بعد (آمنة) لأنها كانت حبه الوحيد حرام عليك تظلم أخوك في وجوده وفي غيابه يا (عابد) طيلة عمرك تكره (مطراوى) وتظلمه رغم أنه يحبك وأنت عارف أنه يحبك جدا وضحي كثيرا كي تكمل تعليمك وتصل لما أنت فيه الآن.

لم تفارق الابتسامة وجه (عابد) ساخرا من أمه واكمل:

ـ أهدأي يا (أماي) سنحاول البحث عنه وأن شاء الله خير.

اقتربت (لوزة) من (آسر) وقَبلته وقالت باسمة وهي تنظر إلي (عابد):

ـ ابنك جميل وحلو قوي يا (أخوي).

ودنا (يونس) من (آسر) وقبله ايضا ثم اجلست (عزيزة) (آسر) علي ركبتيها وراحت تُقبله بنهم سعيدة به, وفي نهاية السهرة غادروا البناية وفي الطريق نظرت (كارما) لزوجها وهي تجلس بجواره في السيارة وعلي رجليها ابنها وبتوجس سألته:

ـ لماذا تعامل أمك و(مطراوى) بهذه الطريقة الجافة القاسية يا (عابد)؟!

ـ لأنهم طيلة عمرهم يكرهوا (أبوي) يا (كارما) رغم أنه طيب وساعدهم كثيرا, يكفي إنه تزوج (عزيزة) وسترها هي وابنها من كلاب «الواحة» لأنها كانت جميلة في شبابها ومطمع من رجال «الواحة» كلها.

ـ ولماذا (طنط عزيزة) تزوجت (عم يونس) لو حقيقي كانت تكرهه كما تقول, ما الذي يجبرها أن تتزوج شخص تكرهه أصلا يا (عابد)؟!

صمت (عابد) هنيهة وراح يفكر ثم قال:

ـ طالما أفكر في هذ السؤال, لماذا تزوجت (أبوي) رغم كرها الشديد له؟! وسألتها كثيرا من قبل وفي كل مرة كانت تتهرب من الإجابة وكنت أقرأ في عيناها سر تريد أن تقوله لكنها في كل مرة كانت لا تنطق, أنا متأكد أن هناك سر كبير كان السبب في زواجها من (أبوي).

وصمتا كلاهما حتي وصلا الفيلا وجلست (كارما) مع أمها وراحت تقص عليها كل ما حدث في الزيارة.

***

طوال الخمس سنوات علي (مطراوى) داخل «الغابة» كل ليلة الرابع عشر من الشهر الهجري يجلس مع (آمنة) في السماء, تظهر النجمة (آمنة) بجوار القمر المُكتمل بدرا يحكي معها عن كل أوجاعه, وذات يوم جلس مع (الرجل القروي)

يستريحان وقت القيلولة بين الأشجار وقال (مطراوى):

ـ (أماي) وحشتِني قوي يا خال, وحشني حضنها الدافئ الذي كان يزيح عني كل أوجاعي وهمومي.

مُتعجبا رمقه (الرجل القروي) وهو يحك سبابته في شعر رأسه الكثُ وسأله:

ـ ولماذا لم تخرج من «الغابة» وتطمئن علي أمك طوال هذه السنوات يا (مطراوى)؟!

راح (مطراوى) ينظر علي مرمي بصره حائرا وبـنبرة حزينة رد:

ـ حاولت كثيرا الخروج من «الغابة» لكني لم استطيع! في كل مرة أمشي في طريق الخروج أشعر بـجسمي يؤلمني ويوجعني وكأن شخصا ما يقيدني بـيديه ويمنعني من المشي والخروج من هنا!

صمت (الرجل القروي) هنيهة يحدق له بـوجوم ثم قال متلعثما:

ـ كلامك غريب جدا يا (مطراوى).

ـ هذا ما يحصل معي يا خال واتمني الخروج من هذه «الغابة» الغريبة والمثيرة!

صمت (الرجل القروي) للحظة ثم قال:

ـ لقد أدخرت لك مبلغا كبيرا من المال يا (مطراوى) وعندما تخرج من هنا ابحث عن زوجة مناسبة وتزوج وابدأ حياة

جديدة, الحياة لا تقف علي احدا ولا بد أن تتزوج وتكون أسرة.

ترقرقت عيني (مطراوى) بـالدموع ورد:

ـ لن اتزوج بعد (آمنة) أنا فقط اريد الخروج من هنا كي أطمئن علي (أماي) ليس أكثر ولو لم تكن (أماي) في «الواحة» لن اخرج ابدا من «الغابة» وكنت سـأكمل حياتي هنا للابد.

بـعينين متسعتين متقدة شرارا حدق له (الرجل القروي) بـنظرات مخيفة ورد:

ـ عندما أختفي من الظهور لك, انتظر ثلاثة أيام وفي صباح اليوم الرابع أخرج من «الغابة» مباشرة ولا تنتظر وإلا لن تخرج منها ابدا يا (مطراوى).

انتصب شعر (مطراوى) وارتجف جسده خوفا من نظرات (الرجل القروي) له وشكله المُتغير في الحال وصمت.

مرت الأيام تباعا وقد فات أسبوعين ولم يختفي (الرجل القروي) ما زال يظهر كل يوم يتابع عمله في «الغابة» و(مطراوى) ما زال ينتظر أن يأتي يوم اختفائه حتي جاء هذا الصباح ولم يظهر (الرجل القروي) وفات أول يوم علي اختفائه ومر اليوم الثاني أيضا ولم يظهر ولكن ظهرت (آمنة) في السماء هذه الليلة بجوار القمر متألقة نورا وعظمة ترقص حول القمر في سكون وهدوء وكأنها ورثت تلك الصفات الجميلة من (آمنة) قبل موتها, تورد وجه (مطراوى) غبطة

وسرورا وحدق لها وقال:

ـ أدعي معي يا (آمنة) أن لا يظهر (الرجل القروي) كي أخرج من هنا واري (أماي).

وظل يحدق لها وتابع:

ـ أتتذكرين خالتكِ (عزيزة) يا (آمنة)؟ كانت تحبك رغم كرها الشديد لـأبوكِ.

وتنهد بقوة ثم قال:

ـ طالما تمنيت أن أخبركِ أنكِ لستِ الضحية الأولي لـ(يونس) يا (آمنة), (أماي) كانت من قبلكِ وكان (عابد) نتيجة هذا الزنا, كنت اتمني أن تعرفيني كل ما حصل قبل فوات الأوان ولا تخافين, كنت سـأتزوجكِ مهما كلفني الأمر لكنكِ خُفتِ من الكلب (يونس).

وهنا فرت دموعه إلي وجنتيه وصمت للحظات ثم تابع:

ـ يا ويلك مني يا (يونس) أرجع إلي «الواحة» ولن يرحمك مني أي احدا حتي ابنك (عابد بيه).

ظل نقيق الضفادع يحيط (مطراوى) في ظلام الليل, وراح يتنقل بـنظراته بين النظر إلي (آمنة) في السماء وبين الأشجار واكمل:

ـ وينك يا خليلي؟! لم أراك منذ خمس سنوات, أرجوك اظهر لي الآن وساعدني في الخروج من هنا حتي أري (أماي).

ظل (مطراوى) يردد هذا الكلمات عاليا مُتمنيا ظهور (رجل

الغابة) حتي غرق في النوم.

وفي صباح اليوم الثالث, استيقظ (مطراوى) من نومه وشرع يأكل ما تبقي من طعامه داعيا أن لا يظهر (الرجل القروي) هذا اليوم حتي أتي الغروب وراحت الشمس تُعلن عن رحليها باكية خلف السحاب, ظهر صوت أحدهم يتنفس بقوة حوله وهنا تورد وجه (مطراوى) بالابتسامة وغمغم بهدوء:

ـ أخيرا ظهر هذا الصوت من جديد, كم كنت أفتقد هذا الصوت منذ سنوات.

وراح قلبه يخفق مُرتجفا يرتعش جسده خوفا من ظهور (الرجل القروي) وهنا تواري صوت التنفس وغابت الشمس تماما وبدأ الليل يزحف رويدا رويدا, وثب (مطراوى) من مكانه وبدأ يرقص فرحا لعدم ظهور (الرجل القروي) في نهاية اليوم الثالث, وبعد منتصف الليل ظهر قادما بين الأشجار يشقها بذراعيه حاملا شعلته بيده كالعادة, حدق له (مطراوى) وصاح سعيدا:

ـ أخيرا ظهرت يا خليلي, لماذا تركتني وحدي محبوسا في هذه «الغابة» خمس سنوات؟!

وهنا دنا منه (رجل الغابة) ورد:

ـ لأني كنت سعيدا بوجودك هنا كل هذه السنوات يا (مطراوى) لأنك طالما كنت تؤنسني في خلوتي يا خليلي الحبيب.

تعجب (مطراوى) من كلماته وقال:

ـ في الحقيقة أنا لا أفهم أي شيء مما تقوله هذا!

لم يعر (رجل الغابة) كلماته اهتماما ورد باسما بـهدوء:

ـ باكرا ستخرج من «الغابة» واتمني أن لا ترجع هنا مرة أخري لأنك لو عدت مرة أخري لن تخرج منها للأبد يا (مطراوى)!

وفي تلك اللحظات, استدار (رجل الغابة) بعيدا عن (مطراوى) وراح يركض داخل «الغابة» وهنا ركض (مطراوى) خلفه مُناديا وقال:

ـ انتظر يا خليلي, لا تتركني وحدي مرة أخري.

وتواري (رجل الغابة) في لحظات! وعاد (مطراوى) وجلس بجوار جذع الشجرة مرة أخري, وفي الصباح نهض مبكرا وبدّل ملابسه بـملابس جديدة أحضرها له (الرجل القروي) مؤخرا قبل اختفائه وذهب لـبئر الماء ونظر للماء ورأي وجهه, لقد تغيرت ملامحه وبات الشعر يغطي وجهه تماما لا تظهر إلا عيناه وراح يحدق لـنفسه بـهذا الزي والشكل وغمغم:

ـ كيف ستعرفني (أماي) بـهذا الشكل الغريب؟!

وشرع في الخروج من «الغابة» ولم يشعر هذه المرة بـوجع في جسده ولا أي شخص يقيده, وبـذلك تحرر (مطراوى) من «الغابة المهجورة» وركض مُسرعا إلي «الواحة» حتي وصل أول طريقها وراح الناس ينظرون له مُتعجبين من هذا الإنسان الغريب والذي يبدو كأنه من العصور القديمة, لم

يكترث لـنظراتهم واستمر في الركض حتي قابله (النمروس) ووقف امامه وحدق له باسما وقال:

ـ حمد الله علي السلامة يا (مطراوى) كنت أعلم أنك ستعود مرة أخري يا حبيبي.

بـعينين مُتسعتين حدق له (مطراوى) ورد مدهوشا:

ـ وكيف عرفتني بـهذا الشكل الغريب يا صديقي الغالي؟!

ابتسم (النمروس) وأجاب:

ـ وكيف للحبيب لا يعرف حبيبه يا (مطراوى) انت حبيبي الوحيد في هذه «الواحة» الملعونة يا (مطراوى) كيف لا أعرفك مهما تغيّر شكلك؟!

وهنا اقترب منه (مطراوى) وراح يحتضنه بقوة واخرج بعض من النقود من سرواله واعطاها له وغادر سريعا ولكن راح (النمروس) يحدق له حزينا وقال:

ـ لم ينتهي الخطر بعد يا صديقي, عيني عليك يا (مطراوى).

وصل (مطراوى) إلي البناية ليجد بابها مُفتوحا؛ فـدخل بـهدوء ورأي أمه تجلس علي أريكته في الردهة وتردد باكية:

ـ أرجع يا (مطراوى) حاسة بـرائحتك في المكان يا حبيبي.

دنا منها ووقف أمامها وقال بهدوء:

ـ كيفك يا (عزيزة)؟

رفعت عيناها في وجهه وردت:

ـ من أنت؟!

تنهد بقوة وصمت للحظات ثم تابع باسما:

ـ ألم تعرفيني يا (أماي)؟! أنا (مطراوى).

وثبت (عزيزة) سريعا من مكانها وتعلقت برقبته وضمته بين ذراعيها بقوة وصاحت:

ـ ابني حبيبي.

راح يحتضنها بقوة وهي ايضا تحتضنه وكأنها طالما كانت تنتظر هذا الحضن وشرعت تقبل يديه بالتبادل ثم سجدت علي قدميه تقبلها ونشجت باكية بقوة واكملت:

ـ (مطراوى) حبيبي روحي وعقلي وكل ما لي في الدنيا.

وهنا حملها (مطراوى) من الأرض وضمها لصدره من جديد وقال باكيا:

ـ وحشتِني قوي يا (أماي) ووحشني حضنك روحي رُدت لي عندما رايتك الآن يا حبيبتي.

وفي تلك اللحظات خرجت (لوزة) بعد أن سمعت حديثهما معا واقتربت نحو (مطراوى) وقالت:

ـ حمد الله علي السلامة يا (مطراوى).

وخرج (يونس) ايضا من غرفته وراح يحدق لشكل (مطراوى) مُتعجبا دون أن يتفوه البتة وخرج سريعا من

البناية ثم دخلت (لوزة) غرفتها وجلس (مطراوى) بجوار أمه علي الأريكة ما زال يحدق في ملامحها حتي يشبع منها وسألته أمه:

ـ كنت وين طوال كل هذه السنوات يا حبيبي وكيف تغيّر شكلك هكذا وما هذه الملابس الغريبة؟!

صمت (مطراوى) هنيهة ثم رد:

ـ ليس مهم كل هذا الآن يا (أماي) المهم أني رجعت وصرت معكِ ومعي مال كثيرا وسوف أعوضكِ عن كل شيء.

وهنا أخرج (مطراوى) المال من سرواله وأعطاه لـأمه لكنها ما زالت تحدق له مُتعجبة من أمره! وبعد دقائق استحمي وتخلص من ملابس (الرجل القروي) وارتدي ملابسه التي احتفظت بهم أمه كل هذه السنوات واحضرت له الطعام وشرع يأكل بـنهم وهي تحكي له كل ما حدث في غيابه وأن قضية (آمنة) اغلقت انتحار, راح ينصت إليها جيدا دون أن يُعلق علي أية كلمة.

وفي المساء, ذهب (مطراوى) للحلاق وتخلص من شعر رأسه ولحيته وعاد لـشكله الطبيعي كما كان, ثم ذهب إلي (سند) في بنايته والذي قابله بـحب وشوق بعد كل هذا الغياب وراح يسأله نفس الأسئلة التي سألتها له أمه لكنه طلب منه أن لا يسأله في أي شيء سابق واحترم (سند) رغبته.

وفي صباح اليوم التالي, خرج (مطراوى) بحثا عن عمل

واتصلت (لوزة) بـ(عابد) واخبرته بعودة (مطراوى) وبكل ما سمعته من حديث بين (مطراوى) وأمه.

(تينة) فرحت كثيرا بخبر عودة (مطراوى) ما زالت تعشقه رغم رفضه الزواج منها وذات يوم ذهبت له وقت القيلولة وهو يستريح من عمله في الحقول مُستظلا بشجرة بجوار الحقل واقتربت منه وبنبرة حانية قالت:

ـ ما زلت أحبك يا (مطراوى) وامُنيتي الوحيدة إني اتزوجك مهما كلفني الأمر, أنا اعلم جيدا حبك لـ(آمنة) لكنها ماتت وأكيد لن تُكمل حياتك وحدك, تعالَ نتزوج ونكمل حياتنا مع بعض حتي لو كنت ما زلت تحب (آمنة) أرجوك وافق يا (مطراوى) واوعدك سأكون خادمتك طيلة عمري.

صمت (مطراوى) للحظات وراح ينظر علي مرمي بصره بعيدا حزينا حائرا ثم نظر إلي (تينة) وبهدوء رد:

ـ كلامك فوق رأسي يا (تينة) لكني صرت نفسيا غير مؤهل للزواج منكِ أو من غيركِ, (آمنة) ما زالت تعيش معي كل لحظة من لحظات حياتي ولن اظلم أية بنت معي لأني لن استطيع أن أحب بعد (آمنة) ولا أعيش مع أية بنت غير (أمنة) وأنا أحبك مثل أختي بالضبط يا (تينة) وأرجوكِ احترمي رغبتي وكلامي هذا حتي لا توجعيني أكثر من ذلك.

ترقرقت عيناها بالدموع وتابعت حزينة:

ـ براحتك يا (مطراوى) وأرجو أن تنسي كل ما قُلته لك ومن الآن صرنا أخوة.

وغادرت (تينة) المكان ودموعها تفر من عيناها إلي وجنتيها.

وبعد عصر هذا اليوم, ذهب (مطراوى) إلي فيلا المأمور وطلب مقابلة (عابد بيك) صعد أحد الخدم وطرق الباب وقال:

ـ هناك شخص اسمه (مطراوى) يقول إنه أخوك ويريد أن يقابل حضرتك يا (بيه).

مدهوشا حدق (عابد) إلي (كارما) والتي كانت تُصفف شعرها الناعم كالحرير أمام المرآة وهو يجلس وسط السرير يقرأ كتابا وقال مغتاظا:

ـ وماذا يريد مني أصلا؟!

استدارت له زوجته وبهدوء قالت:

ـ أنه أخوك يا (عابد) ولأزم تقابله كما أنه ضيفنا, أرجوك أنزل قابله وقدم له واجب الضيافة.

بحدة صاح قائلا:

ـ لن أقابله ابدا ولا اريد رؤيته من الأساس.

ـ حبيبي أنه ضيفنا وإكرام الضيف واجب يا (عابد) أم نسيت الأصول؟!

كان (مطراوى) يجلس في بهو الفيلا أمامه كوبا من عصير المانجو المُثلج, هبط (عابد) السلم وراح يقترب منه ينظر له مغتاظا حتي وقف أمامه وبعنف وحدة قال دون أن يرحب

به أو حتي يصافحه بعد كل هذا الغياب:

ـ لماذا جئت هنا الآن بهذه الملابس التي تكسف وكيف تقول للخدم إنك (أخوي) أصلا وماذا تريد مني, أنسيت نفسك؟!

نهض (مطراوى) من مكانه ودنا منه في محاولة أن يصافحه ويحضنه لكن (عابد) استدار بعيدا عنه, وهنا شعر (مطراوى) بالحرج وقال:

ـ كل ما يفرق معك أن لا يعرف الخدم إني أخوك يا (عابد بيه) ولا يفرق معك حتي أن تطمئن عليّ بعد كل هذه السنوات من الغياب يا (أخوي).

بغضب وحدة رد (عابد):

ـ لا تقول (أخوي) ليس لي أخوات واتفضل أمشي من هنا بسرعة, ليس لدي وقت أضيعه معك.

دنا منه (مطراوى) أكثر ووقف أمامه وجها لوجه وقال:

ـ حتي لو قُلت لك إني جئت هنا الآن كي اعرفك كلام خطير جدا عن قتل (آمنة).

راح (عابد) يضحك ويقهقه عاليا ورد ساخرا:

ـ لقد ماتت (آمنة) وليس هناك أي كلام من الممكن أن يرجعها ولم يفرق معي أصلا كيف ماتت؟ أنسي (آمنة) وركز في حياتك وابحث عن بنت مناسبة لك وتزوجها واكمل حياتك معها, مع أني أشك أن توافق عليك أية بنت في

«الواحة» أصلا يا ابن (عزيزة) الخادمة.

بخيبة أمل حدق (مطراوى) له مجددا ولم يعر سخريته منه اهتماما وتابع قائلا:

ـ حتي لو قُلت لك أن أبوك له يد في قتل (آمنة).

وفي تلك اللحظات, دنا (عابد) من (مطراوى) وقبض علي عنقه كاد أن يخنقه وراح يهزه بقوة وبنفاذ صبر صاح وقال:

ـ لا تذكر اسم (أبوي) علي لسانك يا كلب ولا اريد أن أسمع أية كلمة أخري وهيا أخرج من الفيلا وإلا قتلتك ودفنتك هنا.

ترقرقت عيني (مطراوى) بالدموع وهمّ بالخروج من الفيلا وعلي باب الفيلا قبل أن يخرج استدار وحدق إلي (عابد) وقال:

ـ أنا جئت أعرفك كل الحقيقة كي ترجع حق (آمنة) رغم إنها طلبت مني أن لا أقول سرها لأي شخص مهما حصل, كنت أعتقد أنك تُحبها ومهتم تعرف كيف قُتلت ومن كان السبب في قتلها لكن واضح جدا أن كل هذا لا يفرق معك أصلا يا (عابد بيه).

لم يكترث (عابد) لكلماته وغادر (مطراوى) الفيلا مغمغما:

ـ سامحيني يا (آمنة) لو كنت فكرت أعرف (عابد) سرك, كنت اعتقد أنه من الممكن أن يرجع لكِ حقكِ لكن للأسف خيب ظني فيه, نامي مرتاحة سرك لن يخرج لاحدا ابدا يا حبيبتي.

***

صباح هذا اليوم, خرجت (عزيزة) للسوق ولم يخرج (مطراوى) لعمله وجلس علي أريكته و(لوزة) كانت تقوم بأعمال المطبخ, خرج (يونس) من غرفته شبه مخمورا وجلس أرضا علي الحصيرة ونظر إلي (مطراوى) باسما ساخرا وسأله:

ـ لماذا رجعت مرة أخري يا شيطان؟! كنا نعيش في هدوء ومرتاحين في غيابك.

مُقطبا جبينه في استهجان حدق له (مطراوى) وقال مغتاظا:

ـ طالما اريد أن أعرف كيف تعيش حياتك بكل هذا الهدوء بعد كل ما فعلته في حياتك وكيف تنام أصلا؟! أنت تفوقت علي إبليس نفسه!

غاضبا وبصوت مرتفع رد (يونس) متذمرا:

ـ ماذا تقصد بهذا الكلام يا كلب, كنت قتلت لك قتيل أم ماذا؟

ـ انت بالفعل قتلت يا (يونس).

وهنا صمت (يونس) تماما وراح يحدق إلي (مطراوى) بكره وعنف مرتجفا واكمل (مطراوى) كلامه قائلا:

ـ (أمنة) يا (يونس) ومبيد دودة القطن, أنسيت ما فعلته معها؟!

وفي تلك اللحظات, وثب (يونس) من مكانه ودنا من (مطراوى) وقال:

ـ ماذا تقول يا مخبول يا عبيط, أتريد أن تقول إني قتلت بنتي حبيبتي؟!

أومأ (مطراوى) برأسه باسما ساخرا ورد:

ـ هذه هي الحقيقة, ماذا لو أخبرت (أماي) وابنك (عابد بيه) بكل ما فعلته في (آمنة) وأنك من اعتديت علي شرفها وحَلبتِ منك ولو عرف (عابد بيه) انه ابن حرام وانك اغتصبت (أماي) وهذا كان سبب أنها وافقت أن تتزوجك؟! أنت اغتصبت (أماي) وكانت نتيجة هذا الزنا هو (عابد بيه) ابنك المغرور واغتصبت (آمنة) وكانت النتيجة إنها حَبلتِ منك وقتلتها بعد ذلك عندما شربتها مبيد دودة القطن كي تسقط الجنين من بطنها, أنت شيطان يا (يونس) في صورة إنسان بل أنت تفوقت علي أفعال إبليس.

نزلت كلمات (مطراوى) علي (يونس) كالصاعقة وهنا جلس (يونس) مكانه مرتجفا وقد غرق جسده في عرقه وصمت تماما دافنا رأسه بين ركبتيه, وفي تلك اللحظات شعرت (لوزة) بالدوار خلف باب حجرتها الموارب بعد أن سمعت كلام (مطراوى) كادت أن تسقط مغشيّ عليها لولا أنها اقتربت من سريرها واستلقت عليه, مرت دقائق ونهض (يونس) من مكانه ودنا من (مطراوى) وراح يحدق له بعنف وتابع (مطراوى):

ـ سأقول لـ(أماي) و(عابد بيه) و(لوزة) ما فعلته في (آمنة) وسأقول لابنك أنه ابن حرام, لأزم الكل يعرف حقيقتك الوسخة وانك اقذر وانجس مخلوق علي سطح الأرض يا خنزير.

وفي تلك اللحظات, تحرك (يونس) مُتجها للمطبخ وأحضر سكينا واخفاها خلف ظهره حتي دنا من (مطراوى) ورفع السكين علي رقبته, وثب (مطراوى) من مكانه وراح يدفعه بعيدا عنه و(يونس) يحاول أن يذبحه وعلا صوتهما, وهنا خرجت (لوزة) من حجرتها وراحت تفصل بينهما تترجي أبيها أن يترك السكين من يده لكنه لم يسمع إليها البتة و(مطراوى) يحاول أن يأخذ السكين من (يونس) إلي أن...

(15)

«ليتني مكثتُ طفلا وفارقت الحياة دون أن أكبر وأري وأفهم كل هذا القبح فيها, لم أكن أريد غير أن أعيشها بـهدوء وأمان لم أعد أتحملها بعد, الحياة قاسية قاسي كل ما فيها, ما زلت أتسأل هل خُلقنا لـنُعذب أم ماذا؟!»

بـجسده النحيل تمكن (مطراوى) من أخذ السكين من (يونس) لكن (يونس) نزع الرداء الذي كان يغطي رأس (لوزة) ولفه حول رقبة (مطراوى) وراح يخنقه بقوة وبدأ الأكسجين يقلُ تدريجيا وصار (مطراوى) غير قادر علي أن يلتقطُ أنفاسه وأزرق وجهه والسكين ما زال بـيده, وهنا صرخت (لوزة) بـأعلى صوتها وهي تري (مطرواى) يفارق الحياة ببطء, وفي تلك اللحظات الفارقة وبدون أن يشعر بـنفسه طعن (مطراوى) صدر (يونس) الأيسر ناحية القلب طعنة واحدة قوية وسرعان ما سقط (يونس) أرضا, صمتت (لوزة) لـجزء من اللحظة مصدومة تنظر لـأبيها ثم خرجت بسرعة من البناية وراحت تصرخ قائلة:

ـ (مطراوى) قتل (أبوي).

وهنا تجمع الجيران ودخلوا جميعا ورأوا (يونس) مُستلقي علي ظهره أرضا في الردهة والسكين مغروز في صدره يتنفس بـصعوبة و(مطراوى) يجلس بجواره مرتجفا وجسده يرتعش وقال (مطراوى):

ـ خذ جزاءك يا (يونس) هذا ما كان يجب أن يحصل لك من

زمان يا كلب يا نجس.

اقتربت (تينة) من (مطراوى) وقبضت علي كتفه وصاحت:

ـ لماذا فعلت هذا يا (مطراوى)؟! ستدخل السجن بسبب هذا الكلب يا حبيب (تينة).

ثم اقتربت (فردوس) من (مطراوى) وهمست في أذنه وقالت محذرة:

ـ أهرب بسرعة قبل ما توصل الحكومة يا (مطراوى).

سمعتها (لوزة)؛ فتشبثت برقبة (مطراوى) وصاحت صارخة ترقع بالصوت الحياني:

ـ قتلت (أبوي) وتريد أن تهرب يا كلب.

وهنا التف الجيران حول (مطراوى) وحاصروه حتي يمنعوه من الهرب لكنه لم يهرب من الأساس ما زال يجلس مكانه بجوار (يونس) لا يحرك ساكنا.

لحظات وصعدت روح (يونس) للسماء, دخلت (عزيزة) ورأت جثة زوجها وبجواره (مطراوى) صرخت بأعلى صوتها:

ـ لماذا فعلت هذا يا ابني, لماذا ضيعت نفسك يا (مطراوى)؟!

اقتربت (لوزة) من (عزيزة) في محاولة أن تصفعها علي وجهها لكن ابعدها الناس وقالت (لوزة) باكية:

ـ ابنك الكلب قتل (أبوي) يا ويلكم انتِ وابنكِ من (عابد) يا

(عزيزة).

واتصلت (لوزة) بـ(عابد) واخبرته بـكل شيء, مر ما يقرب من الساعة وأتي (عابد) مع الشرطة ورأي (عابد) جميع أهل «الواحة» يصطفون أمام البناية؛ فـاخرج الطبنجة من صدره ورفعها متألقا ذو هيبة وكأنه من أولاد الأثرياء في ملبسه وتصرفاته وصاح قائلا:

ـ الكل يمشي من هنا وفورا.

ودلف (عابد) إلي البناية ورأي جثة أبيه مُغطاه بـملاءة ثم دنا من (مطراوى) وأوقفه وراح يصفعه علي وجهه صفعات متتالية, اقتربت (عزيزة) من (عابد) في محاولة أن تبعده عن (مطراوى) لكن (عابد) قبض علي يدها بـكل قوته ورمي بها بعيدا عنه وصاح وقال بـعنف:

ـ ابنك قتل (أبوي) يا (عزيزة) يا خادمة لن اتركه غير علي حبل المشنقة وستعيشين بقية عمركِ باكية عليه, يا ويلكم مني يا (عزيزة) أنتِ وابنكِ الكلب.

كل ذلك و(مطراوى) لا يشعر بـما يدور حوله وجلس أرضا مرة أخري, حملت الشرطة الجثة إلي سيارة الإسعاف وتم معاينة مكان الجريمة وأخذ السكين وقبض (عابد) علي يدي (مطراوى) وأخرجه من البناية وسحله أرضا أمام جميع الناس حتي تمزق قميصه وسرواله وظهرت ملابسه الداخلية وجُرح جسده, اقتربت (عزيزة) من (عابد) مرة أخري وراحت تُقبل يده وصاحت قائلة:

ـ لا يا (عابد) لا تفعل في أخوك هكذا من أجل خاطر أمك.

وهنا قبض (عابد) علي يدي أمه بكل قوته مرة أخري ورمي بها بعيدا؛ فسقطت أرضا باكية وقال (عابد):

ـ لقد مات من كنت احبه, (أبوي) مات يا (عزيزة) من الآن لا أنتِ (أماي) ولا أعرفكِ ولا أريد أن أراكِ مرة أخري في أي مكان وإلا قتلتكِ يا ملعونة, فهمتِ؟

نظرت له أمه غاضبة باكية ولم ترد البتة, وهنا اقتربت (فردوس) من (عزيزة) وحضنتها وراحت تهدي من روعها.

***

وفي مركز شرطة «سيوة» بدأ التحقيق مع (مطراوى) وحكي كل ما حدث بينه وبين (يونس) وأنه كان في حالة دافع شرعي عن النفس ولكن لم يحكي عن سر (يونس) مع أمه و(آمنة) وتم حجز (مطراوى).

وفي اليوم الموالي, أتي (النمروس) وجلس بجوار (عزيزة) في الردهة وراح يبكي بقوة عاليا وقال:

ـ (مطراوى) حبيبي.

خرجت (لوزة) من غرفتها وطردت (النمروس) من المنزل.

تم ترحيل (مطراوى) لعرضه علي النيابة العامة في «مطروح» والتي أمرت بحبسه أربعة أيام مع استدعاء الشهود وهم (لوزة) و(فردوس) و(تينة) و(عزيزة).

انتهي الطبيب الشرعي من فحص جثة (يونس) وتم الدفن

بواسطه (عابد) وبعض أصدقاء عمله ولم يحضر دفنه أحدا من أهل «الواحة» حتي (مهدي) صديقه المُقرب نظرا لـكرهم الشديد له.

أتي (سند) إلي (عزيزة) وطلب منها أن توكل محامي للدفاع عن (مطراوى) وافقت واعطته كل المال الذي أحضره (مطراوى) بعد خروجه من «الغابة» راجية أن يهتم بـالأمر سريعا.

وفي اليوم التالي, ذهب (سند) إلي «مطروح» وبحث عن محامي جنايات, (الأستاذ مخلص) الذي ذهب إلي (مطراوى) في مديرية أمن «مطروح» وأطلعّ علي المحضر وأكد أن مصير (مطراوى) يتوقف الآن علي شهادة الشهود وأخبره (مطراوى) خائفا أن الشاهد الوحيد الذي سمع ورأي كل ما حدث بينه وبين (يونس) هي (لوزة) وأنه قلقا أن لا تشهد بـالحق.

أتي الشهود إلي مقر النيابة العامة في «مطروح» ودخلت (لوزة) أولا وجلست متوترة وسألها وكيل النائب العام عما رأته وقت الجريمة وأجابت:

ـ أنا كنت في حجرتي يا (بيه) وخرجت علي (مطراوى) وهو يطعن (أبوي) بـالسكين في صدره ويقول له, لأزم اقتلك يا (يونس) يا كلب كنت اتمني قتلك من يوم دخولك هذا البيت وتزوجت (أماي).

حدق لها وكيل النائب العام مدهوشا وبـحدة سألها:

ـ كيف و(مطراوى) قال أنكِ رايتي كل ما حصل بينهما قبل أن يطعنه في صدره وانكِ حاولتِ الفصل بينهما؟!

صمتت (لوزة) لـجزء من الثانية ثم ردت متلعثمة متوترة:

ـ لا يا (بيه) أنا لم أري ولا اسمع أي شيء, أنا فقط خرجت وهو يطعن (أبوي) لا تصدقه يا (بيه) (مطراوى) كذاب وهذا طبع فيه الكذب واللئم والخبث.

ـ وكيف كانت علاقة (مطراوى) بـ(يونس) قبل الجريمة؟

راحت (لوزة) تبكي وفرت دموعها إلي وجنتيها وأجابت:

ـ كان (أبوي) يحبه قوي ويعامله مثل ابنه ولم يفرق في يوم بينه وبين (عابد أخوي) ابدا لكن (مطراوى) كان يكره (أبوي) لأنه تزوج (خالتي عزيزة) و(مطراوى) كان رافض زواجهما وطالما كنت اسمع (مطراوى) يهدد (أبوي) بـالقتل لكني لم أكن أتخيل ابدا أنه سـينفذ تهديده.

ـ أتقصدين أنه قتله مع سبق الإصرار والترصد؟!

ـ لا مؤاخذة لا أفهم قصدك يا (بيه).

ـ أتقصدين أن (مطراوى) خطط لـقتل (يونس) وانتظر الوقت المناسب ونفذ هذا؟

ـ نعم يا (بيه) هذا ما حصل بالضبط.

وقعت (لوزة) علي أقوالها وخرجت وراحت تحدق إلي (عزيزة) بـغضب ثم دخلت (فردوس) وقالت أنها عندما سمعت صراخ (لوزة) ركضت مسرعة هي وابنتها ووجدا

(يونس) مُلقي أرضا وبجواره (مطراوى) ولم تري أي شيء أخر وتحدثت عن سمعة (يونس) السيئة وكرهه الشديد لـ(مطراوى) وأن (يونس) تزوج أمه بـالقوة والبلطجة وتحدثت عن (آمنة) وما عانته في حياتها من ابيها وعن طريقة موتها وأنها انتحرت وأنها كانت مخطوبة لـ(مطراوى) لكنها لم تُكمل مع (مطراوى) قبل موتها دون أن يعرف أحدا ما سبب بعدها عن (مطراوى) وهنا سألها وكيل النائب العام:

ـ أتعتقدين أن هناك علاقة بين انتحار (آمنة) وقتل (يونس)؟

ـ في الحقيقة لا أعرف يا (بيه).

بَصمت (فردوس) علي أقوالها وخرجت وجلست بجوار ابنتها و(عزيزة) وكانت (لوزة) تجلس بعيدا عنهم, ثم دخلت (عزيزة) وراحت تقص عن كل المُعاناة مع (يونس) منذ زواجهما وأنها من فعلت بـنفسها و(مطراوى) ذلك منذ زواجها من (يونس) وتحدثت ايضا عن (آمنة) وعلاقتها بـ(مطراوى) وقصة حبهما التي لم تشهدها «الواحة» من قبل؛ فـسألها وكيل النائب العام:

ـ لماذا انتحرت (آمنة)؟

صمتت (عزيزة) تفكر للحظات, هل تخبره بـحمل (آمنة) أم لا ثم ردت متوترة:

ـ ربنا وحده هو العالم بـحالها يا (بيه).

ـ هل هناك علاقة بين انتحار (آمنة) وقتل (يونس)؟

ارتجفت (عزيزة) وردت متوترة بـتلعثم:

ـ أكيد لا يا (بيه).

ـ إذا لماذا قتل (مطراوى) (يونس) وما الدافع وراء هذا؟!

وفي تلك اللحظات بكت (عزيزة) وردت بـخوف:

ـ (مطراوى) لم يقتله يا (بيه), (مطراوى) كان يدافع عن نفسه.

خرجت (عزيزة) ودخلت (تينة) واثقة من نفسها لا يظهر عليها أي توتر أو خوف وقالت أنها دخلت هي وأمها ورأت (يونس) مُلقي أرضا والسكين مغروز في صدره و(مطراوى) بجانبه.

سألها وكيل النائب العام:

ـ من وجهة نظرك لماذا قتل (مطراوى) (يونس)؟

صمتت (تينة) لوهلة ثم بـعينين متسعتين متقدة شرارا حدقت لـوكيل النائب العام وردت:

ـ (مطراوى) طيلة عمره يكره (عمي يونس) منذ أن كنا أطفال و(مطراوى) كان رافض زواج أمه من (عمي يونس) وطالما كان يقول أنه يريد أن يقتل (عمي يونس), (مطراوى) طيلة عمره يحب الشر يا (بيه) وكان يضرب (عمي يونس) كثيرا ويوبخه رغم أن (عمي يونس) كان يعامله مثل ابنه ولم يفرق بينه وبين (عابد بيه) ابدا لكن (مطراوى) عديم الأصل مع من رباه وكان مثل أبوه وقتل (عمي يونس) بعد ما خطط

ودبر وانتهز الوقت المناسب ونفذ وعده لنا بـقتله.

ـ أتقصدين أنه قتله مع سبق الإصرار والترصد؟!

ـ نعم يا (بيه), (مطراوى) كان يخطط لـقتل (عمي يونس) منذ أن تزوج أمه.

***

ذهب (الأستاذ مخلص) و(سند) إلي (مطراوى) واخبره المحامي أن (لوزة) شهدت ضده, وثب (مطراوى) من مكانه كـالثور الهائج مرتجفا وكذّب ما قالته (لوزة) ثم صمت مصدوما, حدق له (سند) واخبره أن هذا هو المتوقع من (لوزة) أومأ (مطراوى) بـرأسه تصديقا علي كلام (سند) وبعد لحظات قال المحامي أن هناك شخص أخر شهد ضده, بـتوتر رمقه (مطراوى) مترقبا لـيكمل المحامي كلامه بـأن (تينة) قالت أنك كنت تخطط لـقتل (يونس) منذ طفولتك يا (مطراوى) وهنا صاح (مطراوى) وقال:

ـ أيعقل أن تقول (تينة) ذلك؟! في الحقيقة صرت مصدوما في كل الناس ولا أفهم ما يحدث معي!

ساد الصمت المكان وراح المحامي ينظر إلي (مطراوى) حائرا متوترا وكأنه يخبره بـهذه النظرات أن وضعه بات صعب في القضية وطلب (مطراوى) من (سند) أنه يريد رؤية أمه في الزيارة القادمة.

عاد (سند) إلي «الواحة» وذهب إلي (عزيزة) واخبرها بـكل ما حدث في الزيارة, راحت تبكي وخرجت (لوزة) من غرفتها

ونظرت لهما باسمة وقالت:

ـ أكنتِ تريدين أن اشهد مع ابنكِ أم ماذا يا خالتي؟! أنسيتِ أن ابنكِ قتل (أبوي)!

وقفت (عزيزة) من مكانها واقتربت منها وصفعتها علي وجهها وقالت:

ـ أنتِ تعلمين جيدا أن (مطراوى) كان يدافع عن نفسه يا كلبه وأن أبوكِ اوشك علي قتله وأنتِ رأيتِ وسمعتِ كل ما حصل بينهما قبل قتل أبوكِ لكنكِ كذبتِ وشهدتِ زور يا مجرمة.

ـ نعم رأيت وسمعت كل شيء وأعلم الحقيقة كاملة وأن (مطراوى) كان يدافع عن نفسه لكني لن أغير أقوالي ولن أهدا ولن ارتاح إلا عندما يلفوا حبل المشنقة حول رقبة ابنكِ القاتل يا الدلعدي يا خالتي.

وهنا راحت (عزيزة) تضربها بقوة حتي فصل بينهما (سند) ودخلت (لوزة) غرفتها.

***

أتي (النمروس) إلي (عزيزة) وطلب منها زيارة (مطراوى) معها لكنها رفضت لصعوبة سفره وأنها ستخبر (مطراوى) سلامه؛ فخرج من البناية غاضبا باكيا.

وفي اليوم التالي, ذهبت (عزيزة) بصحبة (سند) لزيارة (مطراوى) وعندما رأت (مطراوى) اقتربت منه لاهثة

باكية وتعلقت برقبته وراحت تبكي عاليا وهو ايضا يبكي وظلا هكذا لدقائق حتي هدأ كلاهما وخرج (سند) وتركهما وحدهما, وهنا جلس (مطراوى) علي كرسي بجوار أمه وحدق لها وصدمها قائلا...

(16)

«الحياة مليئة بـالأسرار التي طالما نُخفيها في صدورنا, لا نستطيع ابدا أن نبوح بها لـأحد وكأنها حُبست في قلوبنا للأبد, توجعنا كل ليلة قبيل النوم وكأن هدفها عذابنا, طالما نريد أن نتخلص من هذه الأسرار علّ نهدأ ونرتاح ولكن ليس بـأيدينا, أسرار كُتبت علي الجبين كي تراه العين وجعنا وألما, يا لها من حياة غريبة ومثيرة وجعتنا بما يكفي حتي صرنا لا نتحمل كل هذا الوجع والألم.»

ـ لم تكن نيتي قتله يا (أماي) هو من اراد أن يقتلني عندما قُلت له أني سـأخبر (عابد) بـكل ما اعرفه وأنا دافعت عن نفسي, لو لم اقتله كان قتلني و(لوزة) رأت وسمعت كل ما حدث بيننا.

هكذا قال (مطراوى) باكيا لـأمه, حدقت له أمه بـترقب وتوجس وردت:

ـ وما الذي تعرفه يا (مطراوى) واردت أن تقوله لـ(عابد)؟!

صمت (مطراوى) لوهلة وركز في عينيها ثم رد:

ـ سامحيني يا (آمنة) لن استطيع أن أحافظ علي سركِ أكثر من ذلك.

وبـصوت واهن تابع (مطراوى):

ـ (يونس) هو من قتل (آمنة) يا (أماي) بعد ما حَبلت منه وهو من شربها المبيد معتقدا أنه سـيسقط الجنين من بطنها.

وفي تلك اللحظات, شعرت (عزيزة) بالدوار من هول الصدمة وردت متلعثمة:

ـ يا ابن الكلب يا (يونس) حتي بنتك لم تفلت منك.

أجفل (مطراوى) وقال مغتاظا:

ـ هو فعل معكِ مثلها يا (أماي) من قبل وهذا كان سبب زواجكِ منه أم نسيتِ ما حصل؟!

ـ أكنت تعرف يا (مطراوى)؟!

ـ نعم يا (أماي) كنت أعرف لكني قُلت انسي كل ما حصل ولا تخبر أمك به حتي لا يعرف (عابد) حقيقة مجيئه للدنيا.

سالت دموع (عزيزة) وردت:

ـ سامحني يا (مطراوى) أنا من فعلت بك وبنفسي كل هذا, ليتني سقطت الجنين من بطني وقتها ولم اتزوج (يونس) لو كنت أعرف أن كل هذا سيحدث لكني خفت أن أغضب ربنا بقتل روح ليس لها أي ذنب.

بنبرة حانية قال (مطراوى):

ـ لا تحملين نفسك فوق طاقتها يا (أماي) كله شيء قدر ونصيب ومكتوب, أنها اقدارنا قد كُتبت لنا؛ فعلينا أن نتقبلها بسلام.

وصمت (مطراوى) للحظات ما زال ينظر لأمه بعطف وحنان ثم اكمل قائلا:

ـ وعلي فكرة (لوزة) سمعت كل كلامي مع (يونس) قبل موته يا (أماي) وتعرف جيدا أن (عابد) كان السبب في زواجكِ من (يونس) وأنكِ كنت حُبليَ قبل زواجكِ من أبوها وتعرف أن (آمنة) حَبلت من (يونس) وهو الذي قتلها ورغم كل ما عرفِته شهدت ضدي في التحقيق وستكون السبب في لف حبل المشنقة حول رقبتي بعد كل هذا والغريب انها عرفت ما فعله أبوها في (آمنة) وأنه من قتلها ورغم ذلك تجاهلت كل هذا ولم تخبر (عابد) بالحقيقة وهانت عليها (آمنة) أختها.

ـ أنا كنت متأكدة إنها ستشهد زور يا (مطراوى) لكني لم أكن أعرف أنها تعرف ما فعله ابوها في (آمنة) وسبب زواجي من أبوها.

وهنا نهضت (عزيزة) من مكانها وتنفست الصعداء وبحدة قالت:

ـ أنا لأزم ازور (عابد) في الفيلا واعرفه كل شيء من أول سبب زواجي من ابوه وما فعله ابوه في (آمنة).

بغير اكتراث رد (مطراوى) باسما:

ـ لن يصدقكِ يا (أماي) بل من الممكن أن يضركِ وأنا خائف عليكِ.

ـ ماذا سيفعل بي أكثر من ذلك يا (مطراوى) لم يعد هناك أي شيء أبقي عليه يا حبيبي لقد انكشف كل شيء وبما إنهم يريدون أن يتخلصوا منك سأولع في الدنيا كلها ولن أبقي

علي أحدا.

***

كان وقت العصر أتت (فردوس) إلي (عزيزة) وجلست بجوارها في الردهة أسفة علي شهادة ابنتها ضد (مطراوى) في النيابة, لم تقبلُ (عزيزة) أسفها وطردتها وطلبت منها أن لا تأتي لها مرة أخري وتقطع صلتها بها للأبد, غادرت (فردوس) غاضبة لم تكن تتوقع رد فعلها هكذا!

وذات يوم في الصباح, ذهبت (عزيزة) إلي فيلا المأمور واستقبلتها (كارما) وأمها في الحديقة بحب واشتياق, وراحت (كارما) تطيب من خاطرها وطلبت (عزيزة) منهما لقاء (عابد) وانتظرته في الحديقة, ذهبت له زوجته واخبرته بـزيارة أمه وأنها تريد أن تتكلم معه وحدهما لكنه رفض لقاءها وبعد إلحاح من (كارما) وافق, أتي (عابد) إلي أمه التي كانت ما زالت تنتظره في الحديقة علي كرسي ودنا منها وظل واقفا لم يجلس بجوارها وبـغضب حدق لها وقال مغتاظا:

ـ لماذا جئتِ إلي هنا الآن, وماذا تريدين بعد ما فعله ابنكِ في (أبوي) يا ملعونة؟!

وهنا وثبت (عزيزة) من مكانها واقتربت منه وردت غاضبة:

ـ جئت كي أقول لك الحقيقة يا (عابد بيه) وأعرفك كل شيء وما كنت أخفيه عنك لـسنوات كثيرة وهي سنوات عمرك يا (عابد بيه).

ـ ليس هناك أي كلام سـيغير موقفي من ابنكِ القاتل المُجرم

يا (عزيزة).

ـ حتي لو قُلت لك أنك أنت السبب في زواجي من (يونس) وأنت سبب كل ما حصل من مشاكل وتعب لي ولـ(مطراوى) وأنت سبب الشقاء في حياتنا كلها يا (عابد بيه).

وفي تلك اللحظات, صمتت (عابد) لـجزء من اللحظة وتنفست الصعداء ثم اكملت (عزيزة) قائلة:

ـ أنت ابن حرام يا (عابد بيه) اغتصبني ابوك وحَلبتُ منه وبعدها سترت نفسي وتزوجته حتي لا يُفضح أمري في «الواحة» انت ابن زنا يا (عابد بيه).

بـوجوم حدق لها (عابد) وبـعنف رد:

ـ ما كلام الخرافات هذا يا مخبولة يا مجنونة, يبدو أنكِ كبرتِ وخرفتي وتحتاجين دخول مستشفى المجانين؟!

باسمة نظرت له أمه وردت:

ـ إذا لم تصدق كلامي من الممكن أن تسأل (فردوس) وهي ستعرفك كل ما حصل لأنها كانت تعرف كل شيء من البداية وايضا من الممكن أن تسأل (لوزة) التي سمعت كل هذا الكلام بين (مطراوى) وابوك قبل موته وأبوك كان سيقتل (مطراوى) عندما قال له أنه يعرف كل شيء وأنه سيعرفك بالحقيقة كاملة و(مطراوى) دافع عن نفسه وكانت النتيجة هي قتل أبوك.

صمت (عابد) للحظات شاعرا بـالدوار ثم قال مُتحكما

بـنفسه يبدو أنه لا يريد أن يظهر متوترا من كلمات أمه:

ـ لن أسأل احد, كلكم كذابين أنتِ تريدين فقط أن تبرئ ابنكِ المجرم لكن هذا لن يحدث ابدا ولأزم ابنكِ يموت كما قتل (أبوي) ولأزم تعيشين بـحسرتكِ بقية حياتكِ يا مجنونة.

وأستدار (عابد) بعيدا عنها وشرع في مغادرة المكان لكن قالت (عزيزة):

ـ انتظر حتي تعرف بقية الكلام يا (عابد بيه).

أستدار لها مرة أخري وبـتمعن وترقب حدق لها وتابعت أمه:

ـ ابوك هو من قتل (آمنة) بـمبيد دودة القطن بعد ما حَبلت منه معتقدا أن المبيد سيسقط ما في بطنها, ابوك القذر الوسخ النجس كرر ما فعله معي مع بنته واغتصبها وكانت النتيجة أن (آمنة) حَبلت منه.

وفي تلك اللحظات, دنا (عابد) من اقرب كرسي بعد أن شعر بـالدوار كاد أن يسقط مغشيّ عليه وجلس عليه واضعا كفيه علي رأسه لـدقائق ثم نظر لـأمه ورد مُتهمتها:

ـ أنتِ كذابة, مستحيل (أبوي) يفعل كل هذا!

ـ اعتبرني بالفعل كذابة يا (عابد بيه) ولكن من الممكن أن تُطابق تحليل الجنين الذي كان في بطن (آمنة) مع تحليل ابوك وسـتتأكد من كل شيء لكنك لن تفعل ذلك لأنك لا تريد أن تصدق الحقيقة التي رفضها عقلك الآن, وحقيقي عندك حق لا تصدق لأن ما فعله أبوك ليس من فعل بشر ولا حتي

من فعل الشيطان نفسه, أبوك تفوق علي الشيطان نفسه يا (عابد بيه).

«هناك حقائق لا نريد أن نعرفها من شدة قسوتها, يرفضها العقل حتي لا نُصدقها رغم تأكدنا من صدقها».

وهنا وثب (عابد) من مكانه واقترب من أمه وقبض علي ذراعِها بقوة؛ فـتألمت وبـنفاذ صبر قال:

ـ لا اريد أن اسمع ولا كلمة أخري وإلا قتلتكِ يا ملعونة في الحال.

ـ اقتلني يا (عابد بيه) لم تعد الدنيا فارقة معي بعد (مطراوى) لأزم تعرف أني لن اسكت ولأزم الكلبة (لوزة) تشهد بـالحقيقة كلها وكل ما سمعته بين (مطراوى) وابوك النجس قبل موته, لن اترك ابني يدفع ثمن غلطات ابوك وثمن كل خطايا أبوك الملعون, لن اترك (مطراوى) يُعدم وانت تعيش حياتك مُستمتع بـالدنيا مثل ولاد الباشوات يا (عابد).

وفي تلك اللحظات, قبض علي ذراعِها بقوة وسحلها أرضا نحو بوابة الفيلا أمام الحارس وراحت أمه تصرخ بقوة حتي رماها في الشارع أمام الفيلا وصاح قائلا:

ـ أمشي من هنا ولا اريد أن أراكِ مرة أخري في أي مكان وإلا قتلتكِ يا ملعونة.

ثم دلف (عابد) إلي الحديقة ووجد (كارما) وأمها يقفان يحدقان له مدهوشتان مما فعله في أمه للتو؛ فـنظر لهما وقال:

ـ من فضلكم أريد أن أكون وحدي الآن.

غادرا المكان ودلفا الفيلا وجلس (عابد) علي كرسي محدقا للأرض تائها واضعا يديه علي رأسه وغمغم:

ـ لماذا فعلت كل هذا يا (أبوي) معقول يكون هذا هو السر الذي طالما انتظرت أن أعرفه وراء زواج (أماي) منك, معقول أكون أنا ابن حرام وابن زنا, معقول تكون أنت من قتلت (آمنة) يا (أبوي)؟!

وفرت الدموع من عيناه ونشج باكيا بصوت عالي محاولا أن يخفي دموعه حتي لا يراها أحد, وهنا أتي (آسر) ودنا منه محدقا له وبصوته الطفولي العذب قال:

ـ لماذا تبكي يا (بابي)؟!

لم يعر سؤاله اهتماما وظل يبكي بحرقة وتابع (آسر):

ـ أريد (تيتة عزيزة) يا (بابي) أين ذهبت؟!

ـ ذهبت إلي بيتها في «الواحة» يا حبيبي.

ـ كنت أريد أن أذهب معها إلي «الواحة» يا (بابي).

ـ أنساها يا (آسر) وأنسي «الواحة», فهمت؟

وفي تلك اللحظات أتت (كارما)؛ فحدق لها (عابد) بعنف وقال مغتاظا:

ـ خذي (آسر) الآن, أريد أن أكون وحدي.

وظل (عابد) جالسا وحده يفكر في كل ما قالته له أمه

وكأنه في حلم أو كابوس لا يريد عقله أن يصدق أية كلمة واحدة مما قالتها أمه متمنيا أن تكون كذبت عليه فيما قالت.

(17)

مرت الأيام تباعا وانتهت التحقيقات في قضية قتل (مطراوى) لـ(يونس) وقد حُددت الجلسة في محكمة «مطروح» يوم الخامس عشر من شهر يونيو هذا العام, ويوم المُحاكمة ذهبت (عزيزة) و(سند) و(فردوس) و(تينة) و(لوزة) ودخلوا جميعا قاعة المحكمة ينتظرون دخول القضاة ووكيل النائب العام, (مطراوى) كان داخل القفص الحديدي وبجواره أمه تتحدث معه وتهون عليه حتي نادي حاجب المحكمة عاليا:

ـ محكمة.

وقف الجميع ودلف ثلاثة قضاة وجلسوا علي المنصة, وهنا حدقا (مطراوى) وأمه جيدا لـمنصة وكيل النائب العام وشعرت (عزيزة) بـالدوار كادت أن تسقط مغشيّ عليها عندما رأت (عابد) ينظر لها باسما ساخرا من أعلي منصة وكيل النائب العام, يا للهول سيكون (عابد) هو وكيل النائب العام في جلسة المحاكمة بعد أن طلب ذلك من وكيل النائب العام الذي قام بـالتحقيقات من قبل.

وفي تلك اللحظة, فرت الدموع من عيني (عزيزة) ونظرت إلي (مطراوى) دون أن تتفوه بـأية كلمة ثم تحركت بـبطء كادت أن لا تُحملها قدميها وجلست علي مقعدا في أول القاعة بجوار (سند), و(لوزة) كانت تجلس خلفها تنظر لها ولـ(مطراوى) باسمة شامتة وبدت سعيدة الآن بـشكل

(مطراوى) داخل القفص الحديدي, وهنا نادي الحاجب علي القضية وشرع وكيل النائب العام (عابد بيك) في حديثه وشرح القضية كاملة وتابع:

ـ أن هذا المجرم قد أرتكب جريمته مع سبق الإصرار والترصد ولذا أطالب بالقصاص منه ومن جريمته الشنعاء ضد المجتمع أجمع بأقصى عقوبة وهي الإعدام شنقا دون رحمة أو شفقة حتي يكون عبرة لغيره.

ونظر (عابد) لأمه باسما ساخرا وكأنه يعذبها بنظراته الثاقبة الآن, وهنا وقفت (عزيزة) ونظرت إلي (عابد) والدموع تسيل من عيناها كغيث فجره الحزن والألم والحسرة والكسرة؛ فنادي عليها القاضي:

ـ أجلسي مكانك وإلا أخرجتك من القاعة.

جلست (عزيزة) مكانها وراحت تحدق إلي (مطراوى) باكية وبادلها (مطراوى) بنظرات مطمئنة خوفا عليها ونادي القاضي علي الشهود وشهدت (عزيزة) و(لوزة) و(فردوس) و(تينة) بنفس شهادتهم أمام النيابة ثم بدأ (الأستاذ مخلص) في المرافعة والدفاع عن (مطراوى) ما يقرب من النصف ساعة, وفي نهاية الجلسة قال القاضي:

ـ تؤجل القضية للنطق بالحكم في الخامس عشر من شهر أغسطس القادم.

شرع الجميع يخرجون من القاعة وهرولت (عزيزة) ناحية (مطراوى) ووقفت بجواره وقالت باكية:

ـ لا تخاف يا حبيبي أن شاء الله خير.

بـنظرة رضا وبـنبرة هادئة رد عليها (مطراوى):

ـ كل شيء قدر ومكتوب يا (أماي) أنا لا أخاف القدر مهما كانت النتيجة, «ما كُتب علي الجبين لأزم تراه العين يا (أماي)».

خرجت (عزيزة) و(سند) في رواق المحكمة وراحت (عزيزة) منكسرة تحدق علي مرمي بصرها إلي (عابد) الذي كان يقف مع (لوزة) متألقا منتصب الجسد ثم هرولت وذهبت له وقالت:

ـ حتي بعد كل ما قُلته لك يا (عابد) ستترك أخوك يُعدم؟!

أومأ (عابد) ايجابا زامّا شفتيه باسما ورد:

ـ أنا أصلا لم أصدق أية كلمة من الذي قولتيها يا (عزيزة) أو بـمعني أخر لا اريد أن أصدقكِ من الأساس ولن أهدأ ولن ارتاح حتي أري ابنكِ الكلب مُعلق علي المشنقة بـنفسي لـذلك حتي لو كنتِ صادقة في كلامك ليس مهم عندي كل هذا ولن اهتم به مطلقا يا ملعونة وهيا أمشي من هنا حتي لا أنادي علي الأمن يحبسك.

بـوجوم الكون كله حدقت له أمه وهي ترتشف دموعها وردت:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا (عابد) يا ابن بطني وربنا يسقيك من نفس الكأس الذي شربت منه وبشرب منه الآن

وتذق طعم النار في قلبك.

لم يكترث (عابد) لكلماتها وراح ينظر إلي (لوزة) باسما وضحكت (لوزة) شامتة مجددا علي (عزيزة).

عاد (عابد) إلي الفيلا مساءا وحكي لزوجته وأمها عن كل ما حدث في المُحاكمة اليوم؛ فسألته (كارما) مدهوشة:

ـ وهل ستترك أخوك يُعدم هكذا؟! أرجوك ساعده من أجل خاطر أمك يا (عابد).

لم يهتم لرجائها وتنفس الصعداء باسما وغادر بهو الفيلا متجها إلي غرفته.

***

الأيام تمر علي (عزيزة) كالجحيم وقد خرجت تعمل في حقول «الواحة» من جديد لتوفر احتياجات (مطراوى) داخل السجن لكنها لم تعد تتحمل العمل كما كانت تفعل في شبابها, وذات يوم ذهبت إلي فيلا المأمور وقابلت (فاتن هانم) وجلسا معا في الحديقة وطلبت (عزيزة) منها العمل مرة أخري في الفيلا لاحتياجها المال, وهنا نهضت (فاتن هانم) من مكانها مدهوشة وقالت مغتاظة:

ـ كيف و(عابد) يعيش معنا يا (عزيزة) ومن الممكن أن تحصل مشكلة كبيرة لو عرف أنكِ تعملي هنا؟!

اقتربت (عزيزة) منها وترقرقت عينيها بالدموع وردت:

ـ ممكن أجيء في الثلاثة أيام التي يكون فيها في عمله في

«مطروح» واوعدكِ أنه لن يلمحني في الفيلا ابدا يا (هانم).

صمتت (فاتن هانم) تفكر لـدقائق ثم قالت بـتوتر:

ـ أنا موافقة يا (عزيزة) بـشرط أن لا يراكِ (عابد) هنا ابدا, أنا سـأفعل ذلك لأني أحبكِ وأريد أن أساعدكِ.

وهنا دخلت (فاتن هانم) الفيلا واحضرت مبلغا من المال واعطته لـ(عزيزة)؛ فـاقتربت (عزيزة) منها وقبلت يدها شاكرة لها وهمت بـالخروج من الفيلا, وهنا خرج (آسر) من باب الفيلا وركض نحو (عزيزة) سريعا وتعلق بـرقبتها وراح يقبلها وقال:

ـ (تيتة عزيزة) حبيبتي, لماذا لا تعيشين معنا هنا في الفيلا يا (تيتة)؟

ضمته (عزيزة) بين ذراعيها وراحت تقبله بـنهم وردت باكية:

ـ أن شاء أجي مرة أخري الفيلا يا حبيبي لكن لأزم أمشي من هنا الآن.

وغادرت (عزيزة) الفيلا ودخلت (فاتن هانم) إلي بهو الفيلا واخبرت (كارما) بـكل ما حدث بينها وبين (عزيزة) ورفضت (كارما) عملها في الفيلا بشدة خوفا من زوجها ولكن أقنعتها أمها أنها سـتأتي وقت غيابه عن الفيلا وأنها تريد أن تساعدها في محنتها وتعطف عليها.

مر يوما وأتت (عزيزة) إلي الفيلا وبدأت العمل بها وكلفتها

(فاتن هانم) بعمل خفيف وبدأ يتعلق (آسر) بـ(عزيزة) يوما بعد يوما ويلعب معها في الحديقة سعيدا وكأنه يحلق في السماء كالعصفور الصغير.

ومر أسبوعين علي (عزيزة) وهي تعمل في الفيلا, وفي أحد الأيام رجع (عابد) علي غير العادة قبل موعده ودلف بسيارته من البوابة, وهنا رأي أمه وهي تلعب مع (آسر) في الحديقة ركن سيارته واتجه مُسرعا نحوهما وصاح (آسر) ينادي عليه بعد أن راه, وفي تلك اللحظة, ركضت (عزيزة) بين أشجار الزينة في الحديقة في محاولة أن تختبئ من (عابد) ولكنه لحق بها وبحدة صاح بأعلى صوته بعد أن قبض علي ذراعها بقوة وتألمت:

ـ لماذا جئتِ هنا مرة أخري يا مخبولة يا ملعونة؟ أنا قلت لكِ من قبل أني لا أريد أن أراكِ مرة أخري في أي مكان!

فرت الدموع من عيني أمه وردت:

ـ حاضر يا (عابد بيه) لن أجيء هنا مرة أخري ولكن بالله عليك اترك ذراعي يا ابني لأنه يؤلمني.

وهنا صرخ (آسر) ودنا من أبيه سريعا وراح يضربه بقوة وصاح قائلا:

ـ اترك (تيتة عزيزة) يا (بابي).

وفي تلك اللحظات, خرجت (كارما) وأمها من الفيلا علي صراخ (آسر) وهرولا نحوهم ورأت (كارما) ابنها يضرب ابيه, وهنا ترك (عابد) ذراع أمه وبدون أن يشعر بنفسه تملك من

كل قوته وصفع (آسر) علي وجهه؛ فسقط (آسر) أرضا وسال الدم من فمه وأنفه وصاحت (كارما) صارخة:

ـ ابني حبيبي.

اقتربت (كارما) من ابنها وأوقفته وراحت تمسح الدم من وجهه ثم حدقت لزوجها وبنبرة عنيفة وعيناها متقدة شرار قالت:

ـ كفي كل هذا يا (عابد) طيلة عمرك وأنت قاسي علي أمك وأخواتك ولكن لن اسمح لك أن تتعامل مع ابني بهذه القسوة وتعلمه أن يكون قاسي مثلك.

بغضب حدق (عابد) لأمه وصاح مغتاظا:

ـ أتعجبين مما حصل الآن؟ لقد ضربت ابني لأول مرة بسببك يا ملعونة.

وهنا اقتربت (عزيزة) من (آسر) وقبلته وقالت بكسرة نفس:

ـ أنا أسفة يا (آسر) يا حبيبي, أنا السبب في كل هذا.

ثم نظرت (عزيزة) إلي (كارما) باكية وتابعت أسفة:

ـ أنا أسفة يا (كارما هانم) أني كنت السبب فيما حصل لـ(آسر) ولن ادخل الفيلا مرة أخري ابدا مهما حصل وشكرا علي مساعدتكِ لي يا (فاتن هانم).

لم يرد عليها أحدا البتة؛ فنظرت (عزيزة) إلي (عابد) وبصوت واهن تابعت:

ـ لن ادخل الفيلا مرة أخري يا (عابد بيه) ولن تري وجهي في أي مكان لكن اريد أن اقول لك شيء قبل أن أمشي من هنا.

وصمتت (عزيزة) للحظة ثم اكملت:

ـ أنا جئت هنا أخدم من جديد كي أصرف علي أخوك في السجن, أخوك الذي علمك ورباك هو و(آمنة) أتتذكر (آمنة) وما حصل لها أم نسيتها ونسيت كل ما فعلته من أجلك ونسيت كيف ماتت (آمنة).

وراحت (عزيزة) تبكي بحرقة وتابعت:

ـ وعلي فكرة سكوتك علي ما حصل لـ(آمنة) بعد ما قلت لك الحقيقة كاملة, أنت بذلك شاركت في ظلم (آمنة) مرتين, مرة وهي عايشه بقسوتك عليها ومرة بعد موتها عندما عرفت الحقيقة وكل ما حصل لها وتجاهلته حتي تنتقم فقط من (مطراوى) ولو كان ذلك علي حساب (آمنة) وأنك ترجع لها حقها بعد موتها.

وفي تلك اللحظات, حدقت (كارما) وأمها إلي (عزيزة) مُتعجبين من كلامها الغير مفهوم ثم راحا ينظران إلي (عابد) نظرات تحمل كثيرا من الأسئلة يريدان أن يعرفان ماذا تقصد أمه بكلماتها؟ وغادرت (عزيزة) الفيلا باكية مع بكاء الشمس برحيلها وقت الغروب.

***

كان (مطراوى) جالسا ساندا ظهره علي جذع الشجرة ليلا وحده داخل «الغابة» يحيطه صرير أشجارها الكثيفة تحت الظلام الداكن, ليس هناك أي شعاع نور شاعرا بالخوف مرتجفا من هذا الظلام الغير مسبوق وفجأة انفرجت أسارير وجهه وتوردت وجنتيه بالابتسامة عندما رأي شعاع نور فجَ الأشجار واقترب نحوه, ظل يحدق جيدا حتي وصل حامل هذه الشعلة من النار ووقف أمامه وراح يحدق له باسما وقال:

ـ كيفك يا (مطراوى)؟ وحشتني قوي يا حبيبي.

وهنا وثب (مطراوى) من مكانه مصدوما مدهوشا وراح يقترب من حامل الشعلة ورد:

ـ (آمنة) حبيبتي, وحشتِني قوي يا (آمنة).

ابتعدت عنه سريعا وقالت:

ـ لا تقترب مني أكثر من ذلك يا (مطراوى)!

ـ لماذا يا (آمنة)؟ اريد أن اقترب منكِ واحضنك الآن يا حب العمر كله.

ـ للأسف صار مستحيل يا (مطراوى) لكن لا تقلق عليّ أنا عايشه معك وحولك هنا في «الغابة» وفي كل مكان, لكني جئت الآن اعاتبك علي ما فعلته في نفسك وقتلت (أبوي) لم أكن أريد أن تكون أنت ضحية كل ما فعله (يونس) من خطايا يا (مطراوى).

ـ لست أنا وحدي ضحية خطايا (يونس) يا (آمنة), (أماي)

وأنتِ كنتم ضحاياها من قبلي.

راحت تحدق له بخوف وتوتر وترقب ثم استدارت بوجهها بعيدا عنه وركضت سريعا بين الأشجار حتي توارت تماما واختفي النور معها وظل (مطراوى) وحده تحت ظلام الليل, راح يركض بين الأشجار كالمجنون ينادي عليها لكنها لم ترد البتة, وفي تلك اللحظات استيقظ (مطراوى) من نومه داخل السجن ليلا والجميع حوله في سبات عميق صارخا ونادي قائلا:

ـ (آمنة), (آمنة) وينكِ يا (آمنة)؟

ظل يصرخ حتي استيقظ المساجين من حوله وراحوا يحدقون له مُتعجبين من أمره!

***

مر أسبوع منذ ضرب (عابد) لـ(آسر) وفي صباح هذا اليوم استيقظت (كارما) من نومها علي غناء العصافير أعلي الأشجار في الحديقة وذهبت إلي غرفة (آسر)؛ فوجدته ينزف من أنفه بشدة, أتي (عابد) علي صراخها ورفع رأس ابنه لأعلي في محاولة لوقف النزيف ثم حمله علي يديه وذهب للحمام كي ينظف وجهه وبينما يقوم بغسل وجهه وتغيير ملابسه رأي ورم تحت أبط (آسر) وهنا شعر (عابد) بالخوف وحدق لزوجته مرتجفا وقال:

ـ لأزم نسافر إلي «الإسكندرية» اليوم كي نعرض (آسر) علي الطبيب ونطمئن عليه.

أومأت (كارما) برأسها إيجابا دون أن تتفوه بأية كلمة.

وفي عيادة الطبيب في «الإسكندرية» تم إجراء الكشف علي (آسر) بدقة وطلب الطبيب بعض التحاليل الهامة, مر يومين وذهب (عابد) وحده بنتيجة التحاليل للطبيب وجلس علي مقعدا أمامه وبدأ الطبيب يقرأ التحاليل وبعد خمس دقائق حدق الطبيب إلي (عابد) بوجوم وبنبرة حزينة قال...

(18)

«طالما أردت أن أخذُ حقي ممن ظلمني لكني لم أستطيع نظرا لـقوة وجبروه الظالم, فقط سلمت أمري لله هو العدل لن يقبل الظلم ابدا, ما أعظم الدنيا حينما تدور, سـتُلقنُ الظالم درسا بـعمره كله علّ يرجع إلي صوابه ويدرك أن هذه الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة.»

ـ للأسف (آسر) مصاب بـسرطان دم يا (عابد بيه).

حزينا قال الطبيب هكذا, وهنا صمت (عابد) تماما من شدة وهول الصدمة للحظات وحاول أن يقف لكنه لم يستطيع, وبـعينين ترقرقت بـالدموع حدق للطبيب وبـصوت واهن قال:

ـ لا يا دكتور أرجوك لا تقول هذا.

ـ للأسف هذه هي الحقيقة يا (عابد بيه) التي من المستحيل أن ننكرها ولأزم نبدأ العلاج في أسرع وقت, والعلاج في هذه الحالات المفروض يكون بسرعة حتي تكون النتائج أفضل أن شاء الله.

سالت دموع (عابد) بـالبكاء كـالمطر الغزير وتبدّل حاله تماما في لحظات وصار وجهه شاحبا وكأنه كبر مائة عام علي عمره وقال مُنتهتها حزينا:

ـ (آسر) حبيبي, لماذا أنت, لماذا يا رب تريد أن تعاقبني في ابني؟ ربنا عالم إني احبك أكتر من نفسي يا (آسر) لذلك

يريد أن يعذبني بك, لماذا يا رب؟ كنت عاقبني أنا, ابني لن يستطيع أن يتحمل هذا الاختبار والعقاب الصعب.

ظل (عابد) يردد هذه الكلمات تائها شاردا ونهض من مكانه وغادر عيادة الطبيب دون أن يعرف إلي أين يذهب وكيف سيخبر زوجته؟! توجه بسيارته ناحية البحر وركنها وهبط منها ودنا من صخرة بجوار البحر مباشرة راح الموج يرتطم بها وجلس أعلاها ما يقرب من الساعتين وكأنه لا يعي الدنيا من حوله ابدا, ثم عاد لشقتهم في «الإسكندرية» ودخل من الباب وجلس علي أقرب كرسي في الردهة ووضع يديه علي رأسه ناظرا للأرض باكيا, وهنا اقتربت منه (كارما) وربتت علي كتفه وقالت:

ـ ماذا بك يا (عابد) وماذا قال الدكتور لك؟

رفع رأسه والدموع ما زالت تسقط من عيناه ورد:

ـ سرطان دم, (آسر) مصاب بسرطان دم يا (كارما).

وفي تلك اللحظات, شعرت (كارما) بالدوار وسقطت مغشيّ عليها, وأفاقت بعد دقائق وحدقت إلي (عابد) باكية وقالت:

ـ مستحيل يا (عابد) لماذا يا رب (آسر)؟ لن استطيع أن اعيش في الدنيا ثانية واحدة لو اصابه أي مكروه.

وركضت (كارما) سريعا لغرفة ابنها وحضنته باكية؛ فحدق لها (آسر) خائفا مرتجفا وقال:

ـ لماذا تبكي يا (مامي)؟!

وهنا دنا (عابد) من (آسر) وضمه لـصدره بقوة وقال:

ـ لا شيء يا حبيبي, (مامي) خائفة عليك ليس أكثر.

وخرجا من غرفة (آسر) وطلب (عابد) من زوجته أن تتماسك أمام (آسر) حتي لا يعرف شيء وتتأثر نفسيته, جلست (كارما) في الردهة باكية وهاتفت أمها واخبرتها بـمرض (آسر) ثم طلبت من (عابد) أن يسرع بـالحجز في أكبر مستشفى أورام أطفال في «المانيا» وأن ابنها لن يعالج في «مصر» ووافق (عابد) مباشرة دون أي نقاش أو جدال.

وفي اليوم التالي, عادوا إلي «سيوة» وجلسوا جميعا في بهو الفيلا وطلب منهما المأمور أن يسافر معهم إلي «المانيا» لكن (عابد) رفض وأصرت (فاتن هانم) أن تسافر مع ابنتها وأنها لن تتركها وحدها ولكن رفض (عابد) ورفضت (كارما).

مر يومين وسافروا إلي «المانيا» وبعد إجراء كل الفحوصات اللازمة, بدأ العلاج الكيماوي بـجرعات مكثفة في محاولة للسيطرة علي المرض قبل أن يتمكن من جسد (آسر).

***

وفي «الواحة» ذهب (سند) ذات يوم إلي (عزيزة) وجلس علي أريكة (مطراوى) وسألها إذا كانت سـتذهب معه لـزيارة (مطراوى) هذه المرة أم لا وردت بـالموافقة, وهنا خرجت (لوزة) من غرفتها متجهه للمطبخ وحدقت إلي (سند) بـغضب كادت أن تحرقه بـنظراتها وراح ينظر لها (سند) بـكره وغضب هو الأخر ثم قال مغتاظا لـ(عزيزة):

ـ ما زلت مُتعجبا من موقفك مع هذه الأفعى يا خالتي بعد شهادتها الزور ضد (مطراوى) وما زالت تعيش معكِ هنا وكأنها لم تفعل شيء, كنت اعتقد انكِ سترميها في الشارع لأنها كذابة وشهدت زور علي (مطراوى) يا خالتي رغم انها تعرف الحقيقة كاملة وأن (مطراوى) كان في حالة دفاع شرعي عن نفسه!

حدقت له (عزيزة) باسمة وبهدوء ردت:

ـ أي شخص مكاني كان من المفروض أن يفعل معها ما قلته الآن بالضبط يا (سند) لكن لو فعلا طردتها من هنا أين ستعيش؟ كلاب الطرق ستنهش لحمها وهي بنت ولأزم أحافظ عليها من أجل خاطر (آمنة) الله يرحمها, أنا بالفعل فكرت أطردها لكن افتكرت (آمنة) التي كانت في قلبي وما زلث احبها حتي بعد موتها, (آمنة) هي من شفعت لهذه الأفعى عندي يا (سند).

ـ أنتِ قلبكِ طيب قوي يا خالتي.

وصمت (سند) هنيهة ثم سألها:

ـ ولماذا لا تذهب وتعيش مع (عابد بيه) الذي خطط ودبر وقال لها تشهد زور علي (مطراوى)؟!

ابتسمت (عزيزة) ساخرة وردت:

ـ لو ذهبت إلي (عابد) سيطردها ولن يوافق ابدا أنها تعيش معه من الأساس حتي لو باتت في الشارع, (عابد) ابني وأنا اعرفه جيدا لا يحب احد إلا نفسه حتي (لوزة) أخته,

هو فقط يستغل (لوزة) ليس أكثر كي ينتقم من (مطراوى) وللأسف نحج في ذلك, «عيني عليك يا (مطراوى) وعلي حظك الأسود يا ابني».

وهنا فرت دموع (عزيزة) ونظر لها (سند) مدهوشا من كلماتها ولم يتفوه مجددا وغادر البناية.

***

كنا نلعب ونمرح بين كثبان الرمل والوديان في «الواحة» فرحين بجمال الطبيعة الساحرة, أجسادنا تتصبب عرقا وتلتصق بها حبات الرمل الصفراء وتملأ مسام جلودنا؛ فيتحول لون بشترتنا بلون الرمل الذي راح يلسعنا تحت الشمس الحارقة, لكن مع كل هذا ما زلنا نلعب سعداء وكأننا نتنفس غبطة وسرور, تدوي ضحكاتنا في السماء, نسقط فوق الرمل الذي أحيانا يسحبنا بسرعة أسفل الوادي وكأننا نلعب لعبة في ملاهي المدن الكبرى, وعندما نشعر بالإرهاق والتعب سرعان ما نذهب ونجلس تحت النخيل نستظل بظله من أشعة الشمس نأكل من بلحه ونشرب من ماء الآبار حتي نرتوي ونرتوي وننظر لبعضنا البعض فرحين بما أتاهم الله من فضله, كنا هناك أطفال صغار لم نفهم الدنيا بعد أنا و(آمنة) و(سند) و(تينة) لو كنا نعلم ما تخبئه لنا الدنيا ما كنا اردنا أن نكبر ونصير شباب, «ليتنا مكثنا أطفالا لم نكبر ابدا.»

صرخ (مطراوى) داخل محبسه وهو يجلس في وضع القرفصاء بجسده الضعيف مكور كالكورة بين بعض المساجين وصاح قائلا:

ـ وينكِ يا (آمنة)؟

حدق له من حوله باسمين ساخرين معتقدين أنه قد أصابه الجنون, وهنا لام نفسه علي ما صاح به وصمت البتة بعد أن ظهرت الدموع في عيناه, ودنا منه مسجونا شابا وربتّ علي كتفه وقال في محاولة أن يهدي من روعه:

ـ هون علي نفسك يا (مطراوى) أنها قضية قتل يا صاحبي وربنا وحده الذي يعلم ماذا سيكون الحكم فيها.

وهنا أرتجف جسد (مطراوى) وارتعشت أطرافه ولم يتفوه بأية كلمة مجددا.

***

داخل المستشفى في «المانيا» و(آسر) في جلسة العلاج الكيماوي نظر إلي أبيه وقال:

ـ اريد أن ازور (تيتة عزيزة) يا (بابي).

راح (عابد) يلمس علي رأسه بهدوء ثم قبله من خده وقال:

ـ أوعدك عندما نرجع «مصر» سنزور (تيتة عزيزة) في «الواحة» يا حبيبي.

وهنا رفع (آسر) رأسه لأعلي وقال:

ـ يا رب أرجع «مصر» قريب كي ازور (تيتة عزيزة) وأنام في حضنها.

تحرك (عابد) نحو النافذة وراح ينظر للشارع وغمغم مع

نفسه بـهدوء:

ـ يا رب أشفي (آسر) من هذا المرض اللعين وأن شاء الله عندما أرجع «مصر» سـأذهب إلي أمي وأبوس يديها وقدميها واطلب منها أن تسامحني علي كل ما فعلته معها, يا رب عاقبني أنا ولا تؤذيني في ابني.

ظل (عابد) يحدث نفسه هكذا حتي انفجر بـالبكاء وفرت الدموع من عيناه, وهنا اقتربت منه (كارما) وقالت:

ـ كفي بكاء يا حبيبي, أن شاء الله ربنا لن يخذلنا ابدا وسـنرجع «مصر» مجبورين الخاطر ومعنا (آسر) بعد شفائه.

بـتمعن حدق لها (عابد) باكيا ورد:

ـ أنا خائف يا (كارما) أول مرة في حياتي أخاف, حاسس أن...

قاطعته (كارما) بـحده وقالت غاضبة:

ـ ولا كلمة ثانية يا (عابد) أن شاء الله ابني ربنا يشفيه ونرجع «مصر» وهو بخير.

***

وفي زيارة (عزيزة) و(سند) لـ(مطراوى) ركض (مطراوى) سريعا إلي أمه عند رؤيتها وحضنها بين ذراعيه وراح يبكي عاليا وقال:

ـ وحشتِني قوي يا (أماي) ووحشني حضنكِ, كيف حالكِ يا (أماي)؟

ظلت أمه في حضنه لـدقائق دون أن تتفوه بـأية كلمة وكأنها طالما كانت تبحث عن حضن ابنها ترتاح به من الهم والحزن الذي تعيشه ثم ردت باكية:

ـ وأنت وحشتني قوي يا روح أمك وقلب أمك, أنا بخير طالما أنت بخير يا (مطراوى).

وهنا اقترب (سند) من (مطراوى) وضمه لـصدره ثم جلسوا يتحدثون طوال وقت الزيارة واظهر (مطراوى) خوفه من تأجيل النطق بـالحكم في القضية ولكن أمه وصديقه راحا يطمئناه.

***

مر شهر علي علاج (آسر) وتم عمل التحاليل مجددا وأخبر الطبيب المعالج (عابد) أن استجابة (آسر) للعلاج ضعيفة جدا نظرا لـضعف مناعته, وهنا شعر (عابد) بـالخوف وشرع قلبه يخفق بسرعة وارتجفت أطرافه وبـتمعن حدق للطبيب وقال:

ـ ماذا تقصد بـكلامك هذا يا دكتور؟

صمت الطبيب لوهلة ثم أجاب:

ـ في الحقيقة سـنفعل ما علينا ولكن نتائج التحاليل غير مطمئنة.

ترقرقت عيني (عابد) بـالدموع وتابع مخنوقا بـالبكاء:

ـ أرجوك يا دكتور أفعل المستحيل كي يُشفي ابني.

«لقد أدركت جيدا أن أكثر ما يذل الإنسان في هذه الدنيا هو المرض, كل شيء في الدنيا له ثمن لكن هناك أشياء لا تُقدر بـثمن ابدا وهي الصحة والعافية.»

مر أسبوعين أخرين علي (آسر) داخل المستشفى وبدأت تسوء حالته أكثر, تبدّلت ملامحه وسقط شعره وفقد جماله ودخل في غيبوبة أثناء تلقي العلاج الكيماوي, صرخت أمه وجاء الطاقم الطبي وتم نقله إلي غرفة العناية المركزة, فات يومين وهو ما زال في غرفة العناية, وفي مساء اليوم الثالث كانت (كارما) تجلس أمام الغرفة مع (عابد) وقد سلما أمرهما لله, وثبت (كارما) من مكانها مفزوعة ووضعت يدها اليمني علي قلبها الذي راح يخفق بقوة, وبـدموع حدقت إلي (عابد) وقالت:

ـ أنا حاسة من الصباح أن شيء سـيحصل, أنا خائفة يا (عابد) أول مرة في حياتي أخاف وأحس بـالعجز والكسرة هكذا, يا رب لا تعذبني في ابني واشفيه ورده لي سالما.

وانهمرت (كارما) بـالبكاء, وهنا دنا منها زوجها وضمها لـصدره وقلبه يتقطع ولم ينطق البتة, وفي تلك اللحظات, خرج الطبيب من غرفة العناية وحدق لهما صامتا للحظات ثم قال متلعثما بـهدوء:

ـ أنا أسف, (آسر) مات.

صرخت (كارما) بـأعلى صوتها ودوي صوتها في جميع أنحاء المستشفى حتي سقطت مغشيّ عليها وراح (عابد)

يصرخ كالمجنون بكلام غير مفهوم.

وفي اليوم التالي, عادوا إلي «مصر» ودُفن (آسر) في «سيوة» وأُقيم العزاء في الفيلا ولم تعلم (عزيزة) و(لوزة) بموت (آسر).

***

وفي محبسه ذات ليلة نظر (مطراوى) من نافذة صغيرة والجميع حوله في سبات عميق وحدق جيدا ورأي القمر بدرا, وثب من مكانه سريعا وظل يحدق للقمر حتي رأي (آمنة) بجوار القمر ترقص حوله بسكون, وهنا تورد وجه (مطراوى) بالابتسامة فرحا وتنهد بقوة هائما في حب النجمة (آمنة) وغمغم:

ـ (آمنة) حبيبتي أخيرا رأيتك من جديد, وحشتِني قوي يا (آمنة).

ظل ينظر إلي (آمنة) ويتحدث معها بهمهمات غير مفهومة حتي توارت في ظلام الليل الحزين ثم أخلد إلي النوم بهدوء.

***

باتت فيلا المأمور حزينة طوال الوقت بعد موت (آسر) لا أحد يتكلم مع أحد وصار الكل حزينا في هدوء وسكون, وذات ليلة جلس (عابد) في حديقة الفيلا في نفس المكان الذي ضرب فيه (آسر) وحدق للسماء المُظلمة وغمغم باكيا وقال:

ـ معقول (آسر) مات بالفعل أم أنا في حلم أو كابوس؟ معقول (آسر) مشي من الدنيا بهذه السرعة وكأن ربنا أراد أن يعاقبني في كل فعلته مع (أماي) و(مطراوى) بموت (آسر) ربنا أخذ مني الشخص الوحيد الذي احبه أكثر من نفسي في هذه الدنيا, طيلة عمري وأنا احب نفسي فقط حتي (كارما) لم أحبها كما تعتقد لكني تزوجتها فقط من أجل المصلحة وأنها أكثر إنسانة ستساعدني وتقف جنبي وفي ظهري وتنتشلني من الفقر والبيئة التي كنت أعيش فيها, إلي أن جئت انت الدنيا يا (آسر) احببتك أكثر من أي شخص بل أكثر من نفسي, ربنا عالم أنك نقطة ضعفي الوحيدة في هذه الدنيا وأن موتك سيكسر ظهري لذلك ربنا حرمني الله منك يا حبيبي.

وصمت (عابد) للحظات ما زال يحدق للسماء ثم تابع:

ـ أنا أعلم جيدا أني ظلمتكِ كثيرا يا (أماي) وأعرف أن كل كلامك عن (أبوي) كان صحيح وأن (مطراوى) لم يكن يقصد قتل (أبوي) وأنه كان يدافع عن نفسه ومتأكد أن ربنا عاقبني في ابني بسبب دعواتكِ وغضبك عليّ لكني لم أكن اعرف أن انتقام ربنا سيكون بهذه القسوة وهذه السرعة, كل شيء ضاع بموتك يا (آسر) يا رب صبرني علي فراقه واربط علي قلبي.

ظل (عابد) يحدث نفسه هكذا تائها حتي أذن الفجر؛ فغادر الحديقة ودخل الفيلا وصلي الفجر في البهو ثم صعد إلي غرفته, وجد (كارما) تجلس علي طرف السرير وهنا حدقت

له بـنظرات تحمل كثيرا من الغضب والعنف واللوم وبـصوت واهن قال (عابد):

ـ أرجوكِ يا (كارما) لا تنظري لي بـغضب هكذا, لن أتحمل أي لوم أو عتاب حتي لو كان بـالنظرات, أنا عرفت أن كل حساباتي في الدنيا كانت خطأ وأني ظلمت (أماي) وأخواتي كثيرا وظلمت ابني عندما حاولت أمنعه أن يحب (أماي) ويقرب منها, ضيعت ابني وضيعت عائلتي وحبهم لي, عرفت أني كنت أناني افكر في نفسي فقط وأني كنت ظالم وناكر للجميل, نعم ناكر للجميل مع اقرب الناس لي, (أماي) و(آمنة) الله يرحمها و(مطراوى), لم أكن أعرف أن الدنيا ستغدر بي ابدا وتغدر بي بـهذه السرعة, كنت اعتقد أن الدنيا دائما تضحك لي لكنها صدمتني وغدرت بي وأخذ الموت مني أغلي ما أملك في هذه الدنيا.

ظل (عابد) يردد هذه الكلمات حتي انفجر بـالبكاء؛ فـقالت (كارما):

ـ فات وقت الندم ومات (آسر) يا (عابد).

وهنا نشج (عابد) بقوة باكيا وعلا صوته بـالبكاء واكمل:

ـ أرجوكِ سامحيني يا (كارما) أرجوكم سامحوني كلكم.

يأسه صمتت (كارما) للحظات لم تكترث لـكلماته ثم قالت ودموعها تملأ عيناها:

ـ ربنا وحده من يسامح يا (عابد) المفروض كلنا نطلب أن ربنا يسامحنا لأننا جميعا شاركنا في ظلمك لأمك وأخواتك

عندما وافقنا علي ظلمك لهم, كلنا كنا نعرف أنك تظلم أهلك بكل قسوة لدرجة أنا و(مامي) كنا نشك كثيرا أنك ابنهم أصلا, معقول ابن يظلم أهله هكذا؟!

راح (عابد) يحدق لها بحزن ولم يرد مجددا وساد الصمت المكان.

***

وفي الكهف بعد منتصف الليل, كان الثلاثة رجال يصطفون في دائرة واحدة وقد صاروا يشبهون الأشباح بعيونهم الممتدة من أسفل حواجبهم حتي أفواههم وشعرهم الكثيف المغطى أجسادهم, وكانوا عرايا تماما والنار مشتعلة حول جذع كلا منهم ولا يظهر مكان عورتهم من شدة النار, يهبطون برؤوسهم أرضا ثم يعادون رفعها لأعلي من جديد, ظلوا تارة يبكون بشدة وتارة أخري يكفوا عن البكاء حتي ظهرت (فتاة الكهف) من بعيد مشتعلة الجسد تماما من رأسها حتي قدميها واقتربت نحوهم, التفتوا الثلاثة رجال لها باسمين وراحوا الثلاثة يضحكون تلك الضحكات القوية المدوية في السماء التي كادت أن تُطبق الجبل علي الكهف, يبدو أنهم صاروا سعداء برؤية (فتاة الكهف) وهي الأخرى بدت سعيدة برؤيتهم وظهر ذلك في ضحكاتها العالية, وفي تلك اللحظات اقتربت منهم (فتاة الكهف) أكثر وأكثر وجلست بجوارهم وراحوا جميعا يتحدثون مع بعضهم البعض بهمهمات غير مفهومة, يبدو أنها لغة الحوار بينهم, وهنا وثبت (فتاة الكهف) من مكانها سريعا وقد انطفأت نار جسدها وراحت تحدق علي

مرمي بصرها؛ فـرأت سيدة مسنة عجوز ترتدي جلباب أسود غطي جسدها كاملا وعلي رأسها رداء أسود غطي شعرها, لا يظهر إلا وجهها غائر الخدين وقد ظهر عليها الشَيْب وكانت تمشي متكئة علي عكاز معدني في شوارع «الواحة» تنادي باكية ترتشف دموعها وتقول:

ـ وين أولادي يا أهل «الواحة» كانوا هنا يعيشون معي, اختفوا من سنوات, اخبروني وين اختفوا وتركوني وحدي, كانوا هنا معي .. (مطراوى) و(آمنة).

وفي تلك اللحظات, قفزت (فتاة الكهف) من داخل الكهف قفزة واحدة حتي صارت تقف أمام هذه العجوز وشرعت تحرقها بـشعلة النار التي كانت بـيدها لولا ظهور (فتي الكهف) في التو واللحظة عاري الجسد دون سترته وابعد شعلة النار عن السيدة العجوز, وبـنبرة حانية حدق إلي (فتاة الكهف) وقال:

ـ لماذا تريدين أن تحرقيها, أنسيتِ حُبها لكِ.

راحت (فتاة الكهف) تحدق للسيدة العجوز باكية وردت:

ـ لأزم الجميع يولع ويحترق مثلي, أنا ولعت واحترقت حتي هذه العجوز لأزم تولع وتحترق مثلي.

راحت السيدة العجوز تحدق لهما باكية مدهوشة من شكلهما الغريب والتي لم تري مثله من قبل وصاحت قائلة:

ـ وين أولادي يا صبيه, وين أولادي يا صبي؟ (مطراوى) و(آمنة) كانوا معي هنا في «الواحة» وكنا نعيش في هدوء

وسلام.

وصمتت العجوز تماما واقتربت نحوهما أكثر وظلت بـتمعن تحدق لهما وبـهدوء اكملت:

ـ انتم أولادي, (مطراوى) و(آمنة) ولكن لماذا تلبسون هكذا ولماذا تغير شكلكم هكذا واصبحتم مثل العفاريت؟!

بـترقب وحذر راحا يحدقان للسيدة العجوز لـدقائق, يبدو أنهما لم يفهما أية كلمة من كلماتها ثم شرعا يخرجان شرارات النار من عيونهما معا تجاه السيدة العجوز, كادت أن تحرقها وهم يضحكان بقوة ضحكات تدوي في السماء, وهنا هرولت السيدة العجوز بعيدا عنهما خوفا من نار عيونهما حتي توارت تماما في ظلام الليل, وفي تلك اللحظات, قبض (فتي الكهف) علي يدي (فتاة الكهف) وقفز بها قفزة واحدة حتي صارا داخل الكهف وجلسا بجوار الثلاثة رجال وراحا يتحدثان معهم من جديد بـكلماتهم الغير مفهومة!

(19)

مرت الأيام تباعا واقترب موعد جلسة النطق بـالحكم في قضية (مطراوى) لـقتل (يونس) وذات يوم وقد بدأت الشمس تتثاءب مُعلنة عن رحيلها وقت الغروب, جلست (عزيزة) حزينة أمام بنايتها تحمل هموم وكرب الدنيا كلها علي كتفيها وجاء (النمروس) وجلس بجوارها وقال متهمتها بـنبرة حانية اظهرت حبه الشديد لـ(مطروى):

ـ (مطراوى) حبيبي يا (عزيزة).

ربتّت (عزيزة) علي كتفه, وبـعينين خائفة ممتلئة بـالدموع قالت:

ـ أدعي له يا بركة «الواحة» جلسته الأسبوع القادم.

وهنا رفع (النمروس) رأسه للسماء وراح يُهمهمُ بـكلمات غير مفهومة لـدقائق ثم نظر إلي (عزيزة) بـتوجس وهمّ أن يغادر المكان بعد أن اعطته نقودا وقطعة من الحلوى كما كان يفعل معه (مطراوى) في كل مرة يراه فيها وكان يعطف عليه.

وفي تلك اللحظات, راحت (عزيزة) تحدق إلي (النمروس) باكية وغمغمت:

ـ يا عالم بما يخبئه لي الزمن أنا وابني, يا رب ليس لي في الدنيا غير (مطراوى) رجعه لي من أجل خاطر حبيبك النبي صلي الله عليه وسلم.

وهنا خرجت (لوزة) واقتربت من (عزيزة) وراحت تحدق

لها باسمة وقالت:

ـ العشاء جاهز يا خالتي.

مغتاظة ردت (عزيزة) والدموع تفر من عينيها:

ـ لست جائعة يا ملعونة وامشي من هنا وإلا سأقوم أقطع وجهكِ يا عقربة.

راحت (لوزة) تتراقص بجسدها الرفيع وردت باسمة:

ـ حاضر يا خالتي.

وذهبت (لوزة) وشرعت تتناول العشاء وحدها وهي تختلس النظرات بين الحين والأخر إلي (عزيزة) باسمة.

***

أنه يوم الخامس عشر من أغسطس يوم النطق بالحكم في قضية (مطراوى) لقتل (يونس) في مجمع المحاكم في (مطروح) وصل كلا من (عزيزة) و(سند) و(لوزة) و(فردوس) و(تينة) إلي قاعة جلسة المُحاكمة وكان (مطراوى) داخل القفص الحديدي, هرولت (عزيزة) إلي (مطراوى) بسرعة وخلفها (سند) ووقفا بجواره وراحت (عزيزة) تحضن القفص الحديدي علّها تصل لابنها باكية ترتشف دموعها, وبصوت مبحوح بالبكاء قالت:

ـ كيفك يا حبيبي, طمني عليك يا قلب أمك؟

ترقرقت عيني (مطراوى) بالدموع وبصوت مرتجف رد:

ـ الحمد لله أنا بخير يا (أماي) لكني خائف, أدعي لي يا (أماي) جلسة اليوم تمر علي خير وسلام.

خفق قلب (عزيزة) وجعا وألما وبكت ولم ترد مجددا؛ فـربتّ (سند) علي يدها وقال:

ـ كفي بكاء يا خالتي وأن شاء الله خير.

صمتت (عزيزة) تماما وراحت (لوزة) تحدق لهم باسمة ساخرة وهي تجلس بجوار (تينة) وامها في قاعة المحكمة, وهنا نادي حاجب المحكمة وقال:

ـ محكمة.

وقف جميع الحضور ودلف ثلاثة قضاة وجلسوا علي مقاعدهم علي المنصة ودخل (عابد بيك) ووقف علي منصة وكيل النائب العام وراحت تحدق له (لوزة) باسمة لكنها وجدت شكله متغيرا تماما ليس (عابد) أخيها الذي تعودت أن تراه في كل مرة متألقا بقوته وجبروته, تبدّل حاله تماما وظهر منكسرا بـوجه شاحب محدقا للأرض يبدو حزينا وكأنه يحمل هموم وحزن الدنيا كلها علي ظهره.

وفي تلك اللحظات, نظرت (عزيزة) إلي (عابد) نظرة رجاء وكأنها تطلب منه بـنظراتها أن يرحم أخيه, بادلها (عابد) بـنظرات حزن وانكسار, وراح (مطراوى) يحدق إلي (عابد) ايضا بـنظرات خوف وكأنه يطلب منه الرحمة وبادله (عابد) ايضا بـنفس نظراته لـأمه, ظلت نظراتهم الثلاثة تتبادل لـدقائق حتي نادي الحاجب علي القضية وعلي المتهم

(مطراوى عبدالعزيز محمد الفولي) ورد (مطراوى) عاليا:

ـ نعم يا فندم.

طلب القاضي من وكيل النائب العام التحدث, بصوت واهن مرتجفا بدأ (عابد بيك) بقراءة أمر الإحالة وشرح ظروف وحيثيات القضية وطالب مرة أخري بأقصى عقوبة لـ(مطراوى) وهي الإعدام شنقا, وهنا صمت الجميع وكأن علي رؤوسهم الطير, وبصوت زلزل القاعة قال القاضي:

ـ بعد الاطلاع علي جميع أوراق القضية وسماع شهادة الشهود حكمت المحكمة حضوريا علي المتهم (مطراوى عبدالعزيز محمد الفولي) بتحويل أوراقه إلي فضيلة مفتي الجمهورية لإبداء الرأي الشرعي في إعدامه.

وفي تلك اللحظات, صرخت (عزيزة) وصاحت بأعلى صوتها الذي راح يدوي في قاعة المحكمة قائلة:

ـ ابني حبيبي, لا يا (بيه) من أجل خاطري, رجعوا لي ابني يا (بيه).

ثم وثبت من مقعدها بسرعة وهرولت نحو (عابد بيك) وصاحت صارخة وقالت:

ـ لا يا (عابد) اخوك يا (عابد) من أجل خاطر امك يا (عابد) قُل لهم لا يعدموا اخوك يا (عابد).

ثم راحت تضرب بطنها بكل قوتها وتابعت:

ـ من أجل خاطر هذه البطن التي حملتك وحملت

(مطراوى) لا تعدموا اخوك يا (عابد) أقبل يدك ورجلك يا (عابد) رجع لي اخوك.

وانفجرت بـالبكاء وعلا نحيبها, بـحدة وعنف نادي القاضي عليها:

ـ ماذا تفعلين وما هذا الكلام الغريب الذي تقولِيه؟! ارجعي واجلسي مكانكِ وإلا حبستكِ الآن.

بـدموع تسيل من عيناها كـالبركان المنفجر حدقت (عزيزة) إلي (عابد بيك) ثم للقاضي وتابعت متلعثمة وهي تشير بـسبابتها إلي (عابد بيك) تترجاه بـنظراتها:

ـ (عابد بيه) ابني يا (بيه) و(مطراوى) ابني يا (بيه) رحمتك يا رب, ولادي الأثنين وأنا بينهم واحد مسجون والثاني يطلب إعدامه.

قالت هذا وهي تشير بـسبابتها إلي (مطراوى) وهنا راح القاضي يحدق لها مصدوما مدهوشا ثم نظر إلي (عابد بيك) وقال مغتاظا:

ـ أصحيح هذا الكلام الذي تقوله هذه السيدة يا (عابد بيه)؟!

صمت (عابد بيك) للحظات وترقرقت عينيه بـالدموع وحدق لـأمه ثم نظر للقاضي ورد:

ـ نعم يا سيادة القاضي, انها (أماي) و(مطراوى) (أخوي) من (أماي) فقط ليس أخ شقيق لي.

وهنا سجدت (عزيزة) في محاولة أن تُقبل قدمي (عابد بيك) وقالت باكية:

ـ لا تعدموا أخوك يا (عابد) لو ما زلت تتذكر أية لحظة حب مني ومن (مطراوى) لا تعدموا أخوك يا (عابد) من أجل خاطر أمك ومن أجل خاطر (آمنة) التي كانت روحها في (مطراوى) لا تعدموا (مطراوى) يا (عابد).

وفي تلك اللحظات انحني (عابد بيك) وربتّ علي كتفي أمه وأوقفها وحضنها بقوة حتي غاصت بين ذراعيه وفرت دموعه من عيناه وقال باكيا:

ـ لا تخافين يا (أماي) سأفعل المستحيل كي يخرج (مطراوى) من هذه القضية.

وظل (عابد) حاضنا أمه لدقائق يبكي عاليا وهي أيضا تبكي في حضنه وبكي (مطراوى) وبكي معظم من في القاعة ثم قال (عابد):

ـ أنا أسف يا (أماي) علي كل ما حصل مني, ماذا أفعل كي ترضي عني وقلبكِ يسامحني يا (أماي).

راحت أمه تدقق النظر في عيناه وهي مدهوشة من تغير موقفه المفاجئ تجاهها وتجاه (مطراوى) والتي لم تتوقع ابدا أن يتغير هكذا ويقول هذا الكلام للتو ويبكي أمام الجميع رغم شخصيته القوية والمتعجرفة والمتكبرة وردت (عزيزة) باكية:

ـ لو بالفعل تريديني أن ارضي عنك واسامحك يا (عابد)

ساعد أخوك كي يخرج من هذه المصيبة يا حبيبي.

راح (عابد) يحضنها أكثر وأكثر وأكمل:

ـ أن شاء الله يا (أماي) سأبذل كل ما في جهدي حتي يخرج (مطراوى) من هذه القضية.

وهنا تحرك (عابد بيك) من مكانه نحو القاضي وأمه خلفه وقال للقاضي بنبرة سيطر عليها البكاء والحزن:

ـ سيادة القاضي أن شاء الله سأبدأ في إجراءات الطعن بالنقض علي حكم الإعدام في هذه القضية.

حدق له القاضي مدهوشا ورد:

ـ بأية صفة يا (عابد بيه)؟!

ـ بصفتي محامي (مطراوى) من الآن يا سيادة القاضي ومن هذه اللحظة أعلن استقالتي من وظيفة وكيل النائب العام.

وفي تلك اللحظات, دخل من باب قاعة المحكمة الخلفي رجل غير متوقع ظهوره بالمرة في هذا التوقيت ودنا من منصة القاضي وقال:

ـ لو سمحت يا (بيه) أنا عندي أقوال مهمة قوي في هذه القضية.

نظر له القاضي بترقب وسأله:

ـ من أنت و ما هي الأقوال التي تعرفها عن هذه القضية؟!

ـ أنا (مهدي) يا (بيه) الصديق المُقرب لـ(يونس).

وهنا حكي (مهدي) كل ما حدث من (يونس) قبل موت (آمنة) وأن (يونس) من أحضر مبيد دودة القطن لإعطائه لـ(آمنة) حتي تسقطُ ما في بطنها ومن المؤكد أن هذا هو السبب في موتها, صُدم الجميع بـما فيهم (فردوس) و(تينة) كما ذكر (مهدي) أيضا أن (تينة) قد اتفقت مع (يونس) واعطته مبلغا كبيرا من المال علي أن يبعد (آمنة) عن (مطراوى) ولا يتم زواجهما وأن (يونس) قد حكي له عن هذا الاتفاق المُبرم بينه وبين (تينة), راح الجميع يحدق إلي (تينة) بـغل وكره بـما فيهم أمها.

وفي تلك اللحظات, حكي (مطراوى) كل ما قالته له (آمنة) قبل موتِها بـلحظات عن حملِها من ابيها وعن شرابها الدواء الذي أحضره لها (يونس) لـتسقطُ الجنين وتطابق كلام (مطراوى) مع كلام (مهدي) وأكمل (مطراوى) حديثه أنه عندما واجه (يونس) بـما عرفه من (آمنة) همّ (يونس) في قتله بـالسكين التي أحضرها من المطبخ وأنه لم يكن يقصد قتل (يونس) وأنه كان في حالة دفاع شرعي عن النفس عندما كاد (يونس) أن يقتله, وبعد سماع القاضي كل هذا قال:

ـ تؤجل القضية لـجلسة الخامس عشر من أكتوبر وذلك نظرا لـظهور أدلة جديدة.

انتهت الجلسة وذهب (عابد) ناحية القفص الحديدي ووقف بجوار (مطراوى) وبـنبرة حانية قال:

ـ أن شاء الله ستأخذ براءة أو سجن مخفف يا (مطراوى) لأنك كنت في حالة دفاع شرعي عن النفس وأن شاء الله ستشهد (لوزة) بكل بما رأته وسمعته بينك وبين (أبوي) الله يسامحه علي ما فعله بنا وشهادة (لوزة) ستغير مسار القضية تماما, لا تقلق يا (أخوي) أنا معك وفي ظهرك من الآن.

راح (مطراوى) يحتضنه بنظراته وانفجر بالبكاء وقال:

ـ معقول ما فعلته هذا يا (عابد) أكيد أنا في حلم, مستحيل اتخيل ابدا أنك تتبدّل وتغير موقفك تجاهي هكذا في لحظات.

بحب وعطف حدق له (عابد) ورد:

ـ أرجوك سامحني علي كل ما فعلته معك يا (مطراوى).

ثم نظر (عابد) لأمه وتابع:

ـ أرجوكِ سامحينِي يا (أماي).

اقتربت منه أمه وحضنته مرة أخري وردت باكية:

ـ ربنا يرضي عنك مثل ما رضتنِي الآن أنا وأخوك يا (عابد) يا حبيبي.

وهنا اقتربت (لوزة) من (عابد) ووقفت خلفه تنظر إلي (عزيزة) وقالت:

ـ سامحينِي يا خالتي.

حدقت لها (عزيزة) باكية وردت:

ـ لو (مطراوى) أخذ براءة سأسامح أي شخص يا (لوزة) مهما فعل فيّ أو في (مطراوى).

اقتربت (لوزة) من (مطراوى) وقالت:

ـ سامحني يا (مطراوى) وأوعدك اشهد بكل ما حصل وأنك كنتُ تدافع عن نفسك مهما كلفني الأمر حتي لو دخلت السجن.

أومأ (مطراوى) برأسه شاكرا لها.

كان (سند) مصدوما من تغير أسلوب (عابد) بهذه الطريقة, راح (مطراوى) يحدق إلي (عابد) من خلف القضبان الحديدي وبنبرة حانية غمرها البكاء قال:

ـ اتمني احضنك الآن يا (عابد).

وفي تلك اللحظات, أمر (عابد بيك) الحارس بفتح القفص الحديدي ودلف سريعا داخل القفص وحضن (مطراوى) بقوة وكأنهما طالما كانا ينتظران هذا الحضن وسالت دموعهما تعبر عن مشاعر الأخوة وقال (مطراوى) وهو ما زال بين أحضان اخيه:

ـ طالما كنت اتمني حضنك منذ زمن يا (أخوي) أنا الآن أشعر بالأمان لأول مرة في حياتي, حضن الأخ أمان يا (عابد) وهذا ما كنت اتمناه من الدنيا طيلة عمري, هو حضنك وأن نكون سند لبعض وفي ظهر بعض دائما كي نواجه الدنيا بكل مشاكلها يا (أخوي).

ظل (عابد) يطوق (مطراوى) بين ذراعيه وقال:

ـ لن احرمك من حضني بعد ذلك يا حبيبي.

غمرتهما مشاعر الأخوة في بكاء جميع من رأي هذا المشهد.

«ثمة حضن من الأخ في وقت الضعف والخوف يشعرك بالقوة والأمان وكأنك تعاند ظلم هذه الدنيا بدفء هذا الحضن».

وبذلك انتهت الجلسة هذا اليوم وعاد (مطراوى) لمحبسه وخرج (عابد) من قاعة المحكمة بصحبة أمه و(لوزة) و(سند) نظرت (عزيزة) إلي (عابد) وقالت:

ـ (آسر) وحشني قوي يا (عابد) اتمني أن أراه في أقرب وقت يا حبيبي.

تسمّر (عابد) وتيبّس مكانه وبدموع فرت إلي وجنتيه حدق لأمه وقال:

ـ (آسر) مات يا (أماي).

وفي تلك اللحظات, انهارت (عزيزة) و(لوزة) بالبكاء ودنا (عابد) من أمه وحضنها وراح يبكي في حضنها وحكي لها كل ما حدث لأبنه حتي مات.

باكية حزينة قالت (عزيزة):

ـ البقاء لله يا حبيبي, أن شاء الله ربنا يعوض عليك.

رجع (عابد) إلي الفيلا في المساء وجلس مع (كارما) في

غرفتهما وحكي لها عن كل ما حدث هذا اليوم وقال:

ـ أرجوكِ لا تزعلي من استقالتي يا (كارما).

بغير اكتراث وحالة من اللامبالاة حدقت له (كارما) صامته ولم ترد بكلمة واحدة؛ فتابع (عابد):

ـ بعد موت (آسر) عرفت أن الدنيا لا تساوي شيء يا (كارما) واليوم لم اتحمل وقفة (مطراوى) خلف القضبان ولا دموع (أماي) عليه واعتقد أن ما فعلته معهم اليوم هو أقل شيء من الممكن أن اقدمه لهم بعد كل ما فعلته فيهم خاصة انا متأكد أن (مطراوى) كان يدافع عن نفسه وأن استقالتي ستدعم موقفه أمام المحكمة وتؤكد إني مؤمن ببراءته.

بابتسامة ساخرة هزت (كارما) رأسها وحدقت له وردت:

ـ أعتقد يا (عابد) أنك تعلم جيدا أن أي شيء بعد موت (آسر) لا يفرق معي أصلا, تستمر في وظيفة وكيل النائب العام أم لا, كل هذا لا يهمني في شيء, أفعل ما يريحك ويريح ضميرك تجاه أهلك حتي تعوضهم عن ظلمك لهم وكل ما فعلته معهم من قسوة واعتقد أن ما فعلته اليوم هو أقل شيء من الممكن أن تعتذر به لهم عن كل ما فعلته معهم.

بحزن نظر لها (عابد) وقال:

ـ بنت أصول يا (كارما) وهذا ما كنت انتظره منكِ تجاه موقفي هذا مع (مطراوى) و(أماي).

«غريبة هذه الدنيا غريب كل ما فيها, يظل المرءُ يتكبرُ

ويتجبرُ حتي تصفعه الدنيا صفعة قوية تؤدي به إلي الهاوية, ما زلتُ لا أعلم هل حقا الدنيا غرورة أم أنه طبع الإنسان الغرور والتكبر وهي تساعده علي ذلك بكثرة المال أو منصب أو جاه أو أشياء أخري من مغريات الدنيا الدنيئة!».

وفي اليوم التالي من جلسة مُحاكمة (مطراوى) أتي (النمروس) إلي (عزيزة) وجلس معها علي أريكة (مطراوى) ونظر لها باسما وقال:

(20)

طالما كنت أسمع دائما أنه ربما يكون هناك أناس غرباء من الممكن أن يعيشون معنا وحولنا ويتعاملون معنا في حياتنا اليومية دون أن نفهم هويتهم بعد, ربما يُطلق عليهم البعض أن فيهم شيء من بركة الله والبعض يُطلق عليهم المجذوب وربما اسماء أخري, كان (النمروس) من هؤلاء الناس الذي ما زلت لا أفهم هويته بعد ومن أين أتي إلي «الواحة» وأين يسكن داخل «الواحة» أصلا؛ فـليس له بناية خاصة به داخل «الواحة» ورغم كل ذلك إلا أني احبه بشدة ومتعلق به روحيا وكم اتمني أن أخرج من هنا وأراه قريبا.

بـهذه الكلمات غمغم (مطراوى) مع نفسه بـهدوء وهو يجلس وسط سريره داخل محبسه ليلا والجميع في سبات عميق من حوله بعد أن أبي النوم أن ينصاع إليه البتة وهو يفكر في كل ما حدث له منذ أن كان طفلا ووعي لـعقله حتي الآن بعد أن بات سجينا هكذا ولم يكن يعلم أن كل هذا المجهول ينتظره داخل «الواحة» لقد صار (مطراوى) سجينا في «الواحة» بعد موت (آمنة) وسجينا في زنزانته الآن بعد أن قتل (يونس).

***

ـ (مطراوى) حبيبي سـيكون هنا قريبا يا (عزيزة) لا تخافي ولا تقلقي سـيكون معكِ قريبا وسـنغني ونرقص أنا و(مطراوى) في مكان احبه أنا و(مطراوى) جدا, انه مكان

السكون والراحة من كل شيء متعب يا (عزيزة).

وفي تلك اللحظات, لمعت عيني (عزيزة) من كلمات (النمروس) الغريبة وردت:

ـ يسمع منك ربنا يا بركة «الواحة» ولكن أي مكان هذا الذي تقصده؟!

لم يرد عليها (النمروس) بـأية أجابه وغادر البناية وهو يهمهمُ بـكلمات غير مفهومة!

مر يومين وذهبت (عزيزة) و(لوزة) إلي الفيلا وجلسا مع (كارما) وأمها في البهو وراحا يبكيان علي موت (آسر) واخبرتها (كارما) أن (آسر) كان يريد أن يري جدته (عزيزة) قبل موته وأنه كان يحبها بشدة؛ فـبكت (عزيزة) بـأعلى صوتها منتحبة بعد أن تذكرت (آسر).

مرت الأيام تباعا و(عزيزة) تدعو ربها متوسلة إليه لـنجاة (مطراوى) وأتي يوم إعادة مُحاكمة (مطراوى) وذهب الجميع إلي المحكمة في «مطروح» وبدأ يترافع (عابد) للدفاع عن (مطراوى) وتم سماع شهادة (مهدي) و(لوزة) مرة أخري وكانت (لوزة) هي شاهد الإثبات الوحيد علي (مطراوى) في قتله لـ(يونس) ولكن تلك المرة عدّلت أقوالها وقالت أنها قد سمعت كل ما حدث بين (مطراوى) وابيها (يونس) قبل قتله بـلحظات وقصت كل ما حدث بينهما بالتفصيل وأن (يونس) حاول قتل (مطراوى) مرتين وادعت أنها تذّكرت ذلك الآن ولم تتذكره من قبل نظرا لـصدمتها من قتل ابيها كما فهمها

(عابد) وتقبل القاضي شهادتها وصارت شاهد نفي في القضية وقدم (عابد) نتيجة التحاليل التي تثبت أن الطفل الذي كانت تحمل فيه (آمنة) كان ابن (يونس) وبـذلك تم تأكيد كلام (مطراوى) و(مهدي) و(لوزة) وفي نهاية الجلسة نطق القاضي بـالحكم وقال:

ـ بعد الاطلاع علي أوراق القضية وسماع شهادة الشهود وظهور أدلة جديدة في القضية والتي تثبتُ أن (مطراوى) كان في حالة من الدفاع الشرعي عن النفس, حكمت المحكمة حضوريا وبـالإجماع علي المتهم (مطراوى عبدالعزيز محمد الفولي) بـالبراءة مما نُسب إليه, رفعت الجلسة.

وفي تلك اللحظات, راحت (عزيزة) تزغرد بـأعلى صوتها ودوت الزغاريد في قاعة المحكمة وركضت (عزيزة) سريعا إلي (عابد) وجثت علي ركبتيها في محاولة أن تقبل قدمي (عابد) لكنه أوقفها بسرعة وضمها بين ذراعيه وقال:

ـ اتمني أن يكون قلبكِ راضِ عني الآن يا (أماي) وتكوني سامحتِني علي كل ما فعلته معكِ ومع (مطراوى).

وهنا ترقرقت عيني (عابد) بـالدموع واكمل:

ـ أرجوكِ سامحيني يا (أماي).

لم تستطيع (عزيزة) الرد من شدة فرحتها وبـكائها, وهنا اقتربت (عزيزة) و(عابد) نحو (مطراوى) وهو ما زال داخل القفص الحديدي وقالت (عزيزة):

ـ مبارك يا (مطراوى) مبارك عليك البراءة يا قلب أمك.

بـنظرات حُب رد (مطراوى) باكيا:

ـ في الحقيقة يا (أماي) المفروض كلنا نُشكر (عابد) ونقول له مبارك رجوعك لنا يا (عابد) يا (أخوي).

وبـحب حدق (مطراوى) إلي (عابد) والدموع تنهمرُ من عيناه وقال:

ـ في صدري وقلبي كلام كثير قوي يا (أخوي) لا أستطيع أن أقوله, لكن كل ما اريد أن أقوله لك الآن, إني مَدين لك بـحياتي يا (عابد) علي وقوفك جنبي وإظهار أني كنت أدافع عن نفسي.

بـنبرة حانية رد (عابد):

ـ وأنا لا أريد أن أسمع منك أي كلام يا (مطراوى) يكفي لي نظرة الفرحة التي أرها في عيونك أنت و(أماي) الآن, هذه عندي بـالدنيا وما فيها يا (أخوي).

وتابعت (عزيزة) مُحدقة إلي (عابد):

ـ بالفعل كُلنا لأزم نشكرك يا (عابد) علي ما فعلته مع (مطراوى).

وهنا حدق (عابد) لـأمه و(مطراوى) والسعادة تغمره وكأنه يُحلق في السماء فرحا لما يراه في عيونهما من غبطة وسرور ثم بـتمعن دقق (عابد) النظر إلي (مطراوى) وقال:

ـ أتتذكر يا (مطراوى) زمان عندما قُلت لي كتافي الأثنين ملكك يا (عابد) كتف زاد وكتف ماء.

بـنبرة باكية رد (مطراوى):

ـ نعم أتذكر يا (أخوي).

صمت (عابد) لوهلة ثم تابع:

ـ أنا الآن اقول لك هذا يا (مطراوى) كتافي الأثنين ملكك يا (أخوي) كتف زاد وكتف ماء ولن اتخلى عنك من اليوم مهما حصل يا (أخوي).

وفي تلك اللحظات, نشج (مطراوى) باكيا بـأعلى صوته مُتأثرا بـكلمات اخيه.

***

مر أسبوع علي (مطراوى) بعد خروجه من السجن ولم يخرج من بنايته البتة وكان يتسامر كل ليلة مع أمه التي افتقدها كثيرا وقد عرف بـموت (آسر) عقب خروجه من السجن؛ فـحزن كثيرا ولم يتأنّ لحظة وهاتف (عابد) وقدم واجب العزاء وراح يطيب خاطره ودعي له أن يعوض الله عليه بـطفل أخر.

وفي كل مرة خلال هذا الأسبوع كان (مطراوى) ينتظر مجيء (النمروس) لـزيارته لكنه لم يأتي ابدا؛ فـخرج (مطراوى) باحثا عن (النمروس) الذي اختفي من «الواحة» تماما ولم يراه احدا بعد خروج (مطراوى) من السجن, عاد (مطراوى) وقت القيلولة وجلس مع أمه حزينا علي اختفاء (النمروس) الذي طالما كان يتمني الخروج من السجن كي

يراه.

وفي اليوم التالي, أتي (عابد) وزوجته لـزيارة أمه و(مطراوى) ودخلا وتصافحوا جميعا وراح (مطراوى) يضم (عابد) بين ذراعيه واخبرهم (عابد) أن (كارما) حُبلي, تورد وجوهم فرحا وسعادة بـهذا الخبر الجميل ودعت لهما (عزيزة) أن يعوض الله عليها, وجهزت (لوزة) الطعام وتناولوه معا جميعا سعداء ثم دخلت (كارما) تستريح في حجرة (عزيزة) ودلفت (لوزة) المطبخ, وهنا حدق (مطراوى) إلي (عابد) وراح يشكره علي ما فعله معه؛ فـرد (عابد) باسما:

ـ في الحقيقة أنا من يجب أن أشكرك يا (مطراوى) علي كل شيء, أشكرك يا (مطراوى) علي تربيتك لي منذ طفولتي وكنت لي الأب الحقيقي بالفعل بدلا من (أبوي) وأشكرك أنك صرفت علي تعليمي حتي انتهيت من الجامعة, أنت و(آمنة) الله يرحمها, وأشكرك أنك كنت تعلم الحقيقة كاملة وأخفيتها عني حتي لا اتأثر بـأي شيء, لأزم أشكرك لأنك أطيب وأحن قلب في هذه الدنيا يا (مطراوى).

ترقرقت عيني (مطراوى) بـالدموع وبـنبرة حانية رد:

ـ يعلم ربنا أني كنت لن ابوح بـسر (آمنة) لأي مخلوق لكن الظروف كانت أقوي مني وحفظ سرها كان ثمنه حياتي, سامحيني يا (آمنة).

وصمت (مطراوى) لوهلة ثم نظر إلي (عابد) واكمل:

ـ أنت ابني يا (عابد) لست (أخوي) فقط وليس هناك أي

شكر بين الأخوات, تعالَ ننسي كل ما حصل ونبدأ من جديد.

صمت (عابد) هنيهة ثم قال:

ـ أن شاء الله يا (مطراوى) سأبني فيلا هنا في «الواحة» تعيش بها أنت و(أماي) و(لوزة) وتبحث عن بنت الحلال وتتزوجها وتملأ الفيلا أطفال وتعيش حياتك وكفي حزن يا (أخوي).

فرت الدموع من عيني (مطراوى) وبهدوء رد:

ـ مستحيل اتزوج بعد (آمنة) يا (عابد) ما زلتُ احبها واعيش معها وكأنها ما زالت في الدنيا, (آمنة) حبي الأول والأخير وليس هناك أية بنت في الدنيا من الممكن أن تعوض مكانها.

***

مر شهر علي خروج (مطراوى) من السجن ولم يظهر (النمروس) بعد, وذات ليلة كان (مطراوى) عائدا إلي بنايته بعد سهرته مع (سند) نظر للسماء وراي القمر بدرا وبجواره (آمنة) انفرجت أسارير وجهه وتورد بالابتسامة وغمغم مع نفسه بهدوء قائلا:

ـ وحشتِني قوي يا (آمنة) كيف حالكِ؟ اتمني أن تكوني بخير وسلام يا حُب العمر كله.

وظل مُحدقا للنجمة (آمنة) متباهيا بجمالها ويحدثها سعيدا حتي قادته قدماه إلي طريق «الغابة» وقد اقترب

منتصف الليل ودخلها دون أن يشعر بـنفسه, وصل إلي جذع الشجرة وجلس أرضا ساندا ظهره علي الجذع ما زال مُحدقا للنجمة (آمنة) وقال بـهدوء:

ـ وحشتِني «الغابة» يا (آمنة) والجلوس ليلا وحدي اسهر واتكلم معكِ حتي الفجر.

وفي تلك اللحظات, راي (رجل الغابة) يشق الأشجار سريعا وبـيده شعلة النار كالعادة, ضحك (مطراوى) وبـهدوء قال:

ـ مرحبا يا خليلي, كنت اعرف إنك ستظهر هذه الليلة, وحشتني قوي يا صديقي الغالي.

وقف (رجل الغابة) علي بعد أمتار وأجفل واشطاط غضبا وراح يؤنب (مطراوى) وقال مغتاظا:

ـ لماذا دخلت «الغابة» مرة أخري يا (مطراوى)؟!

بـتوجس حدق له (مطراوى) مترقبا ورد:

ـ جئت كي اراك يا خليلي واطمئن عليك.

وهنا أنحني (رجل الغابة) بـجسده واضعا رأسه بين كفيّه وصمت تماما ثم رفع رأسه مُحدقا إلي (مطراوى) ودنا من جذع شجرة مجاورة وجلس أعلاها ولم يتفوه البتة مجددا.

وفي تلك اللحظات, ظهر (الرجل القروي) يشق الأشجار سريعا وجلس علي جذع شجرة مجاورة لـ(رجل الغابة) وبـتمعن نظر (الرجل القروي) إلي (مطراوى) وسأله نفس السؤال الذي سأله له (رجل الغابة) وهنا مدهوشا سأل

(مطراوى) (الرجل القروي) بعد أن وثبت في عقله تفصيله مهمة:

ـ وكيف ظهرت في «الغابة» ليلا, أنت قُلت لي أنك تخاف من «الغابة» ليلا يا خال؟!

حدق (الرجل القروي) إلي (رجل الغابة) للحظات صامتا ولم يكترث لسؤال (مطراوى)؛ وكرر سؤاله علي (مطراوى) مرة أخري:

ـ لماذا دخلت «الغابة» مرة أخري يا (مطراوى)؟!

بوجوم متجهما مغتاظا رد (مطراوى):

ـ نفس السبب الذي جعلك تظهر في «الغابة» ليلا يا خال!

وصمت ثلاثتهما, وعلي مرمي بصره راي (مطراوى) من يشق الأشجار يقترب نحوهم يمشي مترنحا يتلكأ في مشيته وراح (مطراوى) يدقق النظر جيدا .. أنه (النمروس) وهنا وثب (مطراوى) من مكانه وصار عقله يعج بالأسئلة وصاح بأعلى صوته قائلا:

ـ (النمروس) كنت مُختفي وين يا صاحبي, ولماذا دخلت «الغابة المهجورة» الآن وحدك, ألم تخاف من «الغابة» ليلا يا صديقي؟!

وهنا دنا (النمروس) اكثر وجلس علي جذع شجرة بجوار (رجل الغابة) و(الرجل القروي) ناظرا لهما مُبتسما فاغرا فاه ظاهر البلاهة ثم بسعادة حدق إلي (مطراوى) وبلهفة قال

دون تهتهة كما تعود (مطراوى) علي طريقة كلامه من قبل:

ـ كيفك يا (مطراوى)؟ وحشتني قوي يا حبيبي.

باسما رد (مطراوى):

ـ أنا بخير يا صاحبي, وسعيد جدا اني رأيتك الآن.

وكرر (مطراوى) سؤاله علي (النمروس) مرة أخري دون تأنّ والعرق يحتشد علي جبينه؛ فـنظر (النمروس) إلي (رجل الغابة) و(الرجل القروي) وصمت هنيهة ثم حدق إلي (مطراوى) ورد وقد ساد الوجوم المكان:

ـ نفس السبب الذي جعلك تدخل «الغابة» الآن يا (مطراوى)!

بـنظرة طويلة مهادنة راح (مطراوى) يحدق لهم الثلاثة وصاح بـأعلى صوته الذي دوي في سماء «الغابة» وقال:

ـ من انتم وماذا تريدون مني؟!

وهنا شاعت ابتسامة رضا علي وجوههم وحدقوا لـبعضهم الثلاثة لـدقائق ولم يردوا بـأية كلمة ثم قفزوا معا في نفس التوقيت وراحوا يشقون الأشجار مُتعمقين أكثر داخل «الغابة» وبـصوت واحد صاحوا قائلين:

ـ مرحبا بك في «الغابة» من جديد يا (مطراوى).

قطب (مطراوى) جبينه مفكرا ونادي عليهم بـأعلى صوته وقال:

ـ من انتم ولماذا تتركوني وحدي الآن؟!

لم يجيبوه بأية كلمة وظل ينادي عليهم حتي تواروا تماما بين الأشجار دون أن يعرف سرهم!

«ستظل هناك أسرار في الدنيا لم ولن نعرفها ابدا رغم كل ما وصلنا إليه من علم وما سيصل إليه الأجيال القادمة, هذه الأسرار ربما لا تكون خاصة بعالم البشر من الأساس, أتكون مرتبطة بالعالم الآخر أو هناك أسباب أخري لها؟ لا أعلم!».

***

بستان واسع جدا به كثيرا من الورود والأزهار بجميع الوانها ولكن يغلبُ عليها اللون الأخضر أكثر وكان هناك نور ساحر وكأنه نور من الجنة وثمار من جميع أنواع الفاكهة تملأ هذا البستان المُبهج والذي ظهر كقطعة من الجنة أو ربما من العالم الآخر, وهنا ظهرت فتاة جميلة جدا وكأنها حورية من السماء ترتدي فستانا ابيض اللون فضفاضا يغطي جسدها كاملا, شعرها داكن السواد راح يرفرف كالعلم خلفها وهي تركض في هذا البستان الساحر روعة وجمال في كل الاتجاهات حتي وقفت شاردة بين الزهور تحدق في كل مكان ورأت فتي قادما علي مرمي البصر من بين الزهور ودنا منها بسرعة, وهنا انفرجت أسارير وجهها فرحا وحدقت له باسمة, وبنبرة حانية بهدوء قالت دون تأنّ:

ـ وحشتني يا (مطراوى).

وفي تلك اللحظات, اقترب منها أكثر وحاول أن يتبين

وجهها بـوضوح ومدّ يده وربّت علي يديها بقوة وراح يقبل يديها بـالتبادل بـنهم هائما شوقا ثم رفع رأسه, وبـتمعن دقق النظر في عيناها الساحرة وبـنبرة حانية أكثر من نبرتها رد باسما:

ـ وانتِ وحشتِني اكثر يا (آمنة).

وصمت لـجزء من الثانية ثم قال بـحب وحنان:

ـ معقول أنا الآن معكِ هنا؟ أنا لا أصدق نفسي يبدو اني احلم, أخيرا جئت لكِ يا (آمنة) طالما تمنيت لقاءكِ يا حُب العمر كله.

ظلت تحدق له شوقا وقالت باسمة:

ـ طالما كنت انتظرك هنا يا حبيبي, لماذا تأخرت كل هذا الوقت يا حبيبي؟!

صمت للحظات وهو ما زال ينظر لها بـحب وفرحة ورد:

ـ وأنا طالما انتظرت لحظة لقاءكِ يا (آمنة) لم أشعر بـأية سعادة بعد رحيلكِ يا حبيبتي, لم اعش لحظة فرح واحدة بعدكِ.

ظلت تحدق له هائمة غبطة وسرور ثم قالت:

ـ أخيرا تجمعنا معا يا (مطراوى) الآن أطمئن قلبي يا حبيبي.

وفي تلك اللحظات, حملها علي ذراعيه وركض بها سريعا وتعمق أكثر وأكثر بين الزهور داخل البستان حتي تواريا

تماما.

***

مكث (مطراوى) خمس سنوات داخل «الغابة المهجورة» وحده ولم يتمكن من الخروج منها البتة وكان يلتقي بـ(آمنة) في السماء كل شهر مرة عندما يصبح القمر بدرا يتحدث معها وكأنها تعيش معه علي الأرض وباتت النجمة (آمنة) تؤنسه في وحشته ووحدته, كل يوم يجد طعامه بجوار جذع الشجرة عندما يستيقظ من نومه ولم يعرف من أين ومن يحضر له هذا الطعام؟! تغيّر شكله وتبدّل حاله تماما مع مرور السنوات وصار نحيلا وضعيفا أكثر, طال شعر رأسه ولحيته حتي أنه اصبح مُخيفا في الشكل لو راه أحدا من «الواحة» الآن, حاول كثيرا مرة تلو الأخرى في الخروج من «الغابة» لكن جاءت كل محاولاته بـالفشل, حتي ظهروا هؤلاء الأربعة أفراد هناك يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة وقد بدأت الشمس تعلن عن غروبها مع بداية ليل جديد وكان (مطراوى) مُستلقي أرضا علي جنبه الأيمن بـشكله الغريب وبدي وكأنه من العصور القديمة ذو شعر رأس طويل جدا غطي كتفيّه وشارب كثُ طويل ايضا مرتديا قميصا وسروالا يشبهان ملابس (الرجل القروي) واقتربوا الأربعة من (مطراوى) وراحوا يحركونه يمينا ويسارا لكن قد فات الأوان .. لقد مات (مطراوى) وفي تلك اللحظة, نظروا لـبعضهم الأربعة باسمين وكأنهم طالما كانوا ينتظرون هذه اللحظة وهي صعود روح (مطراوى) للسماء ثم وضعوه أعلي لوح خشبي وحملوا

الأربعة هذا اللوح علي أكتافهم وشرعوا يتعمقوا أكثر وأكثر داخل «الغابة» حتي وصلوا لهذا المكان المُظلم المُخيف في بطن جبل مروع ومُخيف جدا .. أنه الكهف, ودخلوا به داخل الكهف وكانت هناك ثلاثة مقابر مُحاطة بشعلات من النار, شرعوا الأربعة يحفرون قبر جديد بجوار هذه المقابر ودفنوا (مطراوى) به, ثم جلسوا جميعا بجوار مقبرة (مطراوى) يتحدثون مع (مطراوى) بكلمات غير مفهومة وظلوا بجواره هناك .. وكانوا الأربعة أفراد هم (الرجل القروي) و(رجل الغابة) و(النمروس) و(آمنة), وفي تلك اللحظات ظهر فتي قادما من بعيد علي مرمي البصر وظل يقترب نحوهم أكثر وأكثر حتي دنا منهم ووقف أمامهم وجها لوجه وراحوا الأربعة يحدقون له باسمين وفي نفس واحد قالوا:

ـ مرحبا بك في عالمك الجديد يا (مطراوى) طالما كنا ننتظرك هنا يا حبيبنا, الآن صرت في أمن وأمان يا (مطراوى) وستستريح من الدنيا وكل ما فيها من ألم ووجع يا (مطراوى).

وهنا جلس (مطراوى) بجوارهم وشرع يتحدث معهم بكلمات غير مفهومة لكنهم بدوا يفهمون ما يقول وظهر ذلك علي تعبيراتهم وتجاوبهم معه, ثم راح (مطراوى) يدقق النظر علي الأربعة مقابر ورأي .. المقبرة الأولي أقصي اليمين مرسوم عليها صورة (الرجل القروي) بتاريخ موته عام 1850م, والمقبرة الثانية بجوارها في الوسط مرسوم عليها صورة (رجل الغابة) بتاريخ موته عام 1890م, والمقبرة

الثالثة بجوار الثانية مرسوم عليها صورة (النمروس) بتاريخ موته عام 1923م, والمقبرة الأخيرة بجوار الثالثة في أقصي الشمال مرسوم عليها صورة (مطراوى) بتاريخ موته عام 2023م.

***

ظلت (عزيزة) تبكي طوال هذه السنوات علي اختفاء (مطراوى) ورفضت أن تعيش في الفيلا التي بناها لها (عابد) داخل «الواحة» حزنا علي (مطراوى) وظلت تعيش في بنايتها الصغيرة مع (لوزة) وقد تبدّل حالها وتغيّر شكلها بعد أن فقدت صحتها وصارت نحيلة للغاية وتجعد جلد وجهها وظهر عليها علامات الشيب, وذات ليلة كانت تجلس وسط أريكة (مطراوى) في ردهة بنايتها رأت (مطراوى) يجلس علي جدار الردهة باسما وبنبرات حانية هادئة قال:

ـ لا تخافي ولا تقلقي عليّ يا (أماى) بعد اليوم, لقد صرت أرقد بسلام في أمن وأمان وهدوء.

وتوراي (مطراوى) في التو واللحظة, وفي تلك اللحظات, صرخت (عزيزة) بأعلى صوتها صرخات مدوية كاد أن يسمعها جميع سكان «الواحة» وقالت:

ـ وينك يا (مطراوى)؟

تمت بحمد الله...

د. سعد جرامون